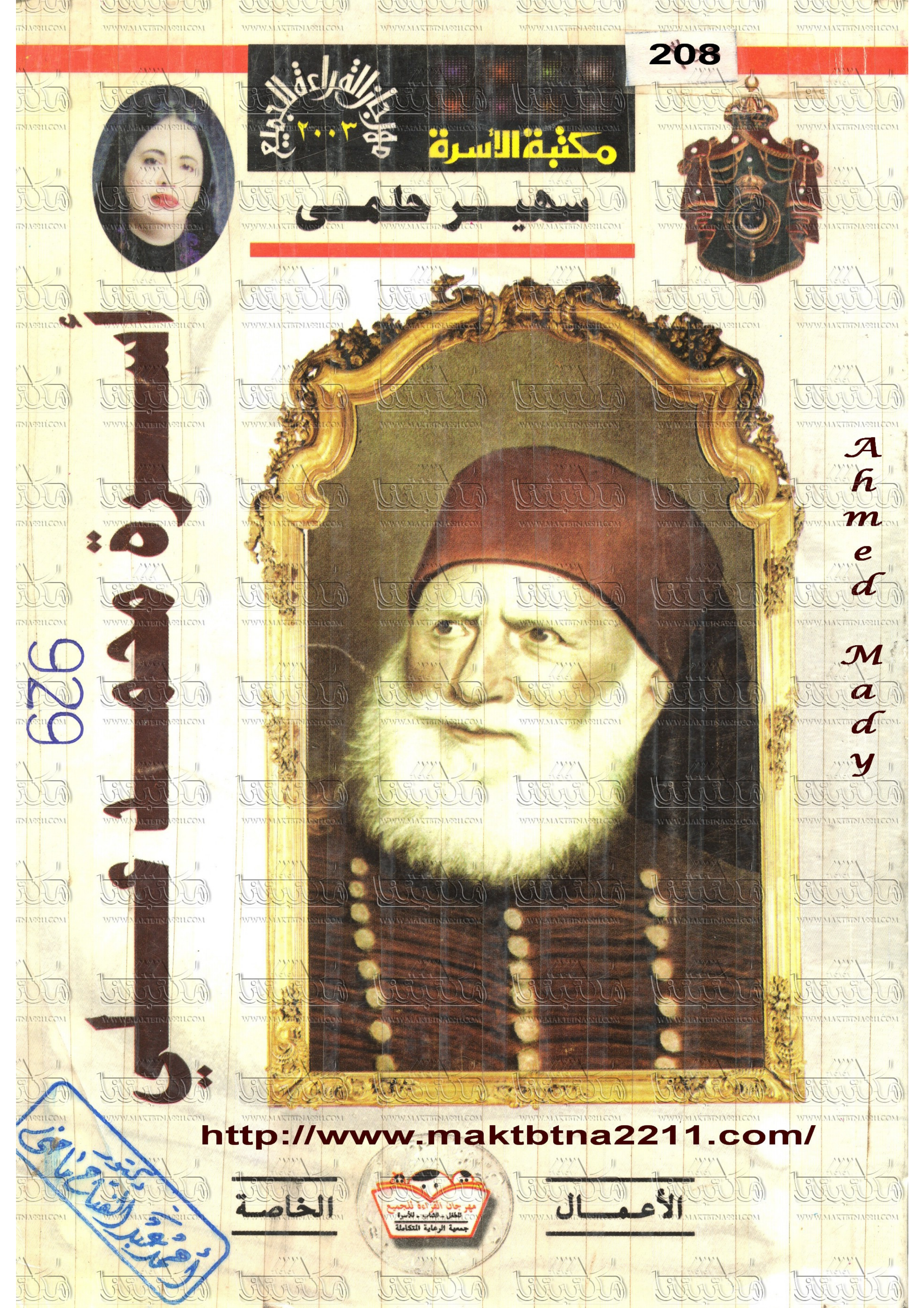

208
مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣
مكتبة الأسرة
سهير حلمى
أسرة محمد على
http://www.maktbtna2211.com/
الأعمال الخاصة
مهرجان القراءة للجميع
جمعية الرعاية المتكاملة



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية.

سوزان مبارك

Sat.
24/3/2012
Riyadh

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

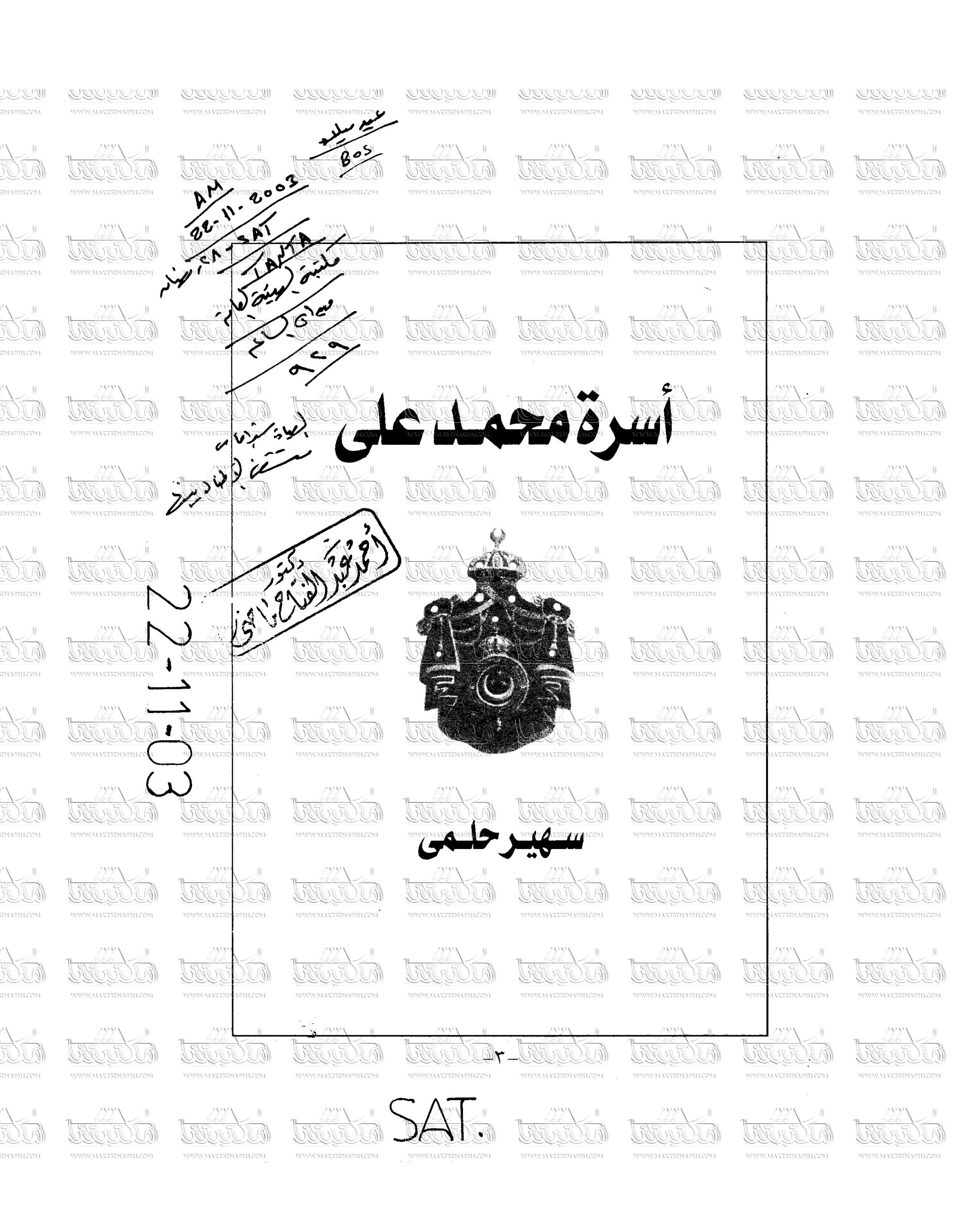
الثمن ٣٠٠ قرش

Tanta

أسرة محمد على



محمد علي باشا



أسرة محمد على

سهير حلمى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

إشراف: غادة الريدى

أسرة محمد على

سهير حلمى

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : **محمـود الهندى**

الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد

المشرف العام :
د.سميـرسرحـان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

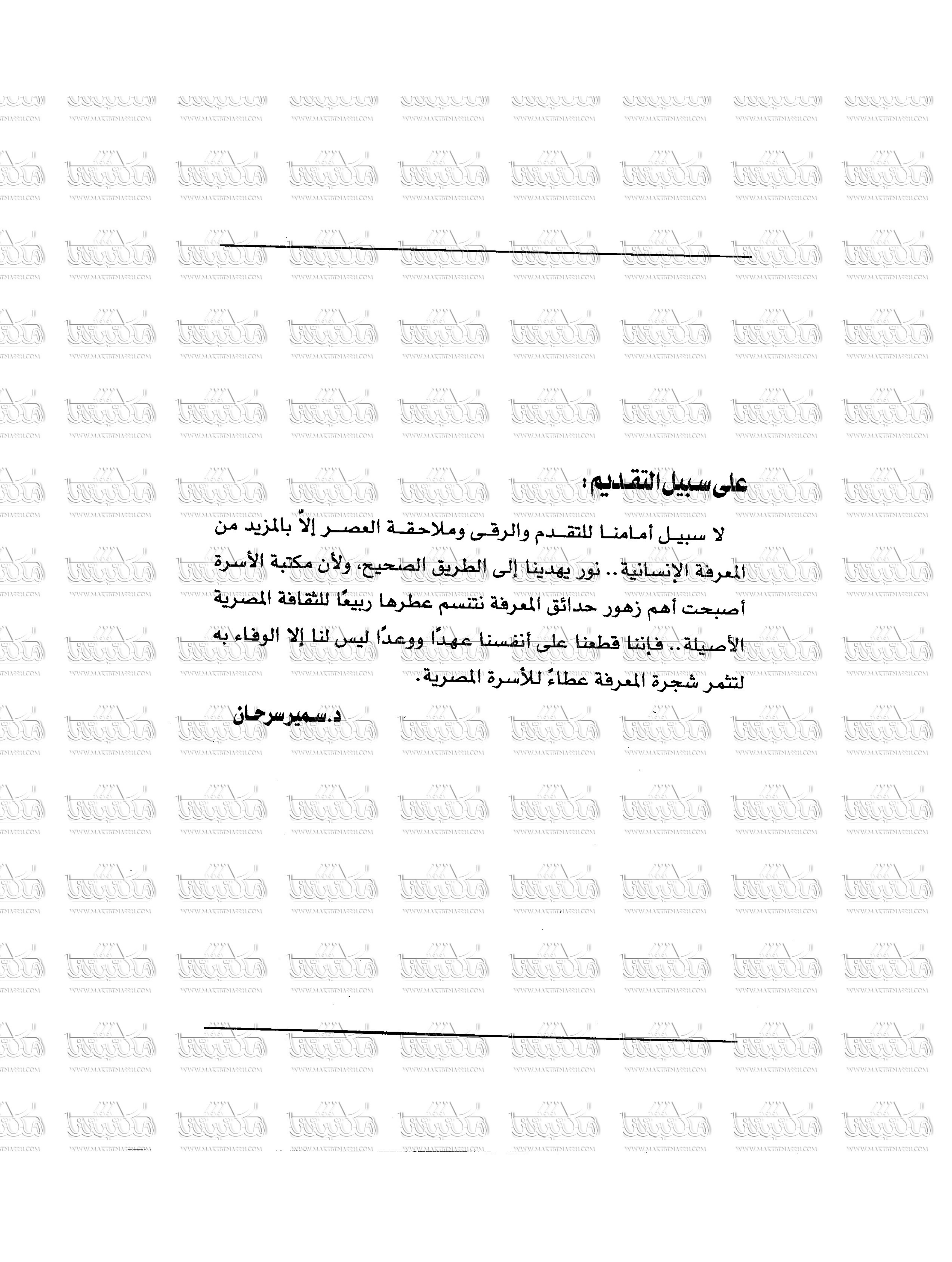
وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشـبـاب

التنفيذ : هيئة الكتاب



على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د.سمير سرحان



موكب محمد على أثناء خروجه من القلعة

مقدمة

«الأمة الحية هى التى يحيا فيها أمواتها .. والأمة الميتة يموت فيها أحياؤها وهنا يكمن الفرق بين الشرق والغرب وهو عملية الجمع فهذه الأمم تجمع العمل على عمل فتكون الحصيلة عملا، أما الشرق فلا يعرف غير عمليات الطرح فهو يطرح العمل من العمل فتكون النتيجة صفراً».

والآن حيث يسود القلق وتزداد الضغوط وتتداخل الأزمات حتى أصبح المجتمع الإنسانى يعيش فى حاضر دائم ينتشله من الماضى ويحجب عنه المستقبل المبهم شأن جميع الأطفال الذين لا يدركون من الزمان إلا حاضرهم !! لذلك نحن فى أشد الحاجة للنظر فى مرآة التاريخ فهموم الحاضر قد يبددها سكون الماضى ووداعته ولكى نبنى عالياً فى هذا الاتجاه ينبغى أن نحفر عميقاً لأننا سوف نقوم بإلقاء نظرة سريعة خاطفة على تلك الأعماق حتى لا نزعج الراقدون خلف أبواب التاريخ الموصدة بأحكام

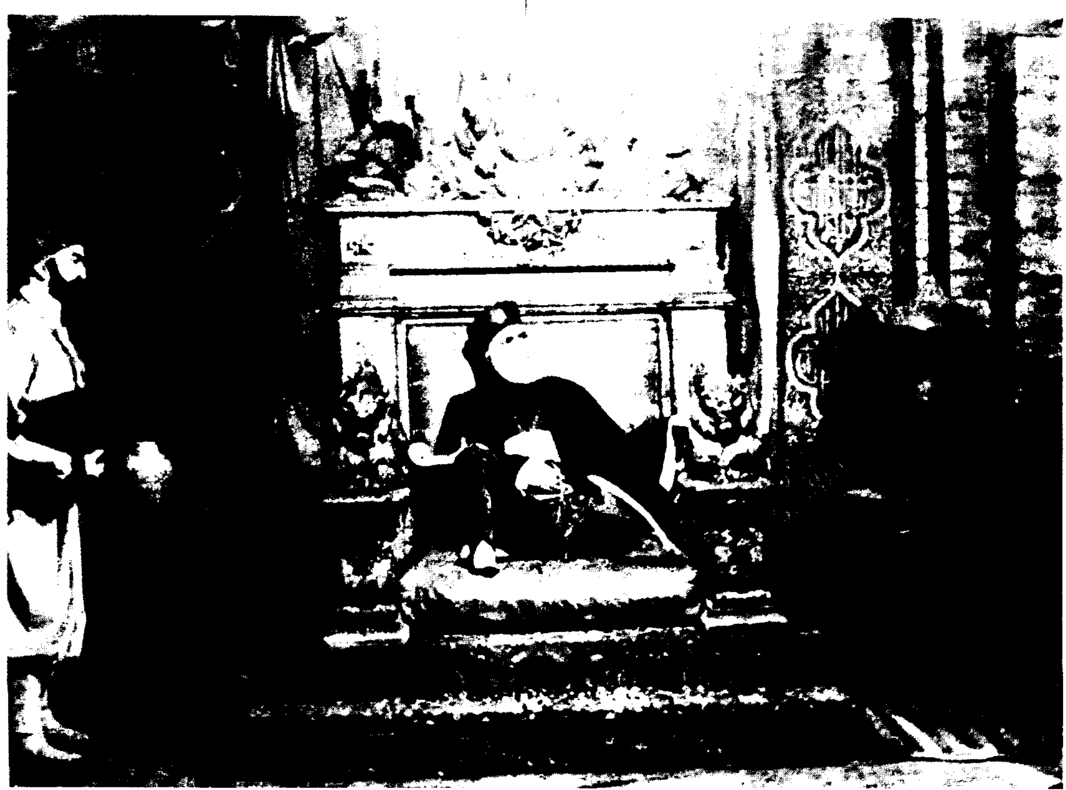
مسبقة كثيراً ما أدانتهم وأجهدت سيرتهم وذلك يتنافى مع أصول القضاء لأنهم لا يملكون الدفاع عن أنفسهم وتبرير أفعالهم فنحن نحاكمهم من قاعدة زمنية مختلفة ونتجاهل الظروف المحيطة بهم التى لا نعلمها أو ما يعرف - بالمسكوت عنه فى التاريخ ، والذى يكون فى بعض الأحيان هو التاريخ الحقيقى نسبياً !! ولا غرابة فى ذلك ألم يقل فولتير إن التاريخ ما هو إلا حاصل احتيال الأحياء على الأموات وحين بدأت العمل فى هذا البحث المتواضع عن أسرة محمد على صادفنى بعض علامات الاستفهام .. الملحة التى لم أتمكن من تجاوزها فقررت الهبوط إلى الطبقات الأولى لتاريخ مصر الحديث وفكرت فى البحث عن أصوات حكام هذه الأسرة من أجل إضفاء المزيد من الحيوية على المادة التاريخية فهم يخرجون رؤسهم من الماضى لكى نسمعهم وبمزيد من البحث من خلال أقوالهم الحوارية مع أطراف أخرى ومن خلال بعض الوثائق الرسمية أو المذكرات الشخصية أو تلك التقارير الدبلوماسية التى يرسلها الدبلوماسيون إلى خارجية بلادهم فى حيادية وسرية تعكس وجهة نظرهم الحقيقة فعين الغريب ترى ما لا نراه !! وهكذا اكتمل هذا الفيلم التاريخى المقروء لأسرة

محمد على والذى أدعوك لقراءته بعقلك ومشاهدة أحداثه بوجدانك وإعادة إخراجه مرة أخرى وفقاً للأحداث والحقائق المعروضة أمامك، مع رجاء التوقيع بإمضائك فى نهاية هذا العرض لأنك المخرج الحقيقى فقد انتهى زمن المسلمات وخطابات التاريخ النموذجية.. فنحن ننعم جميعاً بحرية إبداء الرأى وحق النقد بصورة لم نعهدها من قبل وهذه فرصة ديمقراطية ينبغى أن نقتنصها بصورة إيجابية من خلال القراءة الهادئة المرنة .. فالمعضلة التى تواجه أى كاتب يتطرق للكتابة عن الشخصيات التاريخية، أن شبح الكتابة الأولى يظل يطارده بعد أن تكون الشخصية قد وصمت بوشم يدخلها بحيرة التاريخ الراكدة .. وتكون الكتابة عنها بعد ذلك من وجهة نظر مخالفة .. نوعاً من السباحة ضد التيار .. والسباحة ضد التيار ترسو بصاحبها إلى بر الأمان فى تعب وإعياء لكنها لا تغير اتجاه التيار !! إلا لمن أراد أن يبذل مجهوداً خاصاً لكى يصل إلى قناعة ذاتية ترضيه، من هذا المنطلق طالت إقامتى بين الموسوعات والوثائق والدراسات التاريخية لكبار مؤرخينا.. حتى كدت أصاب "بداء التاريخ" الذى تحدث عنه نيتشه. وأنا أطرح هنا هذه الفرضية ..

إذا كانت الأقدار قد كتبت على مصر موقعاً عبقرياً فريداً يتوسط قلب العالم كان سبباً فى أن تحتل أرضها ويستعبد شعبها ويتم الاستيلاء على خيراتها لأكثر من ألفى عام، فمن الإنصاف أن تكون قاعدة الحكم على هؤلاء الغزاة - إذا تطرقنا تجاوزاً للمفاضلة فيما بينهم - بمقدار انتفاع مصر من أعمالهم التى تركوها لنا وساهمت فى تطوير بلادنا "فخير الناس أنفعهم للناس" وهو نفس منطق الحكم على العظماء والزعماء ، أيضاً وتاريخ مصر قبل قدو م محمد على أشبه ما يكون بسجادة إيرانية ثمنية .. عفراء .. عريقة الرسومات .. كثيرة التفاصيل تداخلت فيها الأصوات وتشابهت الأزمان .. واختلفت المعايير واستقرت التقاليد وتزعزعت الأمانى واختلفت الألوان فيها باختلاف الاحتلال فقد دهستها سنابك الخيل وأقدام الغزاة فلم تزدها إلا جمالاً ومضت عليها السنون فأصبحت تراثاً أكثر ثراء، ومنذ الغزو العثمانى لمصر على يد سليم الأول عام ١٥١٧ حتى عام ١٧٦٦ حكم مصر ١٢٠ والياً أو باشا موفدا من السلطان العثمانى بمعدل باشا كل عامين تقريباً كانت مصر خلالها تعيش فى العصور الوسطى وعلى الرغم من الثرثرة

مارش الخديو عباس حلمى من
أشعار الشيخ على الليثى





محمد على فى مجلسه بالقلعة

التاريخية المملوكية إلا أن عهد سلاطينهم لم يخلو أيضاً من العمائر العظيمة وبعد مضى أكثر من ثلاثين عاماً جاء نابليون بحملته الفرنسية يصحبه جنود يحملون السلاح وعلماء يكتبون ويدرسون ويحللون فى وصف مصر .. وعلى الرغم من كونها حملة استعمارية أحدث ضرراً كبيراً إلا أنها أحدثت طفرة علمية لا يمكن إغفالها .. وهيأت المناخ تماماً لظهور محمد على ليحكم مصر هو وأبناؤه وأحفاده لمدة ١٤٨ عاماً يقول تعالى "ولا تبخسوا الناس أشياءهم" .. وقد شهدت مصر تطوراً كبيراً خلال عهدى محمد على والخديوى إسماعيل اللذين تعاظم دورهما فى النهوض بمصر حضارياً ومعمارياً وثقافياً فإذا كان محمد على هو مؤسس مصر الحديثة فإن إسماعيل هو أكبر بناء للعمارة بعد الفراعنة وحتى نهاية عهد هذه الأسرة وإليه يرجع الفضل فى نقل مظاهر الحضارة الأوروبية إلى مصر خلال ستة عشر عاماً فقط وفى إطار التقييم العام لهذه الأسرة يمكننا قبول اعتذار الجد الأكبر "محمد على" أو الديكتاتور المستنير وحفيده إسماعيل عن أخطاء وسلبيات بقية حكامها الذين لم يؤهلوا للحكم بالفعل !! وكانوا سبباً مباشراً للاحتلال البريطانى لمصر.. تلك الأسرة التى سلطنا الضوء على نقائصها فقط واكتفينا

بقراءة عناوينها الرئيسية الموثقة تاريخياً على الرغم من أن القراءة المتأنية لا يستدل عليها من العنوان !! ومن المفارقات أننا اختلطنا بأجناس عديدة أساء معظمهم إلينا ولم نذكرهم بسوء.. بل أننا مجدنا ذكراهم على لافتات شوارعنا وفى جميع الأحوال كانت مصر دائماً أقوى من أى غزاة .. ذلك أن الشخصية المصرية المتميزة ذات الجوهر الأصيل ظلت تمتلك القدرة الكافية على استيعاب جميع الاختلافات العرقية واللغوية والثقافية وهضمها جيداً بل أن غرباءنا كانوا يتمصرون باعترافهم ويذوبون فى نسيجنا الوطنى وهذا ما حدث مع الأسرة العلوية أيضاً .. التى كانت تتمصر تدريجياً من حاكم لآخر .. ولن يضيرنا شيئاً أن يكون محمد على ألبانى أو يونانى أحب مصر وعمّر أرضها وهذه فضيلته الكبرى لكنه دخل عرين الأسد أيضاً بقدميه واشتغل بالسياسة وتلك هى رذيلته فهو عرضة إذن للانتقاد سلباً أو إيجاباً وهكذا جنت على نفسها الأسرة العلوية.

وأخيرًا أتوجه بخالص شكرى وأمتنانى إلى أستاذتى سناء البيسى التى لولا تشيجعها الدائم ومساندتها المستمرة ما صدر هذا الكتاب الذى نشر على صفحات مجلة نصف الدنيا .

سهير حلمى



نابليون يتوسط قادة حملته على مصر

القاهرة العامرة
من جوهر الصقلى حتى نابليون

يقول شاعرنا بيرم التونسى:

يا ما عجايب وغرايب ولا مصايب..

وردت على مصر

الهمشرى والأناضولى والمنغولى..

أحدف على مصر

وجيوش من الإنكشارية والدلاتية..

واشحن على مصر

عبيد وكانوا خدمها بقوا حكامها..

واحتملى يا مصر

إنها القاهرة العامرة التى وضع أساسها جوهر الصقلى وحكمها الفاطميون ما يقرب من ٢٠٩سنوات أولهم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وآخرهم الخليفة «العاضد» الذى كان يبلغ من العمر ١١عاما مما شجع صلاح الدين الأيوبى. بطل

حطين ـ من الاستيلاء على الحكم والتخطيط لإزالة الدولة الفاطمية نهائيا.. فقد كانت سلطة العاضد تتلاشى تدريجيا فهو حاكم مصر اسميا.

أما الحكام الحقيقيون فكانوا ثلاثة وزراء يتناوبون السلطة فيما بينهم وبذلك تمكن صلاح الدين الأيوبى من الاستيلاء على السلطة وعلى أموال العاضد أيضا.. الذى توفى وهو لم يتجاوز الحادية والعشرين ليبدأ عهد الدولة الأيوبية التى عزلت قضاة مصر الشيعة واتخذت من المذهب الشافعى مذهبا رسميا فى البلاد وبمقتضى هذا المذهب فإنه مذهبا رسميا فى البلاد وبمقتضى هذا المذهب فإنه لا يجوز إقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد.. وبذلك توقفت خطبة الجمعة فى الجامع الأزهر مائة عام ولم تعد إلا فى عهد الظاهر بيبرس واستمر حكم الأيوبى أكثر من ٢٢عاما وإليه يرجع الفضل فى بناء القلعة لتكون معقلا ومقرا للحكم.. حيث عهد إلى «بهاء الدين قراقوش» ببنائها وإحاطة القاهرة بالسور الشهير ومات صلاح الدين قبل اكتمالها.. فكان أول من سكنها من الأيوبيين «الكامل بن محمد بن أيوب» حيث اكتمل بناؤها فى عهده. ومن أشهر سلاطينهم أيضا «الملك الصالح نجم الدين أيوب» الذى بنى قلعة جزيرة الروضة وفى عهده كثر شراء المماليك وجعلهم حاشيته الخاصة، وحين توفى بالمنصورة تكتمت زوجته «شجرة الدر» خبر وفاته وأحضرته إلى قلعة الروضة وتولت زمام

الأمور إلى أن حضر ابنه «توران شاه» آخر السلاطين الأيوبيين . ونتيجة لسوء إدارته وافتقاده للخبرة.. تأخرت مرتبات المماليك فتآمروا على قتله وتركوا جثته ثلاثة أيام مطروحة على البحر.. فأختار المماليك شجرة الدر ونصبوها سلطانة على البلاد وخطب بإسمها على المنابر «واحفظ اللهم أم خليل المستعصية» فغضب الخليفة العباسى المستعصم حين علم بذلك وبعث من بغداد خطابا قال فيه: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلا» ووقعت شجر الدر الاسم الصحيح . فى مأزق سياسى.

تخلصت منه سريعا عن طريق زواجها من الأمير «عز الدين أيبك» بعد أن أمضت فى حكم مصر ٨٢ يوما، وفى الحال تسلطن زوجها «أيبك» ليصبح أول سلطان لدولة المماليك البحرية وسميت بالبحرية، نسبة إلى الملك الصالح الذى استقدمهم واسكنهم فى قلعة الروضة بالجزيرة.

المماليك

ولكن من هم المماليك؟ وكيف حكموا مصر ما يقرب من ٢٥٧عاما متصلة بعد زوال الدولة الأيوبية؟ كان يتم شراء المماليك كرقيق من جزر البحر المتوسط والبلقان وإيطاليا وفرنسا وبولندا والمجر وسواحل البحر الأسود والقوقاز فهم

عشرات الأجناس كما نرى وحين يتقرر سفرهم إلى خارج هذه البلاد تتقطع صلتهم بأوطانهم كلية، أما عن صفاتهم فهم فرسان بالفطرة يتسمون باللياقة البدنية والعصبية القبلية من أخص صفاتهم يتمتعون بالذكاء والحماس ولا تنقصهم العزيمة، لديهم طموح متأجج لا يخمد.. وكان من الشائع بعد شرائهم أن يعهد بهم إلى المدربين الذين يقومون بتربيتهم فى معسكرات تدريب خاصة لدراسة فنون الفروسية - وهى صناعتهم الأولى - وأساليب القتال كما يدرسون أيضا اللغة العربية وعلوم الدين والقرآن.. وبعد استقرارهم فى هذه المعسكرات يسكنون القصور لمعاونة سلاطينهم.. يقضون معظم أوقاتم فى الاعتناء بسيوفهم المعقوفة وخيولهم المطهمة ولعلك عزيزى القارئ تذكر فيلم «وإسلاماه» الذى قامت ببطولته لبنى عبدالعزيز فى دور «جهاد» وحسين رياض فى دور «سلامة»، حيث نجح الفنان المبدع شادى عبدالسلام فى تصميم الملابس المملوكية المزركشة التى يغلب عليها التفاصيل الدقيقة والأناقة اللافتة فى ذلك العهد وبصفة خاصة - ملابس الفرسان فإذا أستدعيت بعض مشاهد هذا الفيلم وملابس شجرة الدر وزواجها من عزالدين أيبك «أول من تولى من المماليك» فقد استهلمت القدرة على تخيل روح هذا العصر.

شاع فى عهد المماليك الحكم باسم الأطفال وتوليه أمورهم نيابة عنهم، حيث يتولى ولى الأمر أو شريك الطفل فى الحكم

مقاليد البلاد.. ويبدأ بقطع اسمه من الخطبة ويتم عزل الطفل أو سجنه، كما فعل «عزالدين أيبك» مع الأشرف مظفر الدين بن موسى وكان عمره ست سنوات وكانت المراسم تعقد للملكين فى أول الأمر ثم انفرد عزالدين أيبك بالسلطة وفى عهد الظاهر «بيبرس» وهى كلمة تركية تعنى (أمير الفهد) بدأ تقليد الطواف بالمحمل وكسوة الكعبة فى شوارع القاهرة وفى عهد «المنصور قلاوون» كثر عدد المماليك الشراكسة وسكنوا فى أبراج القلعة فأطلق عليهم اسم «المماليك البرجية» أما السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» فقد بلغ عدد مماليكه ١٢ألف مملوك وهو أول من استخدم السيوف المطعمة بالذهب والأحجار الكريمة لجنوده وأول من رتب المواكب الرسمية بالقصر (البروتوكول) ويقال إنه كان يمتلك ١٢٠٠وصيفة، كان شجاعا مهيبا فتح بلاد كثيرة.. وقد حكم «المماليك البرجية» مصر لمدة ١٠٣أعوام تولى الحكم خلالها تسع سلاطين «برقوق - فرج - شيخ - برسباى - جمقق - إينال - خشقدم - قايتباى - قنصوه الغورى»، بالإضافة لستة عشر سلطانا آخر حكموا لمدة ستة وعشرين عاما.

وقد سمى أول سلاطينهم «برقوقا» نظرا لجحوظ عينيه وفى عهد السلطان قايتباى الذى حكم مصر لمدة ٢٩عاما كان يتم إرسال رؤوس القتلى إلى أصحابها وفى عهد السلطان «قنصوه الغورى» حدث انقلاب فى سياسة الدولة العثمانية وتوقف

زحفها فى أوروبا، حيث اتجهت إلى المشرق، حيث توجد الأراضى المقدسة ومعظم البلدان الإسلامية.. واشتبك السلطان العثمانى «سليم الأول» مع الغورى فى معركة «مرج دابق» شمال حلب بسوريا وقتل الغورى الذى كان يبلغ الثمانين من عمره تحت سنابك الخيل ليسدل الستار على دولة المماليك فى مصر ويكتمل هذا الغزو العثمانى بزحف سليم الأول إلى مصر عبر صحراء سيناء «موطن غزاة مصر دائما» ويلتقى مع الأشرف «طومان باى» فى معركة الريدانية عام ١٥١٧م والتى استمرت ٤أيام قتل فيها ما يزيد على ١٠آلاف مقاتل وانتهت بهزيمة المماليك وشنق طومان باى علنا على باب زويلة وخضوع مصر والشام لحكم آل عثمان ليبدأ (العهد العثمانى المملوكى) حيث حكم [1]مصر ١٢٠باشا أو واليا موفدًا من السلطان العثمانى وذلك فى الفترة من ١٥١٧م حتى ١٧٦٦م بما يعادل باشا يحكم مصر كل عامين.. فى فوضى واضحة من خلال سلاطين آل عثمان الذين تولى السلطنة منهم ٣٥سلطانا منذ تأسيس دولتهم على يد مؤسسها الأول «عثمان بن أرطغرل».

العهد العثمانى المملوكى

كان طبيعيا أن يقتلع من لا جذور له جذور الأمن والأمان، ففى عهد المماليك كثرت الدسائس والاضرابات وساد العنف

وانتشر الفساد واختل الأمن وقد وصفهم الرحالة الفرنسى فولنى وهو من أشهر الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر بقوله: «لا أهل لهم، فلم يفعل الماضى فى سبيلهم شيئا، لذلك لم يعبأوا بالمستقبل كثيرا، فهم جهلة تعودوا على الخرافات بحكم أسلوب تربيتهم، واعتادوا الشراسة عن طريق القتل والعصيان والخيانة عن طريق الدسائس وفساد الأخلاق».

وقد وصفهم المقريزى هاجيا فقال: «ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد وألص من فأره وأفسد من ذئب» بالرغم من ذلك فقد كانت الفروسية والشجاعة من أبرز صفاتهم وكانت هذه الشجاعة سببًا فى موت الكثيرين منهم فى ريعان الشباب وكان من النادر أن يعيش منهم من يبلغ سن الأربعين ولا يموت محاربا أو مقتولا، وذلك يتسق مع المثل الشعبى القائل «عش جبان، تموت مستور» ولكن شجاعتهم كانت تختلط بالعنف والشراسة. ??

ويرى بعض المؤرخين أنه ليس من العدل والإنصاف أن نطلق عليهم جميعا أحكاما مطلقة ولكن النظرة الموضوعية التى يؤيدها الجبرتى أيضا: «أن شأنهم شأن كل الناس كان فيهم الظالم والعادل والأشرار والأخيار» وخاصة أن الفرنسيين والأتراك، كان لهم دور كبير فى إطلاق العديد من هذه الصفات السلبية وإلصاقها بهم، فقد بنى فى عهدهم الكثير من العمائر والمساجد والمستشفيات والحمامات العامة والكتاتيب ومن أشهر أمرائهم ذو الفقار وقاسم وهما أخوان من أشجع الفرسان

ويحكى أن السلطان سليم حين استقر فى مصر بعد مقتل طومان باى طلب أن يشاهد بعض الأمراء المماليك الجراكسة فذهبوا به منزل إلى «سودون الأمير» وأعجب بولديه قاسم وذو الفقار وخرج بهما إلى الصحراء للمبارزة انقسموا إلى قسمين الفقارية ويشتهرون بالكثر والكرم والقاسمية ويتصفون بالبخل ومنذ ذلك اليوم افترق أمراء مصر من المماليك وظلت الخصومات عميقة بينهم.. وفى تهور شديد يبادرون بالعنف والقتال شاهرين سيوفهم، وقد استفادت تركيا كثيرا من هذه الصفات وأشعلت نار الفتنة والخسوم بينهم. ومن الطريف أن نذكر أن الأمير «سليمان بك بارم ذيله» كان من أشهر أمراء الفقارية، وربما كان هو أصل هذه المقولة «الشائعة» «ابن بارم ذيله»! وفى عهد المماليك أيضا انتشرت قوانين التتار على قوانين البلاد الشرعية واختلط الحق بالباطل، ورجع القضاة إلى القوانين والأحكام التى وضعها «جنكيز خان» بعد أن صار ملكا وجعلها شريعة لقومه وكان يطلق عليها «الياسة» وهى كلمة مغولية حرفها الناس وأضافوا لها حرف السين فأصبحت «السياسة».

السلطان سليم الأول

وقد شرع سليم الأول الذى قضى فى مصر بعد فتحها ثمانية أشهر فى دراسة أحوالها الداخلية.. ثم عاد إلى

القسطنطينية محملا بالغنائم وعدد كبير أمهر الصناع فى مصر قدر بـ١٠٠ صانع وقبل أنها يغادرها شرع فى وضع قاعدة للنظام السياسى تتمثل فى إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم لكى يضمن تبعية مصر مصر واستكانتها تحت لواء السلطة العثمانية فكانت السلطة الأولى تتمثل فى الباشا أو «الوالى» وهو نائب السلطان العثمانى فى مصر والسلطة الثانية هى «رؤساء الجنود» الذين يتولون الدفاع عن مصر ومساعدة السلطان العثمانى أثناء الحروب وكان لابد الإقرار بوجود سلطة ثالثة يحسب لها ألف حساب، حيث كانت تشكل خطرا رئيسا على أمن البلاد «وهى سلطة» بكوات المماليك.

الذين كانوا يمثلون عنصر الموازنة بين الباشا (الحاكم العثمانى) وبين رؤساء الجنود والفرق العسكرية معظمهم مقاتلون من الدرجة الأولى كثيرا ما يعزلون الوالى عن طريق إثارة الجماهير التى تطالب بإسقاط، فلا يجد الباب العالى مفرا من الإذعان لرغبات الشعب!!

أطلق عليهم الجبرتى «الأمراء المماليك» أو «الأمراء المصرية» وقد اشتركوا فى حكم مصر العثمانية باسم «صناجق مصر» أى مديريات مصر مثل «الشرقية والغربية والمنوفية والبحيرة وجرجا» وكانت الأخيرة أعظمهم شأنا لأنها تضم المنطقة الجنوبية من الصعيد.. ونظرا لبعدها عن مركز الباشوية فى القاهرة، فقد كانت يتمتع حاكم جرجا باستقلال ذاتى كبير.

الباشا أو نائب السلطان

أما منصب «الباشا» أو نائب السلطان العثمانى الذى يحكم باسمه فى مصر، فقد كان هذا المنصب يشترى نظير مبلغ من المال ويذكر المسيو «دى مايليه» قنصل فرنسا فى مصر عام ١٦٩٢ أن مصر كان يحكمها أحد الباشوات الذى يتم تعيينه من قبل السلطان مقابل إتاوة مالية تقدر بـ٥٠ألف ريال تدفع قبل وصوله إلى القاهرة ولم تكن له سلطة فعلية.

وقد وصف بـ«أنه سجين أحيط بالأبهة» والكلمة العليا لشيخ البلد وتكون مدة ولايته سنة ويجوز تجديدها والبعض استمرت ولايتهم أربع سنوات ومن الجائز أن تجدد المدة مقابل مائة ألف ريال ومن أهم مهام الباشا جمع خراج مصر السنوى وإرساله إلى الآستانة ويقدر بـ٦٠٠ألف ريال، بالإضافة للهدايا والسكر والأرز والحلوى وتقدر بـ٦٠٠ألف ريال أخرى وللباشا نائب يعاونه أو وكيل ويسمى (الكتخدا) أو الكخيا ويعين من قبل السلطان أيضا ويعاون الباشا «المهردار» وهو حامل الأختام و«الدفتردار» وهو كبير الشئون المالية و«الخازندار» وهو المسئول عن الخزينة أى أمين الصندوق والروزنامجى «حافظ السجلات»، بالإضافة للحرس الخاص والمترجمين ومجلس شورى الباشا ويسمى «الديوان» ونظرا لأن كلمة الدسائس من أوسع الكلمات انتشارا فى أى بلاط ملكى، فقد كان من الشائع

أن تنتهى ولاية الباشا إذا لم ينجح فى إقامة علاقات طيبة مع البكوات المماليك عن طريق شرائهم بالمال.. لذلك كان الباشا بعد أن يستقر على كرسى الولاية يكتشف هذه الحقيقة المؤلمة وهى أنه يملك لقبه فقط ولا يحكم البلاد وكان الحاكم الفعلى فى مصر «شيخ البلد» وهو ثانى شخصية فى مصر بعد الباشا، فقد كان منصبا رفيعا ومحط أنظار الجميع سببا فى اشتعال الفتن والمظاهرات العدائية بينهم ضد الباشا فى بعض الأحيان أما طريقة عزل الباشا أو «الوالى» فكانت تتم بالاتفاق بين البكوات المماليك، حيث يجتمعون ويقررون إيفاد «الاوده باشى» وكان العامة يطلقون عليه اسم «أبو طبق» إلى القلعة، حيث يقدم التحية للباشا ثم يلمس(٢) طرف السجادة ويطويها ويقول مناديا «إنزل يا باشا» ثم يخرج من المجلس ويبدأ الباشا فى حزم امتعته ويتوجه إلى بولاق خلال ٢٤ساعة.

وبعد العزل يعين الديون (قائمقاما) من أمراء المماليك إلى أن يصل الباشا الجديد مسلحًا بفرمان من الباب العالى، من جهة أخرى حين توفى سليم الأول خلفه ابنه «سليمان القانونى» فى الجلوس على عرش السلطة العثمانية ولقب بـ«القانونى» لأنه أكمل نظام الحكم السياسى والإدارى الذى وضعه والده.

وفى عهده سنت القوانين المالية والقضائية وقد احتاجت زمنا طويلا حتى استقرت.

النظام القضائى

العدل المملوكى العثمانى كان يرى ويسمع ويتكلم بالتركية.. فلم تكن العدالة عمياء ومحور النظام القضائى قاض تركى توفده الآستانة ويحمل لقب «قاضى مصر» أو «قاضى القضاة»، بالإضافة إلى تعيين خمسة وثلاثين قاضيا يتولون رئاسة المحاكم.. وكان القضاة لا يعينون إلا مقابل إتاوة مالية.. فالرشوة المالية لم تكن مستترة بل إن الباب العالى كان يضع فئات وأرقامًا لكل منصب يطمح إليه طامح. وكان القضاة الأتراك يستعينون بالمترجمين.. لذلك عمت الفوضى فى السلك القضائى خاصة أن المدعى كان بوسعه المفاضلة بين القضاة على أساس التوجه لمن يؤيد دعواه.. واستمر هذا العبث القضائى قائما فى ظل تعدد مذاهب القضاة إلى أن اختص القضاء بمذهب «أبى حنيفة» وذلك فى عهد محمد على.

اختصاصات الدولة فى العهد العثمانى المملوكى:

هو عهد استمر قرابة ثلاثة قرون.. توقف فيه الزمان واعتل المكان بالهواء الفاسد.. فقد انغلقت مصر على نفسها سياسيا واقتصاديا وثقافيا بسبب سياسة الدولة العثمانية التى كانت تخشى من اختلاط دويلاتها بأوروبا خوفا من انفصالها.. وجاء اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر على أيدى البرتغال ليعمق هذه العزلة ويزيدها اتساعا..

حيث تحولت التجارة العالمية بين الشرق والغرب.. بعيدا عن البحار العربية.

وازداد الأمر سوءا حين حرمت الدولة العثمانية لفترة زمنية الملاحة فى مياه البحر الأحمر فى المنطقة الواقعة بين جدة والسويس بحجة اقتراب هذا الموقع تحديدا من الأراضى المقدسة وبالتالى لا يجوز أن تمر فيه سفن أوروبية غير(٣) إسلامية!!! وقد اقتصرت اختصاصات الدولة ومسئولياتها على ثلاثة جوانب رئيسية هى جمع الضرائب من المواطنين والدفاع عن الأخطار الخارجية والفصل فى منازعات المواطنين قضائيًا وماليًا.

ولم يكن غريبا إزاء تجاهلهم لكافة الجوانب الأخرى (الصحية والثقافية والاقتصادية) أن يقوم الأفراد فيما بينهم بتنظيم حياتهم على هيئة طوائف مهنية وكل طائفة لها شيخ طائفة وبالتالى أصبح ولاء الأفراد لهذه المجتمعات الصغيرة أقوى من شعورهم بالانتماء إلى الوطنى الكبير.. بالإضافة إلى انعزال الطبقة الحاكمة التركية عن الشعب المصرى فكان طبيعيا أن لا يترك الأتراك إلا أثرا ضئيلا للغاية، قياسا بالفترة الطويلة التى حكموا فيها مصر!!

فالفوضى والاضطرابات والحروب الأهلية والفتن والسلب والنهب والسطو كانت هى السمة السائدة للحياة السياسية فى

مصر فى هذا العهد ولكن من هم أطراف هذا الصراع الدائم؟ كان الصراع يبدأ بين الباشا (الوالى) المعين من قبل السلطان العثمانى وبين المماليك لأن منصبه كما ذكرنا يكاد يكون منصبا شرفيا والحاكم الفعلى هو شيخ البلد، ومع ذلك لم يستطع المماليك الاستئثار بالسلطة تماما، نظرا للخلافات الشديدة بينهم وانقسامهم إلى فرق وجماعات متناحرة.

مثل «القاسمية» نسبة إلى قاسم بك و«الفقارية» نسبة إلى ذو الفقار بك و«العلوية» نسبة إلى على بك الكبير و«المحمدية» نسبة إلى محمد بك أبو الذهب و«المرادية» نسبة إلى مراد بك و«الإبراهيمية» نسبة إلى إبراهيم بك، وهكذا كما يقول الشاعر «موت الشعب منشئوه انقسام».

فلم يكترث المماليك إلا بمصالحهم الخاصة أولا حيث اهتموا فى المقام الأول ببناء قصورهم ولم يظهروا اهتماما واضحا للتنمية والعمران، فانتشرت المجاعات وتفشت الأوبئة باختصار كان المجتمع المصرى فى هذاالعهد لايزال من مجتمعات العصور الوسطى. أما الإمبراطورية العثمانية المزعومة فكانت منهمكة فى حروبها مع النمسا وروسيا، لذلك كان يطغى نفوذ المماليك ممثلا فى شيخ البلد.. أثناء فترات الهدنة كان السلطان يسارع بإرسال حملات تأديبية للسيطرة على بكوات المماليك لاسترجاع سلطته ولم يكن الأمر هينا

فالمماليك كانوا يفرون إلى الصعيد خوفا من بطشه ثم يعودون مرة أخرى بعد هدوء الأحوال من جهة أخرى وكانت تركيا تلجأ إلى عرقلة زيادتهم عن طريق إغلاق أسواق الرقيق التى يجلبون منها فى البلقان والبحر الأسود.. وكان ذلك من أكثر الأمور التى تزعجهم لأنهم يتكاثرون بصعوبة شديدة!! فهم شأن أى أقلية تواجه الأغلبية عن طريق زيادة تناسلها!! ولكن ما الذى كان يفعله المصريون وموقفهم إزاء هذه الصراعات التى تجرى على أرض بلادهم؟ وكيف كانوا ينظرون إلى الخليفة العثمانى؟

كان الشعب المصرى يجأر بالشكوى بصورة صارخة فى حالة فرض ضرائب جديدة على دخله المتواضع فى زمن كانت الضرائب هى العمود الفقرى لدخل الدولة.. وبما أنها كانت تستقطع من أقواتهم الضئيلة.. فكان طبيعيا.. أن تؤلمهم جوعا.

كلما ازدادت قيمتها وتعددت مرات تحصيلها عمدا.

وحساسية المصرى تجاه دفع الضرائب لها جذور تاريخية، وقد أشار «أميان مارسلان» وهو مؤلف لاتينى إلى هذه الملاحظة فى بداية القرن الخامس الميلادى قائلاً: «إن المصريين[٤]يشعرون بالخجل إذا دفعوا ما عليهم من الضرائب دون أن يضطرهم ذلك إلى وقع السياط».. وبعد ذلك كتب «عمرو بن العاص» إلى الخليفة يشرح له حال البلاد فقال: «إن الزراعة فى مصر إنما تحتفظ[٥] بكيانها بفعل السوط والعصا»

وأرجع قنصل فرنسا فى مصر أثناء حكم محمد على السبب فى ذلك قائلا: «إن سكان مصر منذ القدم يفلحون الأرض لصالح الحكام الغرباء، لذلك كان الانقطاع عن العمل والامتناع عن دفع الضرائب يحمل فى طياته الطموح للاستقلال والشهامة والشجاعة بالمجاهرة بذلك، إنه احتجاج قوم نبلاء على سيادة غير شرعية» وهو تفسير لا يخلو من المنطقية والوجاهة فالمقاطعة والامتناع من أهم أساليب المقاومة الشعبية.. حين يتعذر الوصول لحل نهائى مع السلطة الحاكمة.

على بك الكبير

يقول الجبرتى: «فى عام ١٧٦٩ خطب الشيخ عبدربه فى جامع الداودية ودعا للسلطان العثمانى ودعا لعلى بك، فلما انقضت الصلاة، قام على بك وأحضر الخطيب وقال له من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر، أقيل لك إنى سلطان؟ فقال له: نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك.. فإغتاظ منه على بك وأمر بضربه فقام الخطيب متألما من الضرب وذهب إلى داره وهو يقول: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ».

إنه على بك الكبير، الذى تأسست باسمه جماعة من المماليك أطلق عليهم «العلوية» تمكن من الوصول إلى «مشيخة البلد» عام ١٨٦٣، وكان ذلك سببا لاشتعال الحروب الأهلية

بينه بين بقية الجماعات المملوكية، نجح فى استقطاب محمد بك أبو الذهب إلى صفه وأرسله للصعيد لمقاومة الأمراء المتمردين وتعقب الفارين منهم لكى يكونوا تحت سيطرته.

اكتمل حسن طالعه حين هبت الحرب التركية الروسية التى انتصرت فيها روسيا.. وسرعان ما دب الوهن والضعف فى جسم الرجل المريض «الدولة العثمانية» فهاجم الأسطول الروسى الدانوب والقرم والصرب والأناضول وسوريا وهدد بضرب مصر وقضى على وحدات الأسطول العثمانى.

ولم يترك على بك هذه الفرصة الذهبية دون استغلالها فقام بطرد الباشا العثمانى (محمد راقم) وأعد عدته للجلوس على كرسى الولاية الذى تهيم كل القلوب حواليه وكان يطمح فى الانفراد بحكم مصر والاستئثار بالسلطة كاملة مع اعترافه بسيادة الباب العالى، فامتنع عن دفع الجزية السنوية للسلطان العثمانى وضرب عملة جديدة وأرسل محمد بك أبو الذهب إلى الحجاز وأصبحت تابعة له وأرسل حملة أخرى إلى الشام لتأمين حدود مصر الشمالية الشرقية ولكن خيانة مملوكه محمد بك أبو الذهب قضت على أحلامه قبل أن تنطلق من خياله.. ونجح أبو الذهب فى إثارة البكوات ضد على بك وقامت حرب بينهما.. ووقع على بك أسيرًا فى يد أبو الذهب وتوفى عام ١٧٧٣، واستأثر أبو الذهب بالسلطة فى مصر ولكن ذلك الغدر لم يدم طويلاً، حيث توفى أبو الذهب عام ١٧٧٥م.

عهد إبراهيم بك ومراد بك

بعد صراع على بك وأبى الذهب.. بدأت حلقة جديدة من المنافسة والمؤامرات بين المماليك.. ولم يكن الشعب يتوقع خيرًا من اختلاف حكامه وقد اتخذ من المثل الشعبى القائل «أحمد زى سيد أحمد» قاعدة محايدة تقيد تفاؤله وتمنع إحباطه، وفى عام ١٧٧٩م اقتسم إبراهيم بك ومراد بك السلطة بينهما وامتنعا عن إرسال الجزية إلى القسطنطينية وأصبحت القاهرة مسرحًا للقتال والحرب الأهلية بين الجماعات المملوكية حتى عام ١٧٨٩ وأثناء تلك الفترة دخل الأتراك إلى القاهرة وحاولوا الوصول إلى اتفاق مع إبراهيم ومراد بك ولكن الأمور ظلت تسير من سيئ إلى أسوأ وانتشرت الأوبئة والمجاعات وانتشر الطاعون وانخفض النيل مرات عديدة وعم الغلاء وهلك الزرع وذاق الشعب طعم الفقر امتهانا.. إلى الحد الذى لم يجد(٦) فيه «الزبال» ما يكنسه وأكل الناس الميتة من الخيل والحمير والبغال ومات الكثيرون جوعًا كل ذلك بالإضافة لتعسف المماليك وسوء معاملتهم، وحين علمت الدولة العثمانية بتدهور الوضع إلى هذا الحد، أرسلت حسن باشا قبطان الذى تمكن من هزيمة مراد بك وأراد إبراهيم بك أن يدخل القلعة ويستولى على ولاية مصر عنوة ولكن حسن باشا تمكن من السيطرة على الموقف وفر إبراهيم بلك إلى الصعيد، فتعقبه عابدين باشا - الموفد من الباب العالى - هو ورجاله. ثم تولى

إسماعيل باشا كتخدا «نائب» حسن باشا قبطان منصب شيخ البلد وتمكن الأتراك من استعادة نفوذهم على البلاد نسبيا بعد قيام إبراهيم ومراد بك بهذه الحركة الاستقلالية ولكن الأمور أصبحت من السوء بحيث أصبح لا يجدى معها أى علاج ولابد من بتر العضو المصاب وفجأة توفى إسماعيل باشا (شيخ البلد) بسبب الطاعون وتولى «باكر» باشا ولاية مصر.

على الرغم من تغير الحكام والولاة وشيوخ البلد، لم يتزعزع عن عرش مصر سلطانا واحدا فى كل العصور هو سلطان العرف والعادات والتقاليد وصلابة العقيدة الدينية فكأن هذا السلطان هو السياج الذى حفظ لهذا الشعب قوته وتماسكه واعتزازه بمصريته بعيدا عن أى انقسامات عرقية فهو سلطان شديد البأس ولم يستطع أى مستعمر أن يقاوم سطوته فكل الغزاة يتمصرون وينصهرون ويتداخلون فى نسيج المجتمع المصرى ولا يتبقى من غزوهم سوى السيف والرمح وخيولهم المنهكة.

الحياة الاجتماعية فى العهد العثمانى المملوكى

الحكم الاستبدادى غالبًا ما يشطر المجتمع إلى طبقتين تزيد الفوارق بينهما تبعًا لدرجة استبداده، وهذا ما حدث فى مصر فكانت الطبقة الارستقراطية الاقطاعية تكاد تقتصر على

بكوات المماليك الذين كانت بأيديهم مشيخة البلد بالإضافة إلى حكام الأقاليم والملتزمين بجمع أموال الفلاحين وقد تحدثنا عن صفاتهم، وكان شركاؤهم فى هذه الارستقراطية الاستبدادية «الأتراك العثمانيون» وهم أصحاب نعرة عرقية، يتصفون بالتكبر ويتعالون على المصريين والتراث الشعبى يختزن فى كنوزه العديد من الأمثلة الشعبية التى تكشف عن سر هذه العلاقة أشهرها «شحات الترك يقول الباب عالى وإن كانت الست حلوة نزلوهالى» ومنها أيضًا «زى التركى جعان ويقول مش لازم» أو المثل القائل «أقول أبوك مين يقول خالى كاظم أغا» وقد جاء فى تقرير «هودجسون» القنصل الأمريكى فى مصر فى عهد محمد على هذا القول: «الرجل مهما حقر شأنه فهو يعتبر من طبقة أرقى من أبناء البلاد مادام يتكلم التركية!!».

وقد استفز هذا الوضع الغرباء وتعجبوا منه لأنهم كانوا يستشعرون مدى الظلم والقهر اللذين يتحملهما الشعب المصرى فكتب «بوالكمت» قنصل فرنسا فى مصر قائلا:

«ومن العجيب أن العبيد الذين يؤتى بهم إلى مصر يرون أنهم جاءوا إليها ليحكموها لا ليخدموها».

وقد اعتمد الأتراك على العنف والقوة لبسط نفوذهم وكانوا يتسمون أيضًا باحتقارهم للعلم ويميلون إلى الكسل والاسترخاء

وقد وصفهم «بليار» أحد قواد نابليون فى حملته على مصر قائلا: «إن الأتراك قوم يساورهم الشك ومن صفاتهم الغيرة والحسد وهم قوم يستطيعون قراءة الوجوه».. وجاء وصف «بواييه» رئيس البعثة العسكرية الذى عهد إليه تنظيم الجيش المصرى فى عهد محمد على ليؤكد هذا الرأى ويضيف إليه قائلا: «ليس على ظهر الأرض من يفوق هؤلاء الأتراك فى إساءة الظن والجهل والعجرفة والشراسة وتثبيط الهمم».

وكلها صفات على إطلاقها لا تخلو من المبالغة وتنحى بعيدا عن موضوعية إطلاق الأحكام العامة ولكن هذه العجرفة التاريخية قد ترشدنا إلى سبب مباهاة البعض بأصولهم التركية.. مهما كان تواضعها.. لأن التفرقة تاريخية بين الأتراك والمصريين كما رأينا.

وقد استأثر المماليك والأتراك بالمناصب العسكرية وإدارة البلاد.. ولكن الجنرال فيجان الفرنسى وصف الضابط التركى قائلا: «إذا شعر برغبته فى الاستفادة من المعرفة فكأنه خالف شريعة أو نقض عهدا».

أما الفلاحون ومنهم يتكون غالبية الشعب المصرى آنذاك فكانوا يمثلون الطبقة الاجتماعية الكادحة مغلوبون على أمرهم يعيشون فى بؤس.. فى عصر لم يعرف إلا القوة البدنية والعصا لمن عصى.. أما سلطة الفكر وتدبير العقل فلم يكن لهما مكان

كبير من قبل هؤلاء الغزاة.. فكان الفلاحون أشبه ما يكونون بالآلات المأجورة لهؤلاء الغرباء، وقد وصفهم «الجبرتى» بقوله: «كان الفلاح أذل من العبد الذى يشترى بالمال.. فربما هرب العبد من سيده إذا كلفه فوق طاقته. أما الفلاح فلا يستطيع ولا يسهل أن يترك وطنه وأرضه».

فلم تكن هناك ملكية خاصة وإنما تتم زراعة الأرض من قبل قاطنها طالما أنه ملتزم بأداء الخراج عنها.. فله الحق فى البقاء هو وورثته من بعده وإن عجز عن دفع الخراج.. انتزعت منه كانت الأرض تروى على رى الحياض وأهم محصولاتها القمح والذرة والأرز والقصب والكتان والقطن بكميات ضئيلة.. على الرغم من ذلك فالزراعة كانت هى مصدر ثروة مصر فى كل العصور أما المحصول فيذهب إلى ذوى السلطان.

وترتب على إهمال الزراعة بسبب إهمال حفر الترع وإقامة الجسور إن أصبح ما يقرب من ثلث الأراضى الزراعية فى الوجه البحرى غير صالحة للزراعة وطغت الرمال على القنوات والترع وقد أدى إهمال الزراعة إلى معاناة مصر اقتصاديا.

وكانت القوى الاجتماعية التى يتألف منها المجتمع المصرى بخلاف الفلاحين تضم المشايخ وعلماء الأزهر وأرباب الحرف وصغار التجار، وكان بوسع المماليك أن يفرضوا أى مبلغ من المال على أى رجل يشكون فى ثرائه وإذا لم

يقبل ذلك يجلد على ظهره من مائتين إلى ثلاثمائة جلدة، فاستلزم الأمر الظهور بمظهر البؤس والفقر أمام ذوى السلطان لكى يأمنوا شرهم.

وجاء نظام الطوائف الحرفية ليعزز الشعور بالمحلية كما ذكرها.. فكانت كل حرفة لها شيخ طائفة يخضع الأفراد لنظمها وتقاليدها حتى السقائيين والشحاذين كلها طوائف معترف بها من قبل الدولة، حيث قسمت مصر جغرافيا وإداريا إلى مناطق، فظهرت حارات اقتصادية مثل حارة «المغربلين» وحارات دينية مثل حارة «اليهود» أو حارات تبعا للقومية مثل «حارة المغاربة»، وكما هو متوقع فتجارة مصر المحلية كانت تعقد فى أسواق أسبوعية ومن أشهر الأسواق «الغورية» و«خان الخليلى» و«الحمزاوى» وكان شيخ تجار مصر بـ«شهبندر التجار» ومن أشهر شيوخ تجار مصر «أحمد الرويعى وأحمد المحروقى» أهم الصناعات الغزل والنسيج والصباغة والتطريز وعصير الزيوت وملح الطعام وتربية الدجاج والماشية والصناعات اليدوية الدقيقة. وقد اصطحب سليم الأول معه عقب خروجه من مصر عددا كبيرا من أمهر الصناع المصريين يقدر بالألف صانع، توجهوا جميعا إلى الأستانة الأمر الذى أدى إلى تعطيل أكثر من خمسين صنعة كما يقول ابن إياس.

التعليم

عصر الدولة العثمانية المملوكة هو عصر «الكتاتيب» بدراستها التقليدية المعهودة من تعليم الفقه وحفظ القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة بالطبع. أما الدراسة فى الأزهر فى هذا العهد فقد كانت تفتقد الأسلوب العلمى الذى يقوم على النقد والمقارنة فأهملت العلوم الرياضية إهمالا كبيرا ومما يروى فى هذا الشأن تلك الزيارة التى قام بها «أحمد باشا العثمانى الذى استقبله علماء الأزهر.. وتناقش معهم ثم قال للشيخ الشبراوى: إن الشائع فى بلادنا أن مصر منبع الفضائل والعلوم فأين هى وأنتم تجهلون العلوم الرياضية مع أنكم أعظم العلماء».. فرد عليه الشيخ الشبراوى قائلا لسنا أعظم علمائها.. ولكننا متصدرون لخدمة أهلها وقضاء حوائجهم وأغلب أهل مصر لا يشتغلون بالعلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة إلى علم الفرائض والمواريث، أما غير ذلك فمعرفته من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين وأشار عليه الشيخ الشبراوى بمقابلة الشيخ «حسن الجبرتى» وبعد أن قابله الباشا أثنى عليه قائلا: «لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعى بهذا الأستاذ لكفانى».

شجع المماليك انتشار التعليم الدينى فى مصر ولكنهم كانوا يفضلون أن يستكلم أبناؤهم بعد الدراسة فى الكتاتيب. التعليم الحربى حيث يلقنون فنون الفروسية والقتال:

وقد شهد هذا العصر أيضًا انتشار ظاهرة التصوف والطرق الصوفية التى كانت تعد مصدرًا للثقافة الدينية، كان التصوف معروفا فى مصر قبل الفتح العثمانى ولكنه نشط وانتشر نتيجة لأسباب عديدة تتصل بالحياة الاقتصادية والسياسية فقد كان التصوف ملاذًا للفقراء للهروب من الظلم والطغيان والتقرب إلى الله وشراء الدنيا بالآخرة.. وكان مشايخ الطرق الصوفية يتمتعون بنفوذ كبير وهيبة ووقار من كافة طبقات الشعب.

بداية الامتيازات الأجنبية

فى عام ١٥٣٢م تحالف فرنسوا الأول ملك فرنسا وسليمان القانونى سلطان الدولة العثمانية، وقد أعطى هذا التحالف لفرنسا حق حماية الرعايا الكاثوليك فى أراضى الدولة العثمانية. وسرعان ما تحولت هذه الاتفاقية الدبلوماسية إلى اتفاقية تجارية تمنح التجار الفرنسيين حقوقا وامتيازات فى البلاد الواقعة تحت سيطرة الدولة العثمانية وتبعتها بعض الدول الأوروبية «هولندا وانجلترا».. وكان بكوات المماليك يلحقون الأذى أحيانا برعايا الدول الأجنبية وبحلول القرن الثامن عشر لم يعد للدولة العثمانية نفوذ أو سلطة ومن ثم اخترقت هذه الامتيازات فاضطر الأجانب للتعامل مع المماليك مباشرة وكثيرا ما تعرض التجار الأوروبيون للإهانات، وقد تعرض بعض القناصل للضرب والسجن حيث كانوا يجبرون

على ركوب الحمير دون الخيل وتعمد رجال الجمارك والباشاوات العثمانيون والمماليك فرض الإتاوات المالية والهدايا لكى يأمنوا شرهم حتى سميت مصر «بموطن المغارم» وقد وصف حالة التجار الفرنسيين الرحالة الفرنسى فولنى قائلاً: «هم يعيشون محصورون فى زقاق واسع بدون صلات تربطهم بغيرهم وهم يتحاشون الخروج حتى لا يتعرضون لشتائم الشعب الذى كان يكره اسم الفرنجة فكانوا يرتعدون خوفا من تعرضهم للسلب والنهب واضطرارهم إلى البيع؟» وبلغت بهم شدة الضيق، فطلبوا من حكومتهم إرسال قوة عسكرية لتأديب المماليك فكان ذلك سببا وجيها فيما بعد من أسباب قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر وقد أدت هذه السياسة إلى انسحاب معظم قناصل الدول الأوروبية من مصر فى أواخر القرن السابع عشر وكاد يتوقف النشاط التجارى الأوروبى فى مصر تمامًا نتيجة لسوء معاملة المماليك من جهة أخرى عرفت مصر الشبح المرعب الذى يهزم الملذات ويفرق الجماعات وهو «الطاعون» الذى كان يظهر فى الإسكندرية كل خمس سنوات تقريبا ثم ينتشر فى رشيد ودمياط والقاهرة وسائر مدن الدلتا.. قادما من الأستانة أو أزمير أو إحدى المدن الأروبية على ظهر إحدى السفن التى كانت تنقل الملابس الصوفية ظهر إحدى السفن التى كانت تنقل الملابس الصوفية المستعملة الموبوءة وكان الطاعون ينتشر بسرعة فائقة فى أنحاء مصر من

شمالها إلى أقصى جنوبها مرورا بمقر الحكم حيث توفى به أحد مشايخ البلد فى أحد الأعوام.

الحملة الفرنسية

وفى عهد العثمانيين المماليك أهملت الإسكندرية بصورة ملحوظة وأصبحت لا قيمة لها فى الدفاع عن أخطار مصر الخارجية.. وكانت مصر بصفة عامة ضعيفة عسكريا حصونها متواضعة أمنيا ويكفى أن نقول إن بحرية مصر فى السويس كانت مكونة من ثمانية وعشرين مركبا فقط.. أسلحتها ضعيفة بالية.. وقد تأكدت فرنسا من سوء الأحوال العسكرية فى مصر من خلال رحلة «فولنى» الذى قدم إلى مصر عام ١٧٨٣ وزار الإسكندرية ورشيد والسويس والقاهرة وعندما قرر بونابرت حملته على مصر كان يود أن يصحبه معه لكنه اعتذر بسبب كبر سنه واكتفى بونابرت بأن يحمل كتاب فولنى معه الذى يحمل اسم «رحلة فولنى إلى مصر» وكان له دور رئيسى فى اقتناع الساسة الفرنسيين بسهولة غزو مصر ولهم فى ذلك جملة أسباب، فبخلاف عبقرية المكان الذى يتوسط قلب العالم والاستيلاء على خيراتها الزراعية التى تحتاج إليها فرنسا مثل الأرز والشعير والقطن وقصب السكر، ناهيك عن حلم قناة السويس الذى ظل يراودهم عشرات السنين بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح الطويل الممل يمكن شق القناة والاستفادة

من تجارة إفريقيا فى مجال العاج والرقيق الأسود واستخدام هؤلاء الأرقاء فى بعض الصناعات الضرورية فى فرنسا.. وكان نابليون لديه قناعة بمثالية «الإسكندر الأكبر» فقد سطع نجمه فى أرض مصر هذه المملكة الجميلة التى يحكمها متوحشون على حد تعبير «سافارى» وهو من أشهر الرحالة الفرنسيين فإذا أضفنا إلى ذلك التحليل الذى قدمه فرويد «عالم النفس الشهير» لشخصية نابليون وخاصة فيما يتعلق بغزو مصر حيث قال «عانى نابليون(٧)من عقدة نفسية لازمته طويلا» ألا وهى غيرته الشديدة من أخيه جوزيف فاحتاج الأمر إلى الثأر بغزو أرض «يوسف» مهد الحضارات.. حتى يبدو كبيرا فى أعين أشقائه.. ويضيف فرويد أن دوافعه السياسية لم تكن عقلانية، إذن لقد توافرت جميع الأسباب لغزو مصر من وجهة نظر الفرنسيين الاقتصادية - والعلمية والاستكشافية والاستعمارية وعلى رأسها «شق قناة السويس» وسرعان ما أشتعلت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وتم تأجيل المشروع أثناء ذلك كان «تاليران» وزير خارجية فرنسا قد أعد تقريرا شاملا يؤكد فيه على أهمية فتح مصر وركز على ضرورة إحياء طريق السويس البرى لإلحاق الضرر بإنجلترا بالدرجة الأولى وإضعاف طريق رأس الرجاء الصالح الذى كانت تسيطر عليه وتأديب الباب العالى من جهة أخرى بالإضافة إلى كل ما تقدم فإن فتح مصر لن يكلف فرنسا شيئا التى ربما تخسر مستعمراتها فى أمريكا

اللاتينيـة وبالفـعل وضع جـيش الشـرق تحت قـيـادة «نابليـون بونـابرت» ووصلت الحـملة إلـى الإسكندرية فـى ٢٧يونيـو ١٧٩٨ يصحبه جيش من ٥٤ألف مقاتل على متن ١٣سفينة[٨] حـربيـة يدعمها ست فرقاطات وجيش آخـر من العلماء (١٦٧عالما) لغزو أرض أقدم الحضارات ٢١عالما فى الرياضيات، ثلاثة فى الفلك و١٥فى العلوم الطبيـعـيـة، ١٧مـهندسـا مـدنيا، عـشـرة أدباء، ١٥قنصلا ومترجما، موسيقيين ومكتبة تضم ٥٥٠كتابا ومؤلفا.. ومعملا كيميائيا.. إلخ ولكن تقرير «تاليران» أغفل شيئاً هاماً لم يتـوقـعـه وهو مـقـاومـة الأهـالى للفـرنسـيـين بالإضـافـة لمقـاومـة الإنجليز والباب العالى.

المقاومة الشعبية

زحف نابليون إلى مصر واشتبك مع جيوش مراد بك وانتصر على المماليك فى موقعة إمبابة من جهة أخرى نجح الإنجليز فى تحطيم الأسطول الفرنسى فى ميناء أبى قير.

وبالرغم من نصـائح «تاليـران» لنابليـون بضـرورة اسـتـمـالة الشـعب المصـرى والتظاهر بالمحـافظة على العـادات والتقـاليـد وعدم الاقتراب من عقائده الدينية ولفت انتباه جنوده إلى وضع المرأة فى الإسلام وتحريم شرب الخمر.. حاول نابليون أن يقنع الشعب المصرى أنه جاء ليخلصهم من طغيان المماليك وقد جاء

فى منشور نابليون إلى المصريين قوله: «الذين يتسلطون فى البلاد يتعاملون بالذل والاحتقار مع الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها هذه الزمرة من المماليك، فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم يا أيها المصريين قد قيل لكم إننى نزلت لإزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ما قدمت إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم بين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم لكى يتملكوا مصر وحدهم من الآن فصاعد فلا ييأس أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور».

ولكنه أعقب هذا المنشور بمواد فرعية سوداء جاء فيها أن كل قرية تقاوم العسكر الفرنسى سوف تحرق.

ويرى المؤرخ الكبير عبدالرحمن الرافعى أن فكرة إنشاء حكومة أهلية من المصريين هى أهم ما يميز منشور نابليون التاريخى، حيث لم يسبق أن صرح أحد بذلك من غزاة مصر وأشاد بمكانة وعظمة أبنائها ووعدهم بأن يكونوا أصحاب السلطة فى البلاد، ولكن يظل تهديد نابليون بإحراق القرى التى تقاوم الجنود الفرنسيين نقطة سوداء فى تاريخ هذه الحملة وأمرا يتنافى مع أبسط حقوق الإنسان.

وعلى الرغم من ذلك ظل شيوخ الأزهر وسائر المصريين لا يصدقون ادعاءات بونابرت.

يقول الجبرتى: تم تدنيس الجامع (الأزهر) بأسوأ طريقة ممكنة من جانب الجنود الفرنسيين لقد نهبوا وخربوا وحطموا الفوانيس والقنابل ورموا الكتب الدينية ومن بينها نسخ القرآن على الأرض وكانوا يدوسونها ويدنسونها بأحذيتهم كما لطخوا الموقع بالبول.. يقول بونابرت «كنا نقطع رؤوس حوالى ثلاثين شخصا فى كل ليلة» وهى أعمال بربرية تتناقض مع منشوره الدعائى المزعوم «تتنافى مع السلوك الإنسانى الحضارى الذى يحترم كل الأديان.. وقد تكون هذه الواقعة تحديدا من أهم أسباب مقاومة الحملة الفرنسية بين الشعب المصرى حيث تركت شعورا بالمرارة لم ينمح لعشرات السنين ولكننا لا ننكر على نابليون جهوده العلمية لتحديث مصر حيث أسس بونابرت ديوان القاهرة عام ١٧٩٨ وأنشأ دواوين فى الأقاليم أيضا.. وكان يهدف إلى اجتذاب المشايخ وأعيان البلاد لعضويتها لكى يكونوا الجسر الشرعى بينه وبين الأهالى ليحصل علي شرعية تنفيذ بعض المشروعات فى مصر دون أن يضطره ذلك للاصطدام بالأهالى الذين قاموا بثورة القاهرة الأولى ١٧٩٨ بسبب ابتزاز الفرنسيين للأموال وفرض الغرامات ومصادرة الأملاك وتحصيل الضرائب وإنشاء المحاكم التجارية التى تجنى

من أصحاب القضايا رسوما وكان مشايخ «الأزهر هم العقل المدبر للثورة أطلق عليهم الجبرتى اسم الحرافيش».

ولم تترك الدولة العثمانية نابليون يهدم ديكتاتوريها واستبدادها وإهمالها لمصر ويتولى السلطة عنوة فاشتبك العثمانيون فى مصر فى معركة أبى قير التى انهزموا فيها عام ١٧٩٩، ووقع مصطفى باشا قائد العثمانيين فى الأسر وعرف منه نابليون أن الحالة العسكرية فى فرنسا حرجة جدا فقرر الرحيل تاركا وراءه «كليبر» الذى مُنِح مراد بك فى عهده حكم الصعيد من خلال السيادة الفرنسية وتوصل الأتراك إلى عقد اتفاقية العريش مع كليبر فى يناير ١٨٠٠ التى تنص على جلاء الفرنسيين عن مصر بكامل أسلحتهم.. ثم تطورت الأحداث سريعا واشتعلت ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين واستمرت شهرا وساءت الأحوال فى وجه الفرنسيين بمقتل «كليبر» على يد الطالب الأزهرى «سليمان الحلبى» ثم تولى القيادة الجنرال «منو» الذى أسلم بعد زواجه وأصبح اسمه «عبدالله منو» وتمرد أعضاء الحملة علي قيادته خلفا لنابليون وكليبر، وفى عام ١٨٠١ هزم الإنجليز «جيش الشرق» المصاحب للحملة الفرنسية وتم جلاء الفرنسيين عن مصر طبقا لاتفاقية العريش وحين عقد الصلح الأوروبى وتمخض عن معاهدة أميان بين انجلترا وفرنسا عام١٨٠٢، عادت مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية كما كانت قبل مجيئ الحملة الفرنسية.

فشلت الحملة الفرنسية عسكريا، وقد ندد بها أحمد شوقى قائلا:

أتى النسـر ينهب الأرض نهبا

حــوله النســور ظمــاء

علمت كل دولة قــــد تولت

إننا ســمــهــا وأنا الوباء

قاهر العصر والممالك نابليون

قــد ولت قــواده الكبــراء

ولكن الحملة الفرنسية نجحت فى تحريك مياه البحيرة الفكرية الآسنة، التى خضع لها المجتمع المصرى لعدة قرون على أيدى المماليك والعثمانيين والأيوبيين وغيرهم وكان من أهم إنجازاتها غير المباشرة استثارة الروح القومية المصرية حين ألقت الضوء على سلبيات الحكم العثمانى المملوكى فى مصر وزعزعت قواعده.. ومهدت الطريق لطرح بدائل لهذا النظام الاستبدادى المستعمر.

قدر عدد سكان مصر أبان الحملة الفرنسية بثلاثة ملايين نسمة، أما حدود القاهرة فكانت تمتد شمالا من الحسينية إلى باب الحديد وجنوبا من القلعة إلى باب السيدة عائشة وجامع السيدة نفيسة وباب السيدة زينب وشرقا تحدها القلعة ثم باب الوزير وغربا تمتد حدودها من باب الحديد إلى الأزبكية وباب

اللوق والشيخ ريحان وكانت «بولاق» تعد من ضواحى العاصمة ولم يكن على شاطئ النيل سوى بعض المبانى القليلة مثل قصر «إبراهيم بك» (قصر العينى فيما بعد).

أما الشوارع فضيقة كثيرة التعاريج أطولها الشارع الذى يصل باب الحسينية بباب السيدة نفيسة وطوله ٤٦٠٠متر ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين منهم ميدان الأزبكية الذى كان تحيط به القصور التى يسكنها الأمراء وفى أيام الفيضان يمتلئ بمياه النيل ويتنزه فيه الرواد بالزوارق.

حين استشعر نابليون أنه علي أعتاب هزيمة انجلترا وحطمت أسطوله فى معركة أبى قير البحرية وشعوره بانقطاع صلته بفرنسا فكر هذه الداهية السياسية في إنشاء المجمع العلمى بالقاهرة ١٨٩٨ واختار أعضاءه من علماء الحملة التى صحبته خصيصا لهذا الغرض وكان يضم أربعة أقسام هى «الرياضيات والطبيعة، والاقتصاد السياسى، والآداب والفنون»، واختار لرئاسته «مونج» وهو أكبر علماء الرياضيات في فرنسا فى ذلك العهد وإليه يرجع الفضل فى تأسيس علم الهندسة الوصفية وهو عالم ذو شهرة عالمية وكان من أعضاء المجمع أيضا «جومار» الذى أعد أبحاثا جغرافية وأثرية عن مصر ذات قيمة علمية رفيعة واشترك فى رسم خريطة مصر وتولى رئاسة أول بعثة مصرية أرسلها محمد على إلى فرنسا.

وكان نابليون قد أحضر مطبعة أثناء حملته واستكمل حروفها العربية من مطبعة البروباجندا في روما وسميت بـ«المطبعة الأهلية» وكانت على مقربة من بيت «الألفى بك» الذى سكنه نابليون بالأزبكية حيث تمت إنجازات عديدة على أيدى العلماء أمثال «كونتيه» الذى ابتدع طواحين الهواء ومصانع الورق وآلات دبغ الجلود وسك النقود ومغازل القطن بالإضافة لتصنيع التليسكوبات وقد عكف المجمع العلمى على اكتشاف الآثار المصرية القديمة ورسموا خرائط مفصلة لكل الأقاليم وبحثوا فى طبيعة الأرض والنيل وطبائع الحيوانات ونوعية النباتات وكل الموضوعات التى لها علاقة بمصر والحياة على أرضها وخلصوا فى النهاية إلى وضع كتاب هو من أعظم الكتب التى وضعت فى العصر الحديث عن مصر «وصف مصر» الذى يتصف بالدقة المتناهية هو دائرة معارف كاملة تؤرخ لتاريخ مصر القديم مرورا بكل العصور وانتهاء بالحملة الفرنسية.. وقد استغرق إعداده سبعة عشر عاما وعكل علماء الحملة على كتابته بعد رجوعهم إلى فرنسا ومات بعض مؤلفيه أثناء إعداده، فكان بمثابةاعتذار علمى عن غزو عسكرى فاشل لمصر استمر لأكثر من ثلاث سنوات اعتبر من حماقات نابليون العسكرية ولا يقل حماقة عن غزوه لروسيا، لكنه نجح فى تجديد ولع الفرنسيين وافتتانهم اللامتناهى بمصر القديمة فى البرديات ومصر بعد غزو نابليون الذى مهد الطريق لظهور شامبليون.



زوجة محمد على و ابنتيها



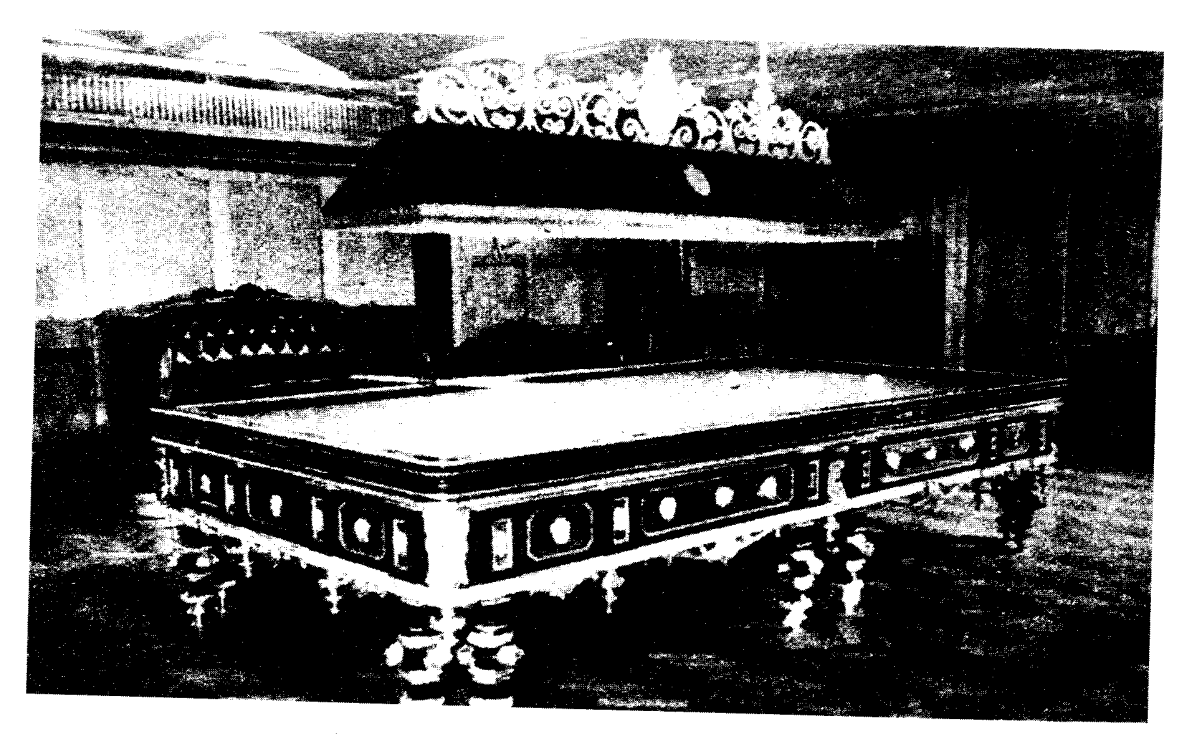
الأميرة نازلى فاضل صاحبة أول
صالون نسائى فى مصر



الملكة نازلى و شقيقها شريف صبرى
الذى أسدل شعره



زيبة قادن " زوجة محمد على "



طاولة البلياردو التى أهداها ملك فرنسا إلى محمد على



شارع الهرم قبل تطويره فى عهد الخديوى اسماعيل



الغناء و الطرب داخل أسوار الحرملك



من وصف مصر بريشة الفنان والترجولد



جشم آفت هانم زوجة الخديو اسماعيل و جوارى عازفات



حفل العشاء الذى أقامه الخديو اسماعيل لأوجينى و ملوك أوروبا



الملكة نازلى فى الرابعة من عمرها



الأميرة فاطمة



انجى هانم زوجة سعيد باشا



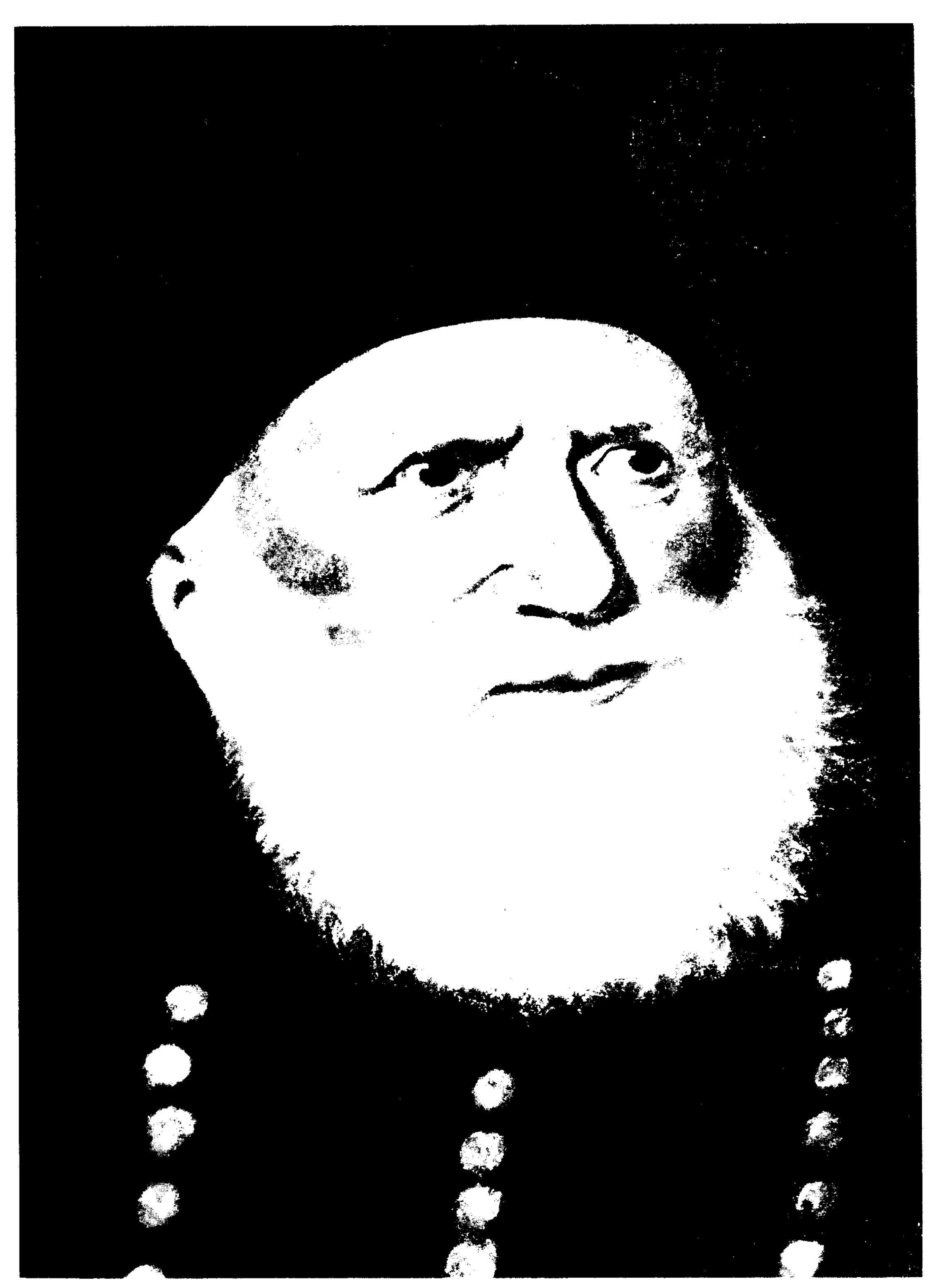
ملك بر زوجة سعيد باشا



لقطة تضم أكبر عدد من الأمراء و النبلاء يتوسطهم الأمير محمد على توفيق



صورة عائلية نادرة تجمع السلطان حسين كامل و الملك فؤاد و زوجات الخديو إسماعيل



محمد علي باشا

محمد على ... « الباشا »

مذهبه الغاية تبرّر الوسيلة

لم تعد الأمور فى مصر كما كانت قبل قدوم الحملة الفرنسية، فقد تزعزع موقف المماليك، وأصبح من العسير عليهم الاستئثار بسلطتهم المتمثلة فى منصب «شيخ البلد» دون الاستعانة بالمساندة الأجنبية (الإنجليزية أو الفرنسية) واستغلت الدولة العثمانية خروج الفرنسيين، لتضع يدها على مقاليد الحكم لكى تستعيد نفوذها فعليًا، ولم يتم ذلك بالطبع إلا عن طريق المكائد والحروب الأهلية التى حولت الحياة فى مصر إلى مزيج من الفوضى السياسية والاضطرابات. كان يمثل السلطة العثمانية الوالى «محمد خسرو باشا، الذى حاول الاستئثار بالحكم عن طريق الوقيعة بين الزعماء المماليك، بالإضافة للجيش العثمانى ومعظمه من الألبان بزعامة قائده «طاهر باشا» أما الجماعات المملوكية

فكانت تنحصر الصراعات الكبرى بينهم من خلال إبراهيم بك والألفى بك وعثمان بك البرديسى ثم ظهر الثعلب الصغير الذى استحوذ على مركز الثقل وابتلع هذا التوازن معلناً عن بدء عصر محمد على «بجماله وبحلاوته وبعذابه وبقساوته».

فى عام ١٧٦٩ ولد محمد على فى مدينة «قولة» التى تطل على بحر إيجا ويسكنها رعايا الدولة العثمانية وتبعد عن «سالونيك» ٨٠كيلومترا وهى أحد ثغور اليونان حاليا.

تنبأت عرافة القرية بعد مولده مباشرة بعلو شأنه وارتفاع نجمه الذى يصل إلى مرتبة الملوك والأمراء وظلت هذه النبوءة شعاع الأمل الذى يبدد شبح اليأس عن أمه، حيث ان محمد على (وهو اسم مركب) هو الابن السابع عشر «لإبراهيم أغا» رئيس الحرس المنوط به حراسة الطرق وتوفى أولاده جميعا ولم يتبق إلا محمد على.. واطمأنت الأم على وحيدها حين أمد الله فى عمره وتجاوز أعمار أبنائها السابقين، فأغدقت عليه حبًا وحنانًا واتبعته بدلال كان من الممكن أن يؤدى إلى افساده وكان مدعاةً لسخرية أقرانه ولكن نبوءة العرافة أحاطت (محمد على) بسياج من الرعاية والحماية ضد الأخطار والأهوال، وشحنته بطموح جامح انتقل إليه من خلال تفاؤل والدته وحين توفى والده وهو لم يتجاوز السابعة عشرة تولى أمره عمه

«طوسـون» وتدريجـيـا تخلى عن التـدليل وعـهـد حـيـاة التـقـويم، فـأجاد ركوب الخيل وتصويب السهام وإذا كان البحـر الهـادئ لا يصنع بحارا جيدا فقد تهيأ له السباحة فى خضم الأمواج الهـادرة حين تسـابق مع زملائه على السبـاحة من الشـاطئ إلى إحدى الجزر القـريبـة(٩)، وحين هبت العاصفة وغضب البحـر.. ظل يجدف وحيدا بعد أن تراجع أصدقـاؤه ووصل ظافرًا إلى الجزيرة وقد تشققت يداه، وفى هذا اليوم حمل لقب «الزعيم» من قبل أصدقائه ولم يتخل عنه مدى الحياة لتتأكد أول مواهبه وأعظمها شأنا متمثلة فى المثابرة والجلد وبعد النظر وسعة الحيلة والحنكة والدهاء السياسى وعلى رأس هذه الصفات كان ذكاؤه الخارق هو جوهرة التاج فى عرش صفاته.

وكانت أول خطوة على الطريق تبدأ بالمتاعب التى اشتهر بها عصره فقد كلف من قبل عمه «طوسون» تنفيذا لأوامر حاكم «قولة» بالبحث عن القراصنة المنتشرين فى بحر إيجا، ونجح فى اعتقالهم أحياء وتقديرا لكفاءته تم تعيينه ضابطا برتبة ملازم تحت الاختبار فى الأسطول العثمانى.

وسرعان ما ذاع صيته، وظهرت قدراته المتميزة مرة أخرى حين عرض المساهمة فى التصدى لأهالى إحدى القرى التى امتنعت عن دفع الضرائب ليبدأ حياته السياسية بالحيلة والدهاء اللذين لم يتخل عنهما طوال حياته ولم يعبأ كثيرا بقول ابن المقفع إن شر الملوك المخادع.

ووصل إلى هذه القرية المتمردة، وأرسل جنوده لإحضار كبار التجار وأخبرهم أنه يود مقابلتهم فى المسجد لأمر هام وبما أن المسجد مكان للعبادة، فلم يساورهم الشك فى أى نوايا أخرى.. ولكنه قام باعتقالهم.. وشاهدهم أهالى القرية وهددهم بأنه سوف يقوم بإعدام هؤلاء التجار إذا لم يدفعوا الضرائب فارتعد الأهالى خوفا.. ولم يجرؤ أحد من الأهالى عن الامتناع عن الدفع مرة أخرى، وصعد درجة وتم ترقيته ليصبح «قائد حرس حاكم قولة» وتتوطد صلته بحاكم قولة ويتزوج وهو فى العشرين من عمره من سيدة مطلقة قوية تمت بصلة قرابة للحاكم وهى أم أبنائه الذين تولوا الحكم ومنهم (إبراهيم باشا وسعيد باشا) وبما أن محمد على هو ابن لعصره، فقد كان مألوفا فى ذلك العهد أن يكون الرجل مزواجا ولديه عدد كبير من الزوجات «المولدات» أو الجوارى ويقال إن محمد على أنجب ٦٥طفلا من عدة زوجات وجوار على مدار سنوات عمره وقد تهيأ له الاختلاط بالأوروبيين فى صباه، حين كان ضابطا فى «قولة» اتصل بالتاجر الفرنسى «ليون» وأصبحا صديقين، وكان «ليون» هو صاحب الفضل الأول فى تعليمه المبادئ الأساسية لعقد الصفقات التجارية وبصفة خاصة تجارة الدخان التى جنى منها أموالا كثيرة فشعر بالأمن النفسى والاستقرار الاجتماعى اللذين ينشأن من وفرة المال فى يد صاحبه وأصبح شغوفًا بسماع أسرار التجارة العربية وازداد شوقًا بعد اطلاعه

على شعارات الثورة الفرنسية وكما كان يقول دائما عن نفسه «ولدت وفى السماء كوكب سعيد» فقد ظل الحظ يحالفه من بداية حياته وحتى مماته، على أن ثلاثة أرباع هذا الحظ قد أتى بالفعل مع مولده لأنه ولد والظروف من حوله مواتية لظهوره وتكاد تكون فى انتظاره شأن أى زعيم أو عظيم.

وتطورت الظروف لصالحه بسرعة رهيبة فى الفترة من (١٨٠١ ـ ١٨٠٥) وهى الفترة التى أعقبت خروج الحملة الفرنسية من مصر فلم يرض المشايخ والعلماء عن ولاية خسرو باشا فقاموا بالثورة عليه وأسقطوه، وأصبح «طاهر باشا قائمقاما» أى نائبا وتولى محمد على الذى قدم إلى مصر ضمن القوات الألبانية للمشاركة فى الدفاع عن مصر ضد الحملة الفرنسية، قيادة الجنود الألبان بدلا من طاهر بك ولم يكن يتعدى الثلاثين عاما ومرة ثانية ثار الشعب على خورشيد باشا علاوة على انقسام المماليك بين جماعة المماليك الفرنسية (موالية لفرنسا) بزعامة البرديسى بك الذى نجح محمد على فى مهادنته والتحايل على العداوة الكامنة بينهما بالصداقة الظاهرة وقد جرح كل منهما نفسه وشرب من دم الآخر بالإضافة لجماعة المماليك «الإنجليزية» التى يتزعمها محمد الألفى بك وهو مملوك تم شراؤه بألف أردب من الغلال، لذلك سمى بالألفى وفى عام ١٨٠٤ ساءت الأحوال وشح المال ولم

يجد البرديسى ما يدفعه من رواتب للجنود الألبان ففرض ضرائب جديدة على الأهالى، فاشتاط غضبهم وخرجوا هاتفين: «ايش تأخد من تفليسى يا برديسى» والنساء يندبن ويصبغن أيديهن بالنيلة.

وأخيرا.. استشعر محمد على اقتراب أحلامه.. وكان رائدًا فى تحالفه مع الشيوخ والعلماء المصريين الذين تولوا القيادة الشعبية لإنهاء الفوضى وتوفيرالأمن وقد استشعر زعماء المقاومة الشعبية وعلى رأسهم «عمر مكرم» نقيب الأشراف والشيخ الشرقاوى والسادات والدواخلى أن البيت الذى يبنى وفقا لأذواق الجميع يبقى دائما بلا سقف وقد وجدوه سقفا حاميا وحصنا منيعا لكل هذه الخلافات وخاصة أنه نجح فى مهادنة جميع الجبهات وفى الإطاحة بخورشيد باشا وتولية محمد على الذى وصل لمقاليد الحكم بفضل القيادات الشعبية والقوة الجماهيرية بعد أن أصبح أقوى رجل فى مصر وسجل اسمه فى التاريخ ليصبح أول حاكم يختاره الشعب المصرى بالإجماع على الرغم من كونه ليس مصريا وتلك فكرة جديدة وجريئة لم تكن مألوفة قبل عهده وهى تدل على عبقريته ونبوغه ودهائه ومن العجيب أن عمر مكرم هو أول من اقترح تعيين محمد على واليًا على مصر ولم يشأ أن يختار نفسه ولم يكن يطمع فى سلطة أو يخطط لزعامة وأحاط محمد على بمشورته وسديد آرائه عن أحوال المصريين وساعده كثيرا وفى

البدء كان محمد على يرجع إلى المشايخ فى كل صغيرة وكبيرة وكانت آراؤهم بمثابة أوامر له فحظى بمحبتهم الجارفة وتقديرهم العميق لشخصه وقد انتقل هذا الشعور إلى الأستانة وصدر فرمان الباب العالى الذى أذعن لإرادة الشعب بتولية محمد على حكم مصر وعزل خورشيد باشا فى يوليو ١٨٠٥.

وكان لابد من اختيار حليف من الدول الأوروبية فاختار محمد على حماية فرنسا (كحليف) وصديق يتوسط له لدى الباب العالى، حيث بادرت فرنسا بتعيين مندوب تجارى لها هو مسيو «مايثودلسبس» عام ١٨٠٣ وهو والد فردينان دلسبس وكانت تهدف لتأكيد إخلاصها وصداقتها لمن يتولى زمام الأمور ومقاليد الحكم فى مصر وبالطبع لم يقابل الإنجليز «ولاية محمد على» إلا بالارتياب والقلق فسعوا لدى الباب العالى لإزاحة محمد على عن ولاية مصر وبالفعل نجحت مساعيهم وصدر فرمان بتعيين موسى باشا واليًا على مصر وتقليد محمد على ولاية «سالونيك» فامتثل هذا الثعلب الماكر للأوامر وسعى من جهة أخرى للاستعانة بالمشايخ والعلماء وحشد جهودهم وعمل على استمالة القبطان باشا الذى أرسله الباب العالى لتنفيذ الأوامر وأغدق عليه الأموال والهدايا والرشوة (البرطلة كما كان يطلق عليها) وقد أؤثر عنه قوله «إنى أعرف الأتراك وأعرف الطريقة التى تنجح معهم فالرشوة وسيلة

فعالة مع هؤلاء الناس»، وبالفعل أصدر الباب العالى فرمانا يثبت محمد على فى الولاية فى ١٨٠٦ فى مقابل أن يتعهد للباب العالى بدفع ٤٠٠٠ كيس من النقود وأن يجعل ابنه إبراهيم بك رهينة بالأستانة حتى يتم سداد هذا المبلغ وقد زينت القاهرة لهذا النبأ ثلاثة أيام وتم تتويجه فى احتفال كبير بالقلعة ولكن هذا الفرمان أشعل نيران الغيرة والحقد فى قلوب المماليك على الرغم من أن الباب العالى قد أصدر فرمانات للبكوات المماليك أيضا تتضمن حكم مديريات الوجه القبلى، وحاول محمد على الوصول إلى تسوية مع الألفى بك زعيمهم الأكبر والمنافس الأول لمحمد على على كرسى الولاية على الرغم من صدور فرمان الباب العالى إلا أن الأمل كان يراود الألفى فى ولاية مصر.. ووصف محمد على هذه العلاقة بقوله «مادام هذا الألفى حيًا فلن يهنأ لى عيش فنحن بلهوانان يلعبان على الحبا ولكن هو فى قدميه قبقاب!!» لذلك كان طبيعيا أن يقول بعد أن علم بنبأ وفاته فى يناير ١٨٠٧ «الآن ملكت مصر وما عدت أحسب حسابًا لغيره» وكان البرديسى بك قد توفى أيضًا عام ١٨٠٦ وقد عد الجبرتى موت الألفى من تمام «تمام سعد محمد على الدنيوى» لأنه اختفى من الساحة فى الوقت المناسب تماما، فقد كان ينتظر قدوم الإنجليز إلى الإسكندرية، وهم بدوره كانوا يعلقون عليه آمالاً كبيرة فى

الإطاحة بمحمد على (حليف فرنسا) ولكنه توفى قبل قدومهم.. فماذا حدث؟

موقعة رشيد

وصلت حملة فريزر الإنجليزية إلى الإسكندرية فى مارس ١٨٠٧م حيث كانت الإسكندرية مستقلة عن «باشوية القاهرة» وتابعة للدولة العثمانية مباشرة ولم يكن حاكمها «أمين أغا» من حلفاء محمد على فاستسلم للإنجليز ولم يدافع عنها، بالإضافة إلى ضعف التحصينات وقلة الجنود، ولذلك كان نزول قوات الأسطول الإنجليزى فى الإسكندرية يمثل خطرًا داهمًا يهدد ولاية محمد على.

ولكن المشايخ وعلى رأسهم عمر مكرم استنفروا الشعب لمقاومة الاحتلال الإنجليزى وتوالت الخطب التى تدعو الناس للتطوع وتم عمل الاستحكامات حول القاهرة لصد الإنجليز وهكذا كان عمر مكرم وطنيًا محبًا غيورًا لا يطمع فى مجد إلا مجد الوطن ومن جهة أخرى جهز محمد على حملة مكونة من ٤٠٠ مقاتل بقيادة نائبه «لاظ أوغلى» وهو الجد الأكبر لحسين رشدى باشا أحد رؤساء الوزارة السابقين. وتوجهت هذه القوة إلى رشيد وانهزم الإنجليز فى موقعة «رشيد» وكانت صدمة شديدة لهم فأراد فريزر أن يحول النتائج لصالحه.. فكانت موقعة «الحماد» التى انهزموا فيها هزيمة ساحقة أيضا

وسقطت هيبة الجيش الإنجليزى وحين عجز «فريزر» أمام هذه المقاومة والانتصار غير المتوقع لجأ شأن أى ضعف للتخريب فقطع سد أبوقير وبذلك تلفت ترعة الإسكندرية وأصاب الإسكندرية ضرر شديد وأحاطت المياه بها من كل جانب.

وأخيرا رحل فريزر وقواته ورأت انجلترا أنه من الحكمة تأجيل هذا الغزو وإعادة المحاولة فى وقت آخر يكون أكثر ملاءمة وخاصة أن نابليون كان فى أوج عظمته وأصبح يتحكم فى معظم أوروبا وعقد صلحا مع روسيا.

وابتهجت «تركيا» لهذا النصر الذى يمثل حلقة من سلسلة انتصارات هذا الشعب العظيم على غزاته، وبالفعل أرسل السلطان «محمود» إلى محمد على سيفا وخلعة «رداء شرف عسكرى» وأنعم على عمر مكرم وإبراهيم بك وطوسون بك (ولدا محمد على) بالرتب وأعادت الحكومة التركية إبراهيم بك الذى كانت تحتفظ به الآستانة كرهينة حتى تدفع الجزية ولكن هل طابت مصر لمحمد على كما كان يعتقد بعد وفاة الألفى بك وهزيمة الإنجليز ومساندة فرنسا له ورضاء الباب العالى عنه؟

كانت المحكمة الكردية القائلة: «إذا خفت من المطر فلا تقف تحت المزراب» هى أفضل ما يوصف به موقف محمد على لأنها تتسق مع فراسته وبعد نظره الذى شاهد فى الأفق بوادر عصيان وفوضى من قبل الجنود الأرناؤط غير النظاميين وكان

يخطط للتخلص منهم فإن لم يكونوا مثل المماليك فهم أكثر سوءًا وأشد خطرًا منهم وهددوا محمد على وتوجهوا إلى سرايته بالأزبكية فهرب إلى القلعة سراً.. لكنهم تمكنوا من سرقة سرايته وانطلقوا فى شوارع القاهرة يسرقون وينهبون، فاجتمع محمد على والمشايخ والعلماء واستقروا على دفع جزء من رواتب هؤلاء الجنود المتأخرة والتى كانت سببًا فى اشتعال هذه الفتنة وأجمعت الآراء أيضا على فرض إتاوة مالية جديدة على الأهالى تم توزيعها على (التجارة والملاك والصناع وأرباب الحرف) وتم دفعها بالفعل ومنذ ذلك اليوم قرر محمد على أن يتخلص منهم نهائيا وأخذ يعد العدة لإنشاء جيش مصرى نظامى ولكنه كان صبورًا ولم يتعجل تحقيق هذا الحلم إلا فى الوقت المناسب.

وفيما يتعلق بحذره ومخاوفه من المماليك فيكفى أن نعرف رأيه فيهم كما يقول «ماثيو ديلسبس» صارحنى محمد على بقوله: «كيف يمكننا الاعتماد على المماليك وقد ارتكبوا الجنايات ضد أخيهم وزميلهم وصديقهم.. إشارة إلى الألفى بك فهل كان المماليك سيلتزمون بدفع الضرائب، فقد كانت هى السبب الرئيسى فى شرخ جدار الزعامة الشعبية التى أوصلت محمد على بالفعل لحكم مصر».

كان هذا التحالف الظاهر بين محمد على وزعماء الشعب لا يعدو أن يكون مجرد خطوة فى طريقه السياسى، لذلك سهل

عليه الانفراد بالسلطة وكيف لا يفعل وهو القارئ المثالى لكتاب ميكافيللى الخالد «الأمير» الذى أعلن فيه عن الطلاق النهائى الذى لا رجعة فيه بين السياسة والأخلاق، وإذا كان لمحمد على دستور خلال فترة حكمه، فقد كان كتاب الأمير هو دستوره وقد حرص حكام أسرته جميعا من أبنائه وأحفاده على قراءته فحظى كل منهم باغتنام بعض فقراته ووضعها موضع التنفيذ وفقا لظروف عصره والمناخ العام وطبيعة شخصية كل حاكم منهم ولكن محمد على كان رائدا فى تطبيق كل ما جاء فى كتاب «الأمير» الذى جاء متسقا مع أفكاره كما لو كان هو مؤلفه وربما يكون ذلك هو سبب عدم إعجابه بهذا الكتاب بعد أن طلب من «الأب روفائيل» ترجمته وأراد بذلك عدم لفت الأنظار إليه حتى لا تكشف دوافعه الخفية وهذا أمر متوقع من مموّه مثله وفضل عليه مقدمة «ابن خلدون» ولكن على الرغم من عمقها وروعتها فهى لا تتشابه مع كتاب «الأمير».

الغاية تبرر الوسيلة

فما هو ملخص ما جاء فى هذا الكتاب لمؤلف الذى اشتهر بهذه العبارة «الغاية تبرر الوسيلة».

يقول ملخص الكتاب:

من المستحيل على الأمير أن ينجو من الاشتهار بالقسوة لأن الدول الحديثة مليئة بالأخطار والاحتفاظ بالسلطة مرجعه فى معظم الأحوال اتباع أسلوب القسوة الحكيمة أى أن يكون هناك أكبر قدر من الإساءة دفعة واحدة حتى إذا أدت غرضها بدأ الأمير فى الإحسان تدريجيا والشعوب دائما على استعداد لأن تنسى الإساءة بعد أن أدت مفعولها وكثيرا ما يضطر الأمير فى سبيل صيانة الحكم إلى العمل بما يتنافى مع الذمة والخير والإنسانية والدين ويجب أن يكون حاضر الذهن بحيث يوجه نفسه تبعا لاتجاه الريح ووفقا لما تمليه تقلبات الحظ ولكن يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن الذين لا يعتمدون على الحظ قد اعتمادهم على كفاءتهم يكونون أقدر على حفظ ملكهم من هنا على الأمير أن لا يدع أفكاره تتحول عن ممارسة الحرب وعليه أن يتمرس فيها خلال السلم فهذا هو الفن الأوحد الذى لا غنى عنه لمن يحكم وهذا أمر ضرورى للأمراء الذين تولوا الحكم بالوراثة ويمكنم الأفراد العاديين أيضا من الوصول إلى الحكم (مثلما فعل هو) ومن الأهمية بمكان أن يتذكر الأمير دائما أن الناس قد يسهل عليهم نسيان موت آبائهم ولكنهم لا ينسون أبدا فقدان أموالهم، لذلك يجب أن يتورع الأمير عن الاستيلاء على أملاك الغير، وأن يجعل نفسه مرهوبا لا مكروها، لأن الخوف وانعدام الكراهية ينسجمان معا فيسهل على الأمير أن يحتفظ بهما مادام لا يمد يده إلى أملاك رعاياه

ولا إلى نسائهم (لم يكن فاروق حريصا على اتباع هذه القاعدة فأشاع عن نفسه ما لم يكن صحيحا من المغامرات) علما أن الناس أقل خشية للأمير الذى يجعل نفسه محبوبا لأن الحب لا تربطه سوى سلسلة من الالتزامات لا يتردد البشر فى أن يكسروها إذا كان كسرها يقربهم من غرضهم، فالشعوب تحب وتكره بإرادتها ولكنها تهاب الأمير بإرادته فالخوف تصونه وطأة العقاب والأمير العاقل هو الذى يستند إلى ما فى يده (الرهبة) لا إلى ما يجود به الآخرون (الحب)!!

وحين نتطرق للصراع لا يكفى فى أحوال كثيرة اللجوء لأسلوب البشر فيكون من الملائم الاستعانة بأسلوب الوحوش فالأمير القوى ينبغى أن يقلد كلا من الأسد والثعلب فالأسد لا يستطيع تجنب الشباك والفخاخ، والثعلب لا يستطيع أن يحمى نفسه من الذئاب، فالأمير الناجح له صفتان فهو ثعلب ماكر ليتجنب الشراك وأسد كاسر لكى يرهب الذئاب أى أن من إراد أن يفوز فى الحرب عليه أن يفوز فى السياسة أيضا وأن يشغل الرعية دائما بالأعياد والمهرجانات ويبدى من وقت لآخر جانبا من تواضعه وعظمته ولما كانت طبيعة البشر لا تسمح لشخص واحد بأن يكتسب كل هذه الصفات فى وقت واحد.

فمن الضرورى للأمير أن يتظاهر بأنه يمتلكها، لأن امتلاك هذه الصفات واستخدامها باستمرار خطر ولكن التظاهر بها أكثر نفعا.

ويرى ميكافيللى أيضا أن البشر ليسوا جميعا طيبين ولكنهم جبلوا على الشر وليس هناك ما يجبر الأمير على الوفاء بوعده لهم ولن يحتاج إلى حجج مشروعة إذا نكص بوعده وأخيرا هناك قاعدة عامة قلما تخفق «وهى أن من يتسبب فى أن يصبح سواه قويا، فهو بذلك يقضى على نفسه بالدمار».. هذا هو كتاب آدم السياسة «ميكافيللى» الذى وصفه بأنه سيظل يرهق الإنسانية قرونا طويلة ولن يستنفد أغراضه.

فماذا فعل محمد على للتخلص من الزعامة الشعبية التى أجلسته على عرش مصر ـ لم يفعل سوى تطبيق هذه القاعدة الأخيرة، فقد رأى أنه من الحكمة القضاء على حلفائه حتى لا يصبحوا أكثر قوة وأقوى تأثيرا على الجماهير وللأسف الشديد لم يبذل محمد على مجهودا كبيرا، فقد تكفل بعض زعماء الشعب من المشايخ بذلك وقد اشتعلت نيران الغيرة فى قلوبهم تجاه عمر مكرم نقيب الأشراف وهو من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب وصاحب الفضل الأكبر فى تولية محمد على، وقد حاول المماليك استمالته لكنه رفض فقد كان مصريا وطنيا مخلصا وأكثر الزعماء شجاعة ونفوذا لدى الشعب، وقد رفض عضوية الديوان التى عرضها عليه نابليون واشتهر بأنه ملجأ الضعفاء والمظلومين وكان مسموع الكلمة وله منزلة كبيرة لدى الشعب، وقد استغل محمد على كل هذه الصفات فى التقرب إلى الشعب من خلال علاقته بعمر مكرم الذى كان أول من

نادى بأحقية محمد على فى ولاية مصر وحث الشعب على تأييده ولكن بعد تولية محمد على لم يعد يذعن لآراء هؤلاء الشيوخ وهم بدورهم التفتوا لتحقيق مصالحهم الشخصية التى تحطمت على صخورها المصلحة العامة، فسكن أغلبهم فى القصور والضياع وتشبهوا بالمماليك فى بذخهم وقد أطلق عليهم الجبرتى اسم (مشايخ الوقت) بسبب انتهازيتهم.

وهكذا ضعفت مكانتهم وأصبح من اليسير على محمد على ترويضهم وإغراءهم بالعطاءات والأموال فى مقابل أن يطلقوا يده فى فرض الضرائب والإتاوات التى كانت ترهق الشعب ولم يعترض طريقه سوى صديقه الحميم عمر مكرم وكان محمد على قد تعهد بعدم زيادة الضرائب وهى تمثل ثلث إيراد الدخل وأصدر فرمانا بذلك قائلا: «لعن الله من يفعلها مرة أخرى».. ولكن فى عام ١٨٠٨ نقص النيل وارتفعت الأسعار وعم الغلاء فطالب الشعب بتخفيض الضرائب عن كاهله وكانت تلك الواقعة هى بداية الخلاف بين محمد على وزعماء الشعب، فكان عمر مكرم هو أول معارضيه وكتبوا إليه منشورا يعلنون فيه تذمرهم وندمهم الشديد على أنهم أجلسوه على عرش مصر.. فماذا كان رد فعله.. لقد أجابهم قائلا: «أنا لا أرد شفاعتكم ولكن نفسى[١٠] لا تقبل التحكم وكأنكم تخوفوننى بهذا الاجتماع وتثيرون الرعية كما كنتم تفعلون فى أيام المماليك فأنا

لا أفـزع من ذلك وإن حـصل من الرعـيـة أمـر فليس لهم عندى إلا السيف والانتقام» .

وهكذا تفرقت جماعتهم بهذا الرد وانفرد عمر مكرم بسخط الباشا وغضبه بعد أن رفض عمر مكرم مقابلته إلا بشروط وصرح قائلا: «كما أصعدته إلى الحكم فإنى كفيل بإنزاله منه» وهذا أمر طبيعى فمن ذا الذى صحب السلطان فدام له الأمن والأمان وفى أول رد فعل تم نفىّ عمر مكرم إلى دمياط لمدة ٤سنوات ثم انتقل إلى طنطا وقضى بها سبع سنوات وعزله الباشا من نقابة الأشراف وأنعم بها على الشيخ السادات وحين طلب عمر مكرم الذهاب إلى الحج أذن له بذلك وقال: «أنا لم أتركه هذه المدة إلا خوفا من الفتنة، والآن لم يبق شىء من ذلك، فإنه أبى وبينى وبينه ما لا أنساه من المحبة والمعروف».

وظلت مكانة عمر مكرم فى نفوس الشعب كما هى حتى وفاته ولكن الجبرتى لم يتعاطف مع عمر مكرم وكتب قائلا: «إن من أعان ظالما سلط عليه، وإ الذى وقع له بعض ما يستحقه ولا يظلم ربك أحدا».

ونحن لا نتبنى موقف الجبرتى ولكننا ننقله فقط من قبيل الموضوعية التاريخية.. فالرجل لم يعين ظالما ولكنه سانده ودعمه من منطلق نوايا وطنية مخلصة، وعلى كلٍ فقد أسدل الستار واختفى المشايخ من الحياة السياسية فى مصر وتقلص نفوذهم بدرجة كبيرة.



مذبحة القلعة

وبدأ الفصل الثانى من مشاهد الاستئثار بالسلطة عن طريق القضاء على المماليك، ومن الحق أن نقول إن محمد على حاول كثيرا استمالتهم ووسّط العديد من بكواتهم من أجل الوصول إلى تسوية ترضى الطرفين واشترط عليهم أن يتخلوا عن الصعيد الذى كانوا يقيمون فيه بعد حروبهم الأهلية فى القاهرة فيما بينهم أو بين الآخرين ويفرون بعيدا عن القاهرة واشترط أيضا أن يلتزموا بدفع الضرائب التى تفرض عليهم، وبعد مناورات استطاع محمد على أن ينتزع الصعيد من هم وبعد عودتهم إلى القاهرة واستقرارهم انشق البعض منهم وحاول أن يسترضيهم وأغدق عليهم الأموال، ولكن فى عام ١٨١١ وقع فى يده رسائل من البكوات تفضح خيانتهم وعزمهم على الغدر به والاستيلاء على السلطة، فقرر أن يتخلص منهم نهائيا.. وجاءته الفرصة لتحقيق هذا الغرض فى الوقت الملائم، وبدأ العد التنازلى لتنفيذ خطته فأذاع نبأ إعداده لإرسال حملة عسكرية إلى الجزيرة العربية بناء على أوامر السلطان العثمانى واهتزت هيبة الباب العالى ورأى محمد على أن هذه الحرب فرصة عظيمة لتدعيم موقفه أمام السلطان ومد نفوذه خارج مصر استعراضا لقدرته وقوته فى ولاية مصر.

وتم إعداد هذه الحملة، حيث دعا جميع المماليك لحضور الاحتفال بتقليد ابنة «طوسون» خلعة القيادة قبل سفره

على رأس القوة العسكرية المتوجهة إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين.

تم إعداد الحفل بعناية فائقة ولم يترك صغيرة ولا كبيرة دون أن يستفسر عنها وبلغت درجة إتقانه فى المخادعة والدهاء أنه أمر بتصميم مقاعد وكنب خصيصا لهذه الحفلة ذات تجويف سرى (سحّارة).. فإذا ما بدأ الحفل وبعد ترحيبه وحفاوته، لم يساورهم الشك فى أن يضعوا أسلحتهم فى هذه التجاويف وينصرفوا لأكل ما لذ وطاب.. (وما زالت هذه المقاعد فى القلعة إلى يومنا هذا شاهدة على هذه الخديعة).

بدأ الموكب وطلب منهم أن يسيروا مع ابنة تتقدمهم طليعة من الفرسان وابنه طوسون فى المقدمة واجتاز الموكب ممرا ضيقا، عبر منه ابنه والفرسان ثم أغلق الباب دون أن يشعر المماليك (وهم عزل من السلاح لا يملكون إلا السيف).

وكان وراءهم الجنود الأرناؤط الذين كانوا يعلمون أن إشارة البدء فى إطلاق النار على المماليك هى إغلاق الباب وأطلقت النار عليهم جميعا وارتفعت جثث القلتى، حيث قتل منهم ما يقرب من ٤٧٠مملوكا فى هذا الممر الضيق ولم ينج منهم إلا شخص واحد هو أمين بك الذى هرب إلى الآستانة فكانت ضربة ساحقة ماحقة لهم.. وجاء إبراهيم بن محمد على فى العام التالى ١٨١٢ ليقضى على فلولهم فى إسنا ولم يتبق منهم

فى مصر سوى خمسمائة شخص فى الصعيد ولم يكن عسيرا التخلص منهم حيث أرغموا على السفر إلى السودان ولو لم يفعل لبادروهم بالتخلص منه.. فقتلهم كان ضرورة حتمية لبقائه وأمر محمد على بقطع رءوس من تبقى منهم وبذلك توطد سلطانه ولكنها كانت ذبحة قومية ذبحت فيها قطة الشجاعة والديمقراطية، حيث ألقت الرعب والفزع فى قلوب المصريين ولم يجرؤ أحد من الشعب على معارضته أو محاسبته أو الاعتراض على أعماله وانتقاده بكلمة لمدة ٣٧عاما ولكنه بالرغم من ذلك استحق أن يطلق عليه «الديكتاتور المصلح المستنير حيث تفرغ لبناء مصر».

السلطة سلطتى

يقول محمد على: لقد أتيت إلى مصر فوجدت[11] البلاد يسكنها جماعة من المتبربرين ولم يكن بها أكثر من مائتى شخص يعرفون القراءة والكتابة باستثناء الكتبة، ولم أجد بها سوى شخص واحد يصلح لأن يكون سكرتيرا لى، فبذلت كل ما فى وسعى لإدخال المدينة فى البلاد، إن الحظ لم يسعدنى أن أتعلم فى صغرى، لقد بدأت فى تعلم القراءة والكتابة وأنا فى السابعة والأربعين من عمرى ولم يتح لى أن أرى بلادا أرقى مدنية من بلادى.

إن مـا يفـتقـده الأتراك هـو مـا يتـوافـر لدى الإنجليـز، فلديهم «الرجال الـذين يصلحـون للحكم، ولكن الأتراك مـتكبـرون جـهـلاء وسـيؤدى بهم كبـرهـم، وأمـنيـتـى أن يكون لدىّ مـجلس شـورى من الرجال الأمناء».

ومنذ وطأت قـدمـاه مـصـر حـتى صـدور فـرمـان توليـة حكم مـصـر، كـان مـحـمـد على يضع نصب عـينيه الاسـتئثـار بالسلطة والحكم وفـقـا لقـواعـد المركـزية المطلقـة، ولكنه كـان يسـيـر فى اتجـاه بونابرت، الذى أثار قـضـيـة اشـتـراك المصـريين فى الحكم وإحـلالهم تدريجـيـا مـحل الأتـراك فى المناصب العـامـة، فـبـدأ بوضـع حـجـر الأسـاس للتنظيم الإدارى والفنى والمالى فى مـصـر، فتم إنشـاء «الديوان العـالى» عـام ١٨٢٤ وهو يشـبـه مـجلس الوزراء فى الوقـت الحـالى تحت رئـاسـة وكـيل البـاشـا الذى يحـمـل لقب (كـتـخـدا) وهو لاظ أوغلى فـى عـهـده وكـان يشـتـمل على عـدة دواوين (الجـهـادية - البـحـرية - التـجـارة - المدارس والمبـانى والأشـغـال).. وهـو يمـثل السلطة التنفـيـذية فى مـصـر وظل حلم الاسـتقـلال عن تركيـا مـلازمًا لـه، وقـد أفـادته تجـربة الاسـتـعـانة بالإرادة الشعبية لاكتساب الشـرعية وإذعـان الباب العـالى لضغط الشـعـب، فـفكر فـى إعـادة الكرّة مـرة أخـرى، تمـهـيـدا لإعـلان استقـلاله بمصر عن سلطة البـاب العـالى وبالتالى لا يستطيع أى سلطان عزلة ويتفرغ لتحقيق طموحـاته، ففكر فى إنشـاء «مجلس الشـورى» عـام ١٨٢٩ وكـان يتـألف من ممثلى السلطة التنفـيـذية

وبعض نواب الأمة من الأعيان والعلماء، وينعقد مرة واحدة سنويا، حيث تعرض المشاريع التى يقوم بدراستها وترفع توصياته إلى الديوان العالى، وفى عام ١٨٣٧م وضع محمد على اللائحة الإدارية الشهيرة المعروفة باسم «السياستنامة».. أى كتاب السياسة وهى تعد هيكلا إداريا لاختصاصات الحكومة التى تم تقسيمها إلى سبعة دواوين أو نظارات: (الديوان الخديوى).. ديوان الإيرادات وديوان المدارس وديوان الجهادية وديوان البحرية وديوان المدارس وأخيرا ديوان الفابريقات وفى عام ١٨٤٢ تم تأسيس «جمعية الحقانية».. وكان من وظائفها محاكمة الموظفين الذين من حقهم استئناف أحكامها أمام الباشا وكما هو واضح، فقد كان يهدف إلى تدريب أهل البلاد على شئون الحكم والإدارة من منطلق التحديث الأوروبى مع الاحتفاظ بسلطته المطلقة، فكان هذا التنظيم يكفل دراسة أى موضوع ولكن للباشا وحده (الكلمة النهائية) فى كل ما يتعلق بشئون الحكم.

يقول محمد على: «إن الصعوبة فى البداية وكان علىَّ أن أبدأ بدبوس وأنبش به أرض مصر وقد توصلت الآن إلى أن أستعين بالفأس، ولكنى أريد أيضا أن أنتفع بكل مزايا المحراث، إننا لا نستطيع أن نطبق فى مصر الأساليب التى تبطبق فى انجلترا، لأن ذلك يحتاج لسنوات طويلة، وأنا لم يمض علىَّ غير سنوات قليلة ولا أجد إلا أفرادا قليلين يفهموننى ويعملون ما

أوصى به وكثيرا ما أكون فريسة الخداع والتضليل ولكننى أعرف أننى مخدوع، أننى أبحث عن كل ما أستطيع أن أستفيد منه علما ومعرفة.

اقتصاد.. محمد على

لم يبتكر محمد على نظام الحكومة المركزية ولكنه استمدها من الحكومات المستبدة المستنيرة فى أوروبا فى ذلك العهد وقد أخذ عنهم محمد على أيضا مبدأ «الاكتفاء الذاتى».. الذى كانت تقوم عليه سياستهم الاقتصادية.

وخلاصته أن الدولة يجب أن تصدر أكثر مما تستورد، فعمل على تنمية ثروة مصر معتمدا على ثلاثة مصادر أساسية (الزراعة وما يتصل بها والاحتكار التجارى والضرائب).

يقول بوالكمت قنصل فرنسا فى مصر خلال عهد محمد على: «لقد استند على فتوى تقول: إن مصر فتحت عنوة ولم تسلم أو تخضع مما يترتب عليه أن تصبح الحكومة هى صاحبة الحق فى الملكية، فقد تحولت مصر فى عهده إلى مزرعة كبيرة يديرها لصالحه.. فماذا فعل لكى يتمكن من تحقيق ذلك!

كانت أراضى مصر الزراعية موزعة بين المماليك والملتزمين (نظام الالتزام كان يضيع على الحكومة أموالا كثيرة تذهب

للملتزمين مباشرة).. فقام محمد على أولا بإلغاء نظام الالتزام الاستيلاء على أرض الملتزمين وتعويضهم عن طريق دفع رواتب سنوية، وكان هذا التعويض شخصيا أى لا يمكن توريثه، وبمرور الوقت تناقص عدد الملتزمين وفى عام ١٨١٣ قام محمد على بمسح الأراضى الزراعية وإحصائها، وتم توزيعها على الفلاحين لزراعتها مقابل أن يدفعوا عنها الضريبة، فإذا مات الفلاح أمكن توريثها إلى أبنائه إذا أثبتوا كفاءتهم، وبذلك لم تقرر الملكية الفردية للأرض فى عهده وهذه سلبية تحسب عليه لأن الملكية الفردية من أهم مبررات الخلق والابتكار والإنتاج ولكنه كان يأخذ فى اعتباره أن هذا النظام نظام مؤقت أو مرحلة انتقالية تمهيدا لتطوير نظام الزراعة لإدخال الزراعات الجديدة، وفى عام ١٨٢٢ أدخل زراعة القطن الطويل التيلة وتوسع فى زراعة النيلة والخشخاش ولم يكن معروفا قبل عهده، حيث استقدم بعض الخبراء من أزمير لزراعته فى مصر وبعد تحليله فى لندن وجد أنه يحتوى على مادة المورفين بنسبة عالية، واهتم أيضا بالتوسع فى زراعة قصب السكر والتوت واستقدم أشجار الفواكه من أوروبا مثل الأناناس وانتشر أيضا فى عهده المانجو والموز واهتم بالنخيل والكتان وعلى رأس كل ذلك عمل على زيادة كمية الحبوب الرئيسية (القمح - الذرة - والأرز - والفول).. وكان محمد على يحتكر شراء جميع الحاصلات الزراعية لنفسه بما فيها الحبوب فإذا أراد الفلاح

استخدام جزء منها لاستهلاكه تحتم عليه الشراء بعد أن يقوم بدفع ما عليه من ضرائب وكان يشتريها نقدا فى حين أن الحكومة تقوم بدفع قيمتها عند شرائها منه فى صورة «تذاكر» تصرف من الخزينة ويقدم الفلاح رطلا من السمن على كل فدان والوقود بمختلف أنواعه لفرق الآيات بالجيش وحين اشتطا الفلاحين غضبا بعد معاناتهم من هذا النظام الاحتكارى، أطلق لهم العنان عام ١٨٣١ فى زراعة الحبوب (القمح ـ الذرة ـ الأرز ـ الشعير).. وقد أدى هذا النظام إلى ارتفاع الأسعار ومعاناة الفقراء وعم الغلاء بصفة خاصة عام ١٨٢٤ حين بدأ تأسيس الجيش النظامى حتى يستطيع تموين الجيس ولكن فى عهده أيضا اتسعت مساحة الأراضى الزراعية نتيجة لاستصلاح الأراضى والعناية بشئون الرى، فقام بإنشاء ٣٨ألف ساقية جديدة وشق الترع وكانت مصر قبل عهده تعتمد على نظام رىّ الحياض الذى يرتبط بمياه الفيضان ولا تزرع الأرض بمقتضاه إلا مرة واحدة فى السنة ولا يصلح للزراعات الصيفية (القطن ـ قصب السكر ـ الأرز).. ومن أبرز أعماله فى مجال الرى شق «ترعة المحمودية» عام ١٨١٩ وسميت بهذا الاسم نسبة إلى السلطان محمود وقام بحفرها ٤٠٠ألف عامل مصرى وبلغ طولها أكثر من ٨٠كيلومترا بتكلفة قدرها ٣٠٠ألف جنيه، وكان يهدف من إنشائها زيادة الأراضى المزروعة فى ضواحى الإسكندرية على ضفاف الترعة وقد

زادت بالفعل عام ١٨٤٩ لتصبح ١١,٥ ألف فدان بدلا من ٤٠٠٠فدان فقط عام ١٨٢١، أما القناطر الخيرية وهى من مفاخر أعماله فقد وصفها نابليون بونابرت قبل إنشائها حين قال: «لو أعطيت الوقت الكافى لأنشأت ما يكفل عدم ذهاب قطرة واحدة من مياه هذا النهر إلى البحر دون أن تمر بالأرض وترويها».

وحين توسع محمد على فى زراعة القطن كان لابد من إيجاد وسيلة رى دائم فلم يكن هناك حل إلا إنشاء القناطر الخيرية التى أنشأها المهندس الفرنسى «موجيل» بمعاونة المهندسين المصريين مصطفى بهجت ومحمد مظهر واحتفل محمد على بوضع حجر الأساس لها عام ١٨٤٧ ولم يتم الانتهاء منها إلا عام ١٨٦١، وقد أفادت مصر كثيرا من هذه القناطر، حيث زادت مساحة الأراضى المزروعة من ٢مليون فدان عام ١٨٢١إلى٣,٨٥٦,٠٠ فدان عام ١٨٤٠ويصف بورنج عضو مجلس العموم البريطانى فى تقريره عن مصر أحوال الفلاحين لوزارة الخارجية البريطانية قائلا: «الفلاحون المصريون من أكثر شعوب العالم وداعة وحبا للسلام».

يقدرون نهر النيل تقديرا يشبه العبادة!! صحيح أنهم تعرضوا منذ عهد سحيق إلى ظلم وفادح لكن هذا الظلم لم يفسدهم وليس هناك من يضارعهم فى الصبر على طول الأذى

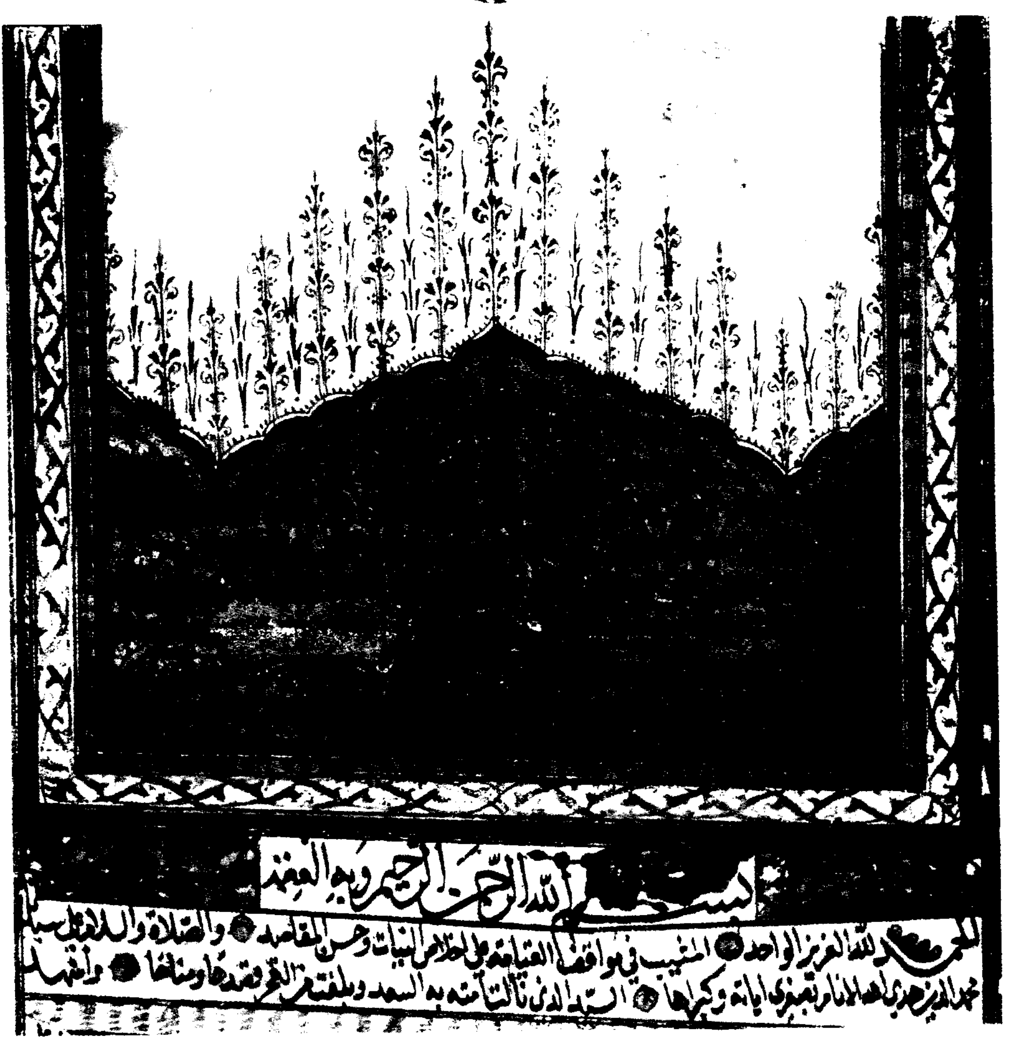
والخضوع لذوى السلطان والبشر عند الشدائد فهم لا يكفون عن الموسيقى والغناء مهما يكن العمل شاقا والسياط تلهب ظهورهم ومن العسير أن يجد الإنسان بينهم فردا يتسم بالكآبة ولكنهم شعب كثير الأعذار فالبحار فى سفينته النيلية يعتذر عن العمل وقت هبوب الرياح ويقول: ولماذا أشتغل؟ أليست هناك ريح؟ فإذا لم تهب الريح قال: ولماذا أشتغل ولا توجد ريح؟

إن تقارير المراسلين التى ترسل إلى الحكومات فى صورة وثائق رسمية غالبا ما تعبر عن وجهة نظر كاتبها بصورة محايدة وتعكس رؤيته الذاتية للمجتمع الذى يعيش فيه ونظرا لأنها سرية فهى ليست مغرضة لا ستستهدف إلا قناعة كاتبها سواء كانت صحيحة أم خاطئة.

التاجر الكبير

اعتمدت التجارة الداخلية بصفة أساسية على نظام الاحتكار الزراعى الذى عرضنا له، أما التجارة الخارجية فقد سيطر عليها محمد على أيضا سيطرة تامة لفترة زمنية طويلة وكانت تفرض ضريبة مقدارها ٣٪ على الواردات ومن جهة أخرى احترم محمد على جميع المعاهدات القائمة بين الباب العالى والدول الأجنبية وهذه الضريبة كان معمولا بها فى تركيا وبالنسبة للصادرات فقد كان يتصدرها القطن ويليه القمح،





بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون

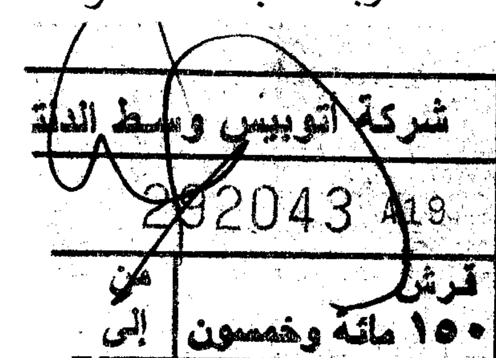
الحمد لله العزيز الواحد ● المثيب في مواقف القيامة على خلاص النيات وحسن المقاصد ● والصلاة والسلام على سيدنا
محمد الذي جهد بلاغه الاثار بتمييز ابانه وكبرها ● السيد الذي نال التأمين به السعد ويلتقي الكرم فقدها ومنامها ● واشهد

والخضوع لذوى السلطان والبشر عند الشدائد فهم لا يكفون عن الموسيقى والغناء مهما يكن العمل شاقا والسياط تلهب ظهورهم ومن العسير أن يجد الإنسان بينهم فردا يتسم بالكآبة ولكنهم شعب كثير الأعذار فالبحار فى سفينته النيلية يعتذر عن العمل وقت هبوب الرياح ويقول: ولماذا أشتغل؟ أليست هناك ريح؟ فإذا لم تهب الريح قال: ولماذا أشتغل ولا توجد ريح؟

إن تقارير المراسلين التى ترسل إلى الحكومات فى صورة وثائق رسمية غالبا ما تعبر عن وجهة نظر كاتبها بصورة محايدة وتعكس رؤيته الذاتية للمجتمع الذى يعيش فيه ونظرا لأنها سرية فهى ليست مغرضة لا ستستهدف إلا قناعة كاتبها سواء كانت صحيحة أم خاطئة.

التاجر الكبير

اعتمدت التجارة الداخلية بصفة أساسية على نظام الاحتكار الزراعى الذى عرضنا له، أما التجارة الخارجية فقد سيطر عليها محمد على أيضا سيطرة تامة لفترة زمنية طويلة وكانت تفرض ضريبة مقدارها ٣٪ على الواردات ومن جهة أخرى احترم محمد على جميع المعاهدات القائمة بين الباب العالى والدول الأجنبية وهذه الضريبة كان معمولا بها فى تركيا وبالنسبة للصادرات فقد كان يتصدرها القطن ويليه القمح،



وقد أفادت حروب نابليون محمد على فى تكوين ثروة كبيرة فيما بين عام ١٨٠٨ إلى ١٨١٢ حين اضطرت انجلترا لشراء حاجتها من الحبوب بأسعار مرتفعة من مصر حتى تتمكن من تمويل الجيش، وأفاد أيضا من تعذر روسيا تصدير الغلال وجنى أرباحا طائلة.

وفى السودان احتكرت حكومته جميع المنتجات وانفردت بشراء الصمغ وسن الفيل والبخور والجلود وحين دخل سوريا احتكر الحرير واحتكر الزيت والتبغ فى جزيرة كريت، وقد أصبح محمد على بشهادة بعض معاصريه من الدبلوماسيين من أغنى الباشاوات فى الإمبراطورية العثمانية وكان لديه حس تجارى عال فيما يتعلق بتجارته وأمواله وكان على دراية كبيرة أكثر من «روتشيلد» نفسه استطاع أن يجمع المال الكافى لإجراء الإصلاحات العديدة فى مصر وقد أثار هذا النظام بعض الدول مثل انجلترا وحاولت إلغاءه بشتى الطرق حيث أدى هذا النظام إلى كساد التجارة الأوروبية بفضل الضرائب والحماية التى فرضها على الواردات الأجنبية ففى عام ١٨٢٤بلغ مجموع الصادرات (١٠,٦٣٦,٥٢٩) دولارا يقابلها

واردات تقدر بإجمالى(٥,٤٣,٠٠٠) دولار وقد أدى الاهتمام بالتجارة إلى الاهتمام بوسائل النقل، فأسس محمد على شركة للملاحة النيلية واهتم بتعبيد الطرق وإصلاحها مثل طريق السويس خوفا من انتشار النفوذ الأجنبى وما يترتب

عليـه من تبـعـات هـو فى غنى عنهـا، ورفض أيضـا المشـروع الفـرنسى لشـق قناة السويس وأعلن رفضه نهائيا على الرغم من الإلحاح الشديد من جانب الفرنسيين (أصدقائه الحميمين) وعبـر عـن وجـهـة نظـره مـن خـلال مـخـاوفـه مـن عـدم حصـوله على ضمان دولى يضمن عدم التدخل فى شئون مصر.

ضريبة الميرى

وفى بداية حكمه كان يلجأ لفرض الإتاوة كلما احتاجت الحكومة إلى المال وكان يستشير الشيوخ وزعماء الشعب إلى أن حدثت الأزمة الكبرى مع عمر مكرم وأطلق العنان لزيادة الضرائب ولم يضع قاعدة أو نظاما للضرائب قبل مسح أراضى مصر عام ١٨١٣ وكانت أهم الضرائب المباشرة هى «ضريبة الميرى» التى تفرض على الأراضى الزراعية التى وزرعت على الأهالى وكانت تتراوح ما بين (١١ إلى سبعين قرشا للفدان الواحد) وفى عام ١٨٣٩ لجأت الحكومة إلى وسيلة جديدة لدفع الضرائب من أجل تلافى التأخير حيث تتضامن كل قرية فى دفع «الميرى» بالإضافة إلى ضريبة الرؤوس وكانت تفرض على الذكور متى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم وكانت هذه الضريبة وحدها تشكل ٦/١إيراد الحكومة بالإضافة للضرائب غير المباشرة التى فرضتها الحكومة كضريبة النخيل والماشية

والأموال التى تحصل من الجمارك والضرائب التى تفرض أيضا على أصحاب الحرف الصغيرة مثل «الحواة - القرداتية - القهوجية - والباعة الجائلين - والراقصات والعازفين على الربابة من رواة قصة أبوزيد الهلالى» وكان كل صاحب حرفة ينتمى إلى جماعة (طائفة) ولا يستطيع مزاولة مهنة خارج إطار الجماعة أو الطائفة بعد ذلك تدفع كل جماعة من هؤلاء عن أفرادها مجتمعين مبلغا للحكومة وتلتزم بالضرائب المفروضة عليها وفقا لإعدادها.

ومن الطريف أن جماعة الراقصات فى القاهرة والتى كان يتضرر من وجودها بعض الأهالى نظرا لرقصاتهم المثيرة، طلبوا من محمد على إبعادهم عن القاهرة فرفض ولم يوافق إلا بعد أن تعهد الأهالى بدفع قيمة الضريبة المستحقة عليهن سنويا فكل شىء فى مصر كان يخضع للضرائب، المأكولات والأغذية حتى «النشوق».

ويؤكد بورنج الإنجليزى ذلك بقوله: «إن الحسابات لم تبلغ من الضبط والإحكام فى أية دولة شرقية ما بلغته فى مصر» وقد ارتفعت إيرادات الحكومة التى كانت تبلغ (عام ١٨٠٥) خمسين ألف جنيه لتصبح عام ١٨١٢ «٢٣٠ألف جنيه» وفى عام ١٨٣٧ بلغت ٣,٠٦٤,٠٠٠جنيه وكان نمو البلاد وتأسيس الجيش والأسطول وشق الترع وإقامة الجسور والحروب

والتعليم والصحة والمصانع وكل ما يختص «بتحديث مصر» كل ذلك كان يلتهم الإيرادات بالإضافة إلى الخراج المقرر على الحكومة المصرية تجاه «الباب العالى» والذى تم تحديده فى عام ١٨٤١ بـ(٨٠ألف كيس) أى ما يعادل ٤٠٠ألف جنيه سنويا، عدا الهدايا الثمينة التى كان يغدقها على السلطان ورجال الآستانة(١٢).

يقول محمد على: «لقد أديت لمصر بعض الشىء وبدأت أعمل على إصلاحها حتى أنه من الممكن أن نوازن من بعض الوجوه بينها وبين الدول الأوروبية لا بينها وبين دول شرقية، أن أمامى وأمام شعبى شىء كبير يجب أن نتعلمه وهدفى من إدخال الصناعة أن أعوّد الشعب الاشتغال بالصناعة.

الأشغال العامة: أقام منشآت عديدة مثل الترسانات والمصانع والمدارس والمستشفيات والمساجد والقصور والثكنات والترع والأهوسة والجسور والمصارف والاسطبلات وحظائر الأغنام.

وكما هو واضح من أقواله فقد كان يهدف إلى تعويد الشعب على الصناعة والإنتاج كمرحلة أولى نحو التحديث ولم يكن ينتظر الربح لأن تكلفة إنشاء المصانع وشراء الآلات وتوفير العمالة المدربة القادرة على إنتاج سلعة جيدة وفتح أسواق جديدة تحقق أرباحا كل ذلك كان أمرا بعيدا عن الواقع كمرحلة أولى فى الصناعة.. وكان بذكائه يعلم كل ذلك ولكنه كان يهدف

إلى تحقيق الاكتفاء الذاتى، وتقييد الواردات الأجنبية والاستعاضة عنها بالمنتجات المحلية حتى ولو كانت أغلى ثمنا وأقل جودة وإمداد الجيش والأسطول بما يحتاجان إليه من مختلف أنواع السلع، وكل ذلك لم يكن بالأمر الهين على الشعب وهو لم يتعود مثل هذه الصناعات الجديدة التى استحدثها حيث انتقلت الصناعة فى عهده من الورش الصغيرة إلى الفابريقات التى تدار بالآلات وأول المصانع التى أنشأها محمد على هو فابريقة الغزل والنسيج بالخرنفش عام ١٨١٦ بالاستعانة بالخبرة الإيطالية وبدأت مصانع النسيج فى الانتشار فى الوجه البحرى أولا ومصنع الجوخ فى بولاق الذى صممه الفرنسيون وأرسل بعض العاملين به إلى فرنسا حتى يتم إعدادهم وتدريبهم وكان يزود هذا المصنع الأسطول بالملابس الرسمية، بالإضافة لمصانع النحاس وسبك الحديد وصنع المدافع والسيوف والبنادق وفى بولاق أنشئت المصانع لصناعة الأسلحة النارية والسكر وغيرها من الصناعات الأخرى مثل الزجاج والصينى والشمع والصابون وكانت أهم الصناعات فى عهد محمد على هى صناعة غزل القطن والكتان وكانت الحكومة تعهد بالمواد الخام إلى بعض المقاولين ويقومون بدورهم بتشغيل العمال وفقا لتعريفة يتم الاتفاق عليها بين الطرفين وكان متوسط أجر العامل فى المصنع يقدر «بقرش وعشرين بارة» وفى المدن كان يحصل الصانع على ثلاثة

قـروش واشـتـركت المرأة أيضـا فى الصناعـة وكـان يتم توزيع الكتـان على القـرويات لغـزله وعـمل بعضـهن فى المصـانع إلى جانب الرجـال، واحتكر النيلة وكـان يجبـر صبـاغ الملابس بشـراء مـا لديه من النيلة لذلك كان أكثـر منسـوجات الأهالى من اللون الأزرق، وكـانت هناك صـعـوبة فى تعـويد العـمـال على العـمل فى هذه المصـانع لذلك كـان يتم إحـضـارهم بنفس الوسـائل بالنهـار ويتم اسـتـبـدالهم بآخـرين مـتى جـاء دورهم فـى التـجنيـد وكـان مـتـابعـا جـيـدا ومن اليسـيـر أن يجده العـمـال فى أى وقت وأى مكان أثناء أوقـات العـمل الرسـمـيـة وفى عـام ١٨١٧ قـام بجـمع أربعـة آلاف شـاب من القـاهرة ومـعظمـهم مـن العـاطلين للعـمل بمصـر وكـان يتم إحـلال المصـريين الذيـن اكـتسـبـوا الخـبـرات الصناعية محل الأجانب.

وكـان «ديوان الجـهـادية» هـو الذى يسـوق هـذه الصنـاعـات كل ذلك كـان مـن شـأنه أن يثـيـر حـفـيظة الدول الأوروبيـة وانجلتـرا بصـفـة خـاصـة التى كانت هذه المحـاولات الصناعـيـة الصناعـيـة وقـابلتـهـا باسـتـيـاء شـديد أدى إلى تقليص الحـرية المطلقـة التى كان ينعم بها البـاشـا، حيث عقـدت انجلترا مع تركيا مـعاهـدة عام ١٨٣٨ وبمقـتـضـاهـا فـتـحت مـصـر أبوابهـا دون قـيـد أو شـرط للتـجـارة الأجنبـيـة، وازداد الأمـر سـوءا بعـد تسـوية عـام ١٨٤٠ . ١٨٤٠ التى حـددت قـوة مـصـر العـسكرية والبـحـرية كـمـا سنرى

فيما بعد وقد ارتبطت الصناعة فى البداية بالجيش والأسطول لذلك اضمحلت بسبب تحديد قوتها من قبل الدول الكبرى.

وقد شهد القنصل الإنجليزى «بأن مصر من أكثر بلاد العالم اشتهارا بالقدرة على الإنتاج غير أن أهلها يقنعون بأن يعيشوا فى مستوى أقل مما يقبله أى شعب آخر وذلك يتسق مع شعر حافظ إبراهيم:

ابن الكنانة فى الكنانة راكــد

يرنو بعــين غــيــر ذات طمــاح

لا يســتـغل كــمــا علمت ذكــاؤه

وذكــاؤه كــالخــاطف اللمــاح

وما كان ليتحقق كل ذلك لولا توافر الاستقرار والأمن الذى يوفر السلام الداخلى ويضمن سلامة الأرواح والأموال وقد عانت مصر كثيرا قبل عهد محمد على من اضطراب الأمن وكان الأّالى يضجرون من كثرة تعرضهم للسلب والسطو، وخاصة خلال الفترة الانتقالية من (١٨٠١ ـ ١٨٠٥) وهى المرحلة التى أعقبت خروج الحملة الفرنسية حتى تولية محمد على حيث هدد الجنود الأرناؤط الولاة بإثارة الفتنة أكثر من مرة ولم تكن هناك حدود لهمجيتهم حتى أنهم سرقوا مجموعة من الإنجليز أثناء حملة «فريزر» عام ١٨٠٧ كانوا يتفاوضون مع

محمد على فى خيمته بإمبابة فقاموا بسرقة ملابسهم بأكملها، فخطط محمد على لإرسالهم فى حملات عسكرية فى بداية عهده لمحاربة المماليك الباقين وإرسالهم أيضا إلى أطراف الدولة المصرية وكان يرسل معهم بعض أبنائه حى لا يثير ريبتهم وكان من العسير ترحيلهم عن مصر التى أصبحوا فيها أمراء وأكابر بعد أن كانوا عبيدا فى بلادهم.

وقد شجع استتباب الأمن الأجانب الذين تبدل حالهم بعد أن كانوا يعيشون فى عزلة فى أحياء خاصة فتوافدوا على مصر بأعداد كبيرة بهدف التجارة وقد بلغ عدد الأجانب عام ١٨٣٧ ما يقرب من خمسة آلاف شخص وكان الطريق مفتوحا أمامهم للتجارة والشراء وكانوا بارعين فى استغلال الامتيازات التى خولتها لهم حقوقهم فى ولايات الإمبراطورية العثمانية ومن بينها مصر وقد شهد أحد الدبلوماسيين قائلا: «لم يكن فى الشرق ما هو أكثر اضطرابا وقلقا من مصر ولكن الآن لا يوجد بلد فى العالم يفوق مصر فى استقرار الأمن».

وقد واجه محمد على تحديدا أمنيا آخر واستطاع بذكائه ودهائه أن يؤلف من «عربان البادية» قوات حراسة بعد أن كانوا يقومون بالسطو على القوافل التجارية فأظهر لهم قوته وحاربهم فى البداية فلما تأكد من نيتهم للسلم وأيقنوا بدورهم أنهم أمام حاكم قوى اقترح عليهم أن يوجد لهم مصدرا ثابتا

للدخل عن طريق حراسة القوافل بدلا من سرقتها واستعان بعدد كبير منهم فى جيشه ثم فاوضهم على انتزاع جيادهم التى تشكل قوتهم الرئيسية وهكذا حول الخوف إلى أمن والسطو إلى حراسة، وفى عام ١٨٢٨ قام بتطبق نظام «بطاقات المرور» التى توضح محل الإقامة ويتم إبرازها عند مغادرة القرى وعند أبواب القاهرة الرئيسية وكان الهدف منها التخلص من بقايا الجنود والأرناؤوط والأتراك وبذلك أمكنه تطهير البلاد بصورة كبيرة من اللصوص وقطاع الطرق.

وقد اشتهر عن محمد على تسامحه فلم يتعصب لعقيدة أو جنس وفى عهده تم إلغاء كل القيود السيئة السمعة التى كانت تفرض على الإخوة المسيحيين.

وأذن لرؤساء الطوائف الدينية بإقامة القداس علنا وأذن لهم أيضا ببناء الأديرة ودق النواقيس وقد أنعم بالبكوية على كثير من المسيحيين وهذا ما كانت تتجاهله الدولة العثمانية وكانت تربطه صداقات حميمة مع كلوت بك وبرغوص يوسف وهو أرمنى وكان له منزلة كبيرة عنده، ولم يكن محمد على لينجح فى مسيرته التى كانت تستهدف «تحديث مصر» دون الاصطدام بحاجز الأعراف والعادات والتقاليد دون أن يؤلب الرأى العام الذى يبجل الخرافات ويعتقد بالشعوذة ويذعن للاعتقادات الباطلة وفى زمن لا يعترف إلا بالقوة البدنية ولا

يعبأ كثيرا بالفكر، فلم تكن الحقيقة قوة بل كان عليها أن تستميل القوة على حد تعبير الفيلسوف الألمانى نيتشه فكيف تمكن هذا العبقرى «أستاذ التوازنات» من المراهنة على قوة وذكاء الشعب المصرى ونجح فيما فشلت فيه تركيا فى عهد السلطان محمود الثانى حين أرادت تطوير البدا فاصطدمت بالرجعيين؟

لقد كانت الحملة الفرنسية هى شرارة البدء لشعاع التنوير الذى أعاد إضاءة أرض أقدم الحضارات وكان قدوم محمد على وتوليه الحكم بعد الحملة الفرنسية وما تركته من آثار علمية وصحوة فكرية يعد قدرا من أقداره السعيدة، حيث كان الجو مهيئا والتحديث مازال بكرا لم يعهده أحد من قبل.. فالطريق كان شائكا ولكنه اشتم عطر النصر فى نهايته، فكانت مسيرته مسيرة متفائلة لم تعرف الكلل أو الملل.

يقول محمد على(١٣): لقد قضيت الشطر الأكبر من حياتى وحيدا لا أجد من يؤازرنى غير «بوغوص بك» وأستطيع أن أقول إننى لم أعش إلا الخمس عشرة سنة الأخيرة، لو أتيح لى أن أكرس نفسى عشر سنوات لإصلاح مصر، إذا قدر لى أن أعيش هذه المدة فسوف أحدث فى البلاد تغييرا شاملا، لقد تمت على يدى بعض الأعمال لكنها لن تكون شيئا بالقياس بما سوف أقوم به.

لقد علمت ألوفا من الأفراد على نفقتى الخاصة وأرسلت بعضهم إلى أوروبا وقد بلغنى أن كثيرا من أبنائى الشبان تفوقوا على أقرانهم حتى فى المدارس الأوروبية وكنت أشك فى كفاءة أبنائى حتى إبراهيم باشا نفسه وكننى أدركت الآن أنه من الممكن أن أعتمد عليه وأثق فيه كل الثقة.

العلم نور

بدأت النهضة التعليمية الأوروبية الحديثة تشق طريقا موازيا للتعليم الدينى (الأزهرى) الذى ظل مستقلا بذاته بعيدا عن أية رقابة حكومية واكتفى محمد على بتركيز جهوده لنشر التعليم الحديث فبدأ مخالفا للقاعدة الاعتيادية التى تعنى بالبدء فى إنشاء المدارس الابتدائية وصولا إلى التعليم العالى ولكنه بدأ بالمدارس الخصوصية التى تحتاج إليها البلاد لإعداد الموظفين اللازمين للإدارات المدنية والوظائف الحكومية وإيفاد البعثات، وكان يهدف إلى تعليم طبقة محدودة حتى تقوم بدورها بنشر التعليم والثقافة للطبقة العريضة وتجاوز حاجز الزمان لينقل من أوروبا ما يعينه على اللحاق بها، فكان لاهثا طامحا لكى يتمرس أبناء البلاد فى شئون الحكم المحلى والإدارة وفى عام ١٨١٦ أنشأ مدرسة المهندسخانة بالقلعة وهى أول مدرسة عالية تم تأسيسها فى مصر فى عام ١٨٣٤ أنشأ المهندسخانة

فى بولاق وأسندت نظارتها إلى «على باشا مبارك» عام ١٨٤٩ ومن أشهر أساتذتها محمود باشا الفلكى، واقترح «كلوت بك» الفرنسى الأصل تأسيس مدرسة للطب فتم إنشاؤها أولا فى أبى زعبل ثم نقلت إلى قصر العينى عام ١٨٣٧ وألحق بها مدرسة للصيدلة وأخرى للولادة، ويرجع الفضل إلى كلوت بك فى استخدام تطعيم الجدرى.

وفى عام ١٨٣٦ اقترح رفاعة بك الطهطاوى إنشاء مدرسة الألسن لتعريب الكتب الأوروبية وترجمتها ونشر الثقافة الأوروبية وكانت الترجمة خطوة رئيسية نحو التحديث الذى كان ينشده محمد على ووقع الاختيار على سراى الألفى بك بالأزبكية (موقع فندق شبرد) وتولى نظارتها رفاعة بك الطهطاوى وهو من أعلام نهضة مصر الثقافية. فى أثناء وجوده فى باريس كإمام للبعثة تعلم اللغة الفرنسية ودرس آدابها وقام بترجمة اثنى عشرة رسالة من الفرنسية إلى العربية وبعد عودته من بعثته العلمية عهد إليه محمد على العمل فى كلية الطب مترجما ثم بمدرسة المدفعية، وألف كتابه الشهير «تخليص الأبريز فى تلخيص باريز». وتمت الاستعانة بالسوريين المقيمين فى مصر حتى يعود أصحاب البعثات من الخارج وقد واجه محمد على مشكلة أخرى فى المدارس التى استحدثها حيث كانت اللغة عائقا بين الطلاب والمعلمين الأجانب الذين لا يعرفون اللغتين العربية والتركية اللتين يعرفهما الطلاب، فكانت

الترجمة هى المخرج الوحيد وفى نفس الوقت كان محمد على شغوفا بالجلوس مع القناصل والتجار الأجانب فهو كثير السؤال ويهتم بكل ما هو جديد، وحين يرد إلى سمعه كتاب للمرة الأولى أو كتاب قديم شهير فى أوروبا ويحدثه عنه من يجالسه يطلب على الفور ترجمته حتى ينتفع الناس به على أن حركة الترجمة لم تتسع إلا بعد عودة المبعوثين من الخارج الذين كان ينتظرهم لتولى المهام الإدارية وتعليم الطلاب والقضاء على الأمية وفتح مجالات عمل جديدة لكنه كان يخشى أيضا أن يؤدى التوسع فى التعليم إلى تقليل فرص العمل أمام أبناء الشعب وقد صرح بذلك فى خطاب أرسله إلى ابنه إبراهيم باشا، لذلك لم يبدأ النهضة التعليمية فى نشر المدارس الابتدائية إلا بعد تأسيس المدارس الخصوصية التى أشرنا إليها - ثم عهد إلى كلوت بك بتنظيم المدارس وكانت المدارس الابتدائية تقدر فى عهده بـ٥٠مدرسة تبدأ الدراسة من سن الساعة إلى الثانية عشرة ويتلقى الطلاب الدراسة لمدة ثلاث سنوات.

أما (المدارس التجهيزية) وهى مدارس تمهيدية فيتم إعداد الطلاب فيها للدراسة فى المدارس الخصوصية فكانت مدة الدراسة فيها أربع سنوات وكانت اللغة العربية والتركية والفارسية هى اللغات السائدة فى هذه المدارس والتى كانت تعمل أيضا وفقا لنظام الثكنات العسكرية، حيث يصرف لكل

طالب راتب شهرى وقد أهتم محمد على بتعليم بعض السيدات فى أسرته وتولت «هوليداى الإنجليزية» هذه المهمة ولكن «حكيكيان بك» الذى كان يشغل منصب مدير المهندسخانة هو أول من لفت نظر محمد على إلى أهمية تعليم البنات.

وإذا تطرقنا إلى اللغات المعروفة فى مصر فى ذلك الوقت سنجد العربية والتركية فى المقام الأول فعلى سبيل المثال كانت جريدة «الوقائع المصرية» تكتب باللغة التركية فى جانبها الأيمن وكانت اللغة العربية تشغل الجانب الأيسر وحين جاء رفاعة الطهطاوى وتولى رئاسة تحريرها عكس هذا الوضع وكانت اللغة الأجنبية الأولى المنتشرة فى البلاد هى اللغة الإيطالية فلم يظهر اهتمام الإنجليز بنشر ثقافتها بعد.. وعلى الرغم من الروابط القوية بين محمد على وفرنسا إلا أن الإيطاليين كانوا أكثر عددا كما كان يميزهم من الأوروبيين إجادتهم للغة العربية ولم تكن لهم أطماع سياسية لذلك كان منطقيا أن يتم إرسال البعثات التعليمية الأولى إلى إيطاليا.. وفيما بعد انتشرت اللغة الفرنسية نتيجة لتوافد الفرنسيين وولعهم الدائم بمصر الفرعونية.. واستقرارهم بأعداد كبيرة ليشكلوا نواة الارستقراطية المصرية لعقود طويلة.. وفى عام ١٨٣٦ استقرت المسلة الفرعونية التى أهداها محمد على لصديقه «لويس فيليب» ملك فرنسا فى ميدان الكونكورد حيث تم تصنيع عوامة خاصة لنقلها دون اللجوء إلى تقطيعها فسارع لويس فيليب

وأهدى محمد على «ثرية ذهبية» تزن طنا .. ومازالت تزين سقف قصره بالقلعة إلى يومنا هذا .. وأخيرا انفجرت الأحجار ناطقة بأسرارها وعلومها وفنونها التى حجبتها بين طياتها لآلاف السنين حين نجح شامبليون الذى حصل على تصريح من محمد على بالتنقيب والبحث عن آثار مصر وتمكن من فك رموز حجر رشيد واكتشاف رموز اللغة الهيروغليفية فكانت ضربة ساحقة للصوص الآثار الذين يحملون مناصب دبلوماسية بدرجة قنصل أمثال «دورفيتى» قنصل فرنسا الذى ملأ متحف تورين بإيطاليا بالآثار التى هربها من مصر وقد عمل هذا الرجل على القضاء على مهمة شامبليون بشتى الطرق وكان الفشل حليفه.. ولا يفوتنا أن نذكر أن شامبليون قد نجح فى إقناع «شارل العاشر» ملك فرنسا بشراء مجموعة من الآثار التى عرضها «دورفيتى» والقنصل الإنجليزى «سولت» وبذلك تم تأسيس أول جناح لمصر الفرعونية فى متحف «اللوفر» كما أوصى شامبليون محمد على بأهمية المحافظة على كنوز مصر الفرعونية المتناثرة فى الصحراء.. وهى كنوز الإنسانية جمعاء.. واقترح عليه تنظيم الآثار لحفظها من تعديات الحفريات واللصوص ولم يكترث محمد على كثيرا بنصائحه.. وقد أشيع عنه أنه كان ينوى هدم الهرم الأكبر لاستخدام أحجاره فى بناء القناطر الخيرية.. ولكننا لا نملك دليلا ماديا حول صحة هذه الشائعة..!!

وحين نتحدث عن الصفحات المضيئة فى عهد محمد على فلابد من الإشادة بأنه كان أول حاكم فى الشرق.. يهتم بإرسال بعثات تعليمية إلى أوروبا فكانت البعثة الأولى إلى إيطاليا عام ١٨١٣ بهدف دراسة الفنون العسكرية وبناء السفن وفى عام ١٨٢٦ تم إرسال بعثة ثانية مؤلفة من أربعين طالبا وفى عام ١٨٢٨ تم إرسال عدد آخر ومن أشهر أعضائها مظهر باشا مهندس القناطر الخيرية وهو الذى قام بإنشاء فنار الإسكندرية ورفاعة الطهطاوى.. ولم يكتف محمد على بأوروبا ورنا ببصره إلى أمريكا فأرسل مبعوثا لكى يتعلم صناعة السكر ومبعوثا آخر إلى الأرجنتين لزيارة مناجم الذهب، بالإضافة لبعثة الطب العسكرية إلى فرنسا عام ١٨٤٤ وقد سميت «ببعثة الأنجال» حيث أنشأ محمد على مدرسة حربية فى باريس وكانت البعثة تحت إشراف وزير الحربية الفرنسى وضمت اثنين من أبناء محمد على واثنين من أحفاده، أبناء إبراهيم وهم إسماعيل باشا «الخديو فيما بعد» وشقيقه الأمير أحمد رفعت «الذى كان ولى عهد سعيد باشا وغرق فى حادث كفر الزيات».

وكان إجمالى عدد المبعوثين ما يقرب من ٣١٩طالبا، وفى عام ١٨٢٠ تم تأسيس المطبعة الأميرية فى بولاق وأول كتاب تمت طباعته هو القاموس العربى الإيطالى الذى أعده الأب روفائيل.

يقول محمد على: «لم أعمل فى مصر إلا ما فعله الإنجليز فى الهند، فلديهم جيش من الجنود الهنود، يقودهم ضباط من الإنجليز وأنا لدى جيش من المصريين على رأسه ضباط من الأتراك، والتركى أصلح للحرب والقيادة فهو يشعر أنه خلق ليحكم ويشعر العربى أيضا أن التركى أحق بالقيادة وقد صرفت اهتمامى إلى اجتذاب ضباط من الأتراك وكان من حسن طالعى أن السلطان غل يده فى المنح والمرتبات فهرع إلى الضباط بعد أن أغدقت عليهم المنح وأجزلت لهم العطاء، ولكنى أضع حاجزا يمنعهم من اقتناء الممتلكات أأو التمتع بأى نفوذ أو سلطان».

إننى مدين بجيشى لـ«سليمان بك» وببحريتى لمسيو «سيريزى» بل إننى مدين للفرنسيين بأكثر ما عملته فى مصر ولا يفوتنا أن نذكر الأهمية القصوى التى كان يمنحها للمقابلات الرسمية وغير الرسمية مع قناصل الدول الأوروبية.. الذين وقع معظمهم أسيرا لسحر وقوة شخصيته وغموضه، فقد كان لديه ولع شديد بخلق صورة ذهنية متميزة فى الصحافة الأوروبية «تلقى الضوء على انفرداه بتحديث مصر فى السلطنة العثمانية» حيث استشعر أهمية الرأى العام الأوروبى فى التأثير على قياداته.

حاول محمد على تأليف جيش قوى يعوضه عن الجنود غير النظاميين ولكن المشروع تأجل عدة مرات، حيث تذمر الجنود

عام ١٨١٥ وتآمروا عليه وبعد الحرب الوهابية استقدم عددا كبيرا من الضباط الفرنسيين وخاصة أن بعض الجنود الفرنسيين كانوا يبحثون عن فرص عمل جديدة خارج بلادهم، وقد استعان إبراهيم باشا بالضابط الفرنسى «فاسيير» أثناء حروبه مع الوهابيين وفى عام ١٨٢٠ تولى الكولونيل سيف المعروف بـ«سليمان باشا الفرنساوى» . وهو فرنسى المولد . قاتل فى حروب نابليون واشترك فى معركة الطرف الأغر وهو أيضا الجد الأكبر للملكة نازلى والدة فاروق تكوين الجيش النظامى المصرى وفقا لأحدث الأساليب الأوروبية وأنعم عليه محمد على بالباشوية عام ١٨٣٤ وكان مرتب كل باشا ٢١٦جنيها سنويا حتى عام ١٨٣٨ وقد احتفظ سليمان باشا بهذا المنصب فى عهد إبراهيم وعباس وسعيد باشا.

وفى عام ١٨٢٠ اختار محمد على أسوان لتكون مقرا للمدرسة الحربية الأولى بمصر حتى تكون بمنأى عن الاضطرابات والدسائس التى كانت تشهدها القاهرة فى أوائل عهده وكان تكوين الجيش النظامى يأتى فى مقدمة أولوياته ويعد من المعضلات التى واجهته أثناء حكمه على أن الخطوة الأولى كانت مثقلة بقيود الطاعة والنظام المطلقة والجنود المماليك لم يعهدوا كل ذلك وحاولوا أكثر من مرة أن يقتلوا سليمان باشا أثناء تدريبهم فى هذه المدرسة مثلما كانوا يفعلون ببكواتهم المماليك ولكنهم قدروا شجاعتهم وبطولته فتحولت

مشاعرهم نحوه فى اتجاه الإعجاب والتقدير واستغرق تعليمهم ثلاث سنوات، ثم ظهرت مشكلة أخرى كيف يتم اختيار الجنود؟ حيث كانت هناك مجموعة من العقبات التى كانت تحول بين تجنيد الأتراك والأرناؤوط فى البداية تجنبا لإثارة شكوك الباب العالى تجاه نواياه الاستقلالية والتوسعية ولم يشأ أيضا أن يفرض التجنيد الإجبارى على المصريين فى البداية خوفا من تمردهم حيث لم يعهده الشعب من قبل إضافة إلى أعبائهم الأخرى من الضرائب فرأى أنه من الحكمة أن يشرع فى فتح السودان حتى يتهيأ له تجنيد أهله فى الجيش المصرى وبالفعل أرسل ابنه إسماعيل باشا إلى السودان وصهره محمد الدفتردار وجمعا أكثر من عشرين ألف شخص تم تدريبهم على النظام الحديث وتخرجوا فى مدرسة أسوان ثم انتقلت هذه المدرسة من أسوان نظرا لحرارة الجو التى ساعدت على انتشار الأمراض.

وظلت الطبقة التركية مصدرا لجزء من المتاعب التى واجهت محمد على أثناء تجنيد المصريين لأنهم استنكروا بشدة دخول الفلاحين الجيش وهذا أمر كان قاصرا من وجهة نظرهم على (العثمانلى فقط) ولم يكن تجنيد الفلاحين أمرا ميسورا بالطبع، فارتباطهم بأرضهم وبالنيل من المسلمات التى لا تقبل النقاش.

وكل المناهل بعد النيل آسنة فى نظر الفلاح المصرى كما يقول شوقى إن انتزاع الفلاح وإرساله إلى مكان مجهول كان يشكل مأساة حقيقية فى حياتهم وعلى ذلك فقد كان الطريق مفروشا الأشواك ولم ترسخ فكرة الإيمان بأهمية إعداد جيش مصرى إلا بعد مرور فترة زمنية لجأ الأهالى خلالها لقطع أصابعهم وخلق أسنانهم خوفا ورهبة من التجنيد مما اضطره لفرض عقوبات شديدة على من يقومون بتشويه أجسادهم ويذكر أحد القناصل الأوروبيين أنه شاهد فى أسيوط «الآيا» كاملا مكونا من جنود مشوهين جسديا وحين استشرى هذا التشويه المتعمد بينهم قرر محمد على تجنيدهم أيضا حتى يكفوا عن هذا الأمر المشين.

ومن الإنصاف أن نذكر أن الدفعة الأولى التى تم تجنيدها هى التى قدمت القرابين ولم تستبق شيئا لأجيال لاحقة لم تشهد مرارة التجربة.. وألم التغيير الكلى!! فطريق محمد على فى تأسيس الجيش المصرى كان يظلله الكرباج والموت.

وقد تولى «لاظوغلى» أول نظارة لديوان الجهادية.

ومن أفضل ما كتب عن جيش محمد على كتاب خالد فهمى العميق «كل رجال الباشا».

ودارت العجلة سريعا واستتب الأمر وتدريجيا رسخت فكرة الإيمان بالعسكرية وتم تأسيس المدرسة الحربية للفرسان

بالجيزة ثم مدرسة المدفعية ومدرسة أركان الحرب بالخانكة وأسس محمد على أيضا مدرسة موسيقية عسكرية وأحضر لها مدرسين أوروبيين ولكن الألحان لم تكن مؤثرة فى نفوس الطلاب لأنها أوروبية النغمة!! ولكنها محاولات وإن لم يكتب لها النجاح فقد كانت من علامات الرصلاح فيما بعد.

وأخيرا عهد محمد على إلى أحد أصدقائه الفرنسيين بمهمة توفير عدد كاف من المدربين المصريين لجيشه.. ووقع الاختيار على الضباط الذين عملوا فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية لأنهم على دراية بأحوالها وبفضل معارفه الفرنسيين تمكن من إعادة إنشاء معمل البارود الذى أسسه الكيميائيون من عده الحملة الفرنسية، كما أسس ترسانة للأسلحة بالقلعة.

أما ملابس الجنود فكانت بسيطة مكونة من الطربوش الأحمر وصديرى وبنطلون واسع كالسروال وفيما يتعلق بالشارات والمرتبات فقد كان «الجاويش الذى يحمل شريطين على الصدر» يحصل على ٣٠قرشا أجر شهرى، واليوزباشى يتقاضى خمسة جنيهات فى الشهر والقائمقام ثلاثين جنيها شهريا.

وقد بلغ عدد جنود الجيش البرى عام ١٨٣٩ (٢٣٥ .٨٨٠) جنديا بعد أن كان مكونا من عشرين ألف من الجنود غير النظاميين فى أوائل عهده وقد شهد سليمان باشا الفرنساوى

بكفاءة الجندى المصرى قائلا: «المصريون خير من رأيتهم من جنود فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد مع انشراح النفس والقدرة على الاحتمال وبقليل من الخبز يسيرون طول النهار».

وبنفس المنطق الذى يتجاوز صعوبات الواقع ويحاول أن يغزل ولو برجل حمار. تم البدء فى بناء الأسطول المصرى على ثلاث مراحل ففى المرحلة الأولى تم إعداد السفن اللازمة لمحاربة الوهابيين وكان ذلك فى «بولاق»، حيث كان يتم تجميع وتركيب الأخشاب الواردة من الخارج بمعاونة الخبراء الأوروبيين ويؤرخ للأسطول المصرى الأول انطلاقه فى سبتمبر ١٨١١ من ميناء السويس متوجها إلى البحر الأحمر، وتم أيضا تصنيع أسطول تجارى لنقل صادرات مصر وعلى رأسها القمح إلى أوروبا وأرسل محمد على بعثة إلى انجلترا من التلاميذ الذين تبلغ أعمارهم الثالثة عشرة لتعلم فنون البحرية وإلحاقهم بالأسطول وخلال عامى ١٨٢٧ ـ ١٨٤٨ تم إنشاء أول ترسانة مصرية بالإسكندرية بإشراف المهندس الفرنسى سيزيرى وتم أيضا إنشاء مدرسة لتخريج الضباط اللازمين للبحرية، وإذا كانت القاعدة العسكرية المثالية تقتضى شرطا أساسيا للحكم على كفاءتها وهو أن هذه القوة العسكرية لا قيمة لها ما لم تتحرك فى الوقت المناسب لصد العدوان أو شن هجوم بدلا من الدفاع.. فقد كان محمد على يسكنه حلم عسكرى متأجج طالما

داعب خياله، بالإضافة لنزعته التوسعية التى لا تخلو من أطماع كان لديه اعتقاد بوجود علاقة طردية بين اتساع أملاكه وسلامة بلاده من الأخطار الخارجية.

يقول محمد على: «التدريب والعمل هما كل شىء عندى أثناء الثورة السورية نصحنى البعض بقراءة التاريخ حتى أتعلم فن الحكم ولكن تقدمى فى السن لا يسمح بدراسة التاريخ وقد كتب إلىّ ابنى يطلب تعليمات، لكى يواجه المصاعب فذهبت بنفسى إلى يافا وقضيت على الثورة فى الحال وهكذا تكون الطريقة المثالية فى الحكم».

يقال: «الحرب موضوع مهم للمؤرخين ولكن السلام روايته تبعث على الملل» ويبدو أن هذا كان رأى محمد على أيضا فقد خاضت مصر فى عهده حروبا طاحنة تفاوتت فى درجة ضراوتها وقسوتها.

وفى كل الأحوال كانت هناك ذريعة أو مبرر فى خوض كل حرب (أوامر الباب العالى - أو درء الخطر عن مصر - أو إظهار قوتها تمهيدا لاستقلالها عن الأستانة).

فالحرب الوهابية: وهى أولى الحروب التى خاضها فى الجزيرة العربية كانت بتكليف من السلطان العثمانى حيث تعطلت شعائر الحج نتيجة لمغالاة الوهابيين الذين كانوا

يتشددون ويغالون فى تنفيذ تعاليم المذهب الحنبلى واعتبار كل من لم يتبع تعاليمهم مشركا بالله.

وكانت الحرب الوهابية أيضا فرصة ذهبية لكى يتخلص محمد على من الأرناؤوط الدلاة ويتمكن من تأسيس الجيش المصرى الحديث وفى ذلك الوقت كان يداعب خياله شأن كل الحكام، وجود وسيلة تمكنه من تثبيت ولايته وتعزيزها لكى يستمر ينعم إلى ما لا نهاية، إنها السلطة بكل إغرائها ومفاتنها وجبروتها وسطوتها.

فإذا تطرقنا لهذه الحرب تحديدا فقد كانت حربا ذات طبيعة خاصة فالجزيرة العربية فى ذلك الوقت كانت فضاء صحراويا هائلا.. ووحشة الصحراء ووحدتها لا تقل قسوة واغترابا عن تلاطم أمواج البحر وقد احتمل الجيش الذى كان يقوده «ابنه طوسون» متاعب كثيرة ولكن طوسون توفى وأكمل أخوه إبراهيم المسيرة وقيادة الحرب ونجح فى فتح «مكة والمدينة والطائف وبريدة والدرعية» وقام محمد على بزيارة للأراضى المقدسة وبأداء فريضة الحج ونجح بدهائه فى شراء ذمم البدو واستتب الأمن فى الجزيرة العربية وبسطت مصر نفوذها عليها بعد حرب استمرت قرابة ثمانى سنوات وسطع نجم محمد على فى سماء السلطنة العثمانية وكوفئ على هذا النصر المبين بإسناد مشيخة الحرم المكى وولاية جدة إلى ابنه إبراهيم.

فتح السودان

«إذا تركنا السودان فإن السودان لا يتركنا» عبارة شهيرة لشريف باشا (أبو الدستور المصرى) جد الملكة نازلى إنها وحدة وادى النيل التى فرضتها الطبيعة المشتركة والنبع الواحد، كان محمد على يعتقد أن الاستقلال لن يتحقق إلا من خلال سيطرة مصر على مجرى النيل فى منابعه.. ومن هنا.. تعددت أسباب فتح السودان أولها أطماعه فى مساحة السودان.

وثانيها يرجع إلى خطته فى تجنيد أبناء السودان كما أشرنا بالإضافة إلى مصادره الطبيعية وبالفعل نجحت قواته بقيادة ابنه إسماعيل وصهره محمد الدفتردار فى فتح السودان ولم تكن فاتورة الحساب هينة ففى هذه الحرب فقد ابنه إسماعيل الذى مات بالحيلة والدهاء مثلما فعل هو مع المماليك، حيث أعد ملك «السودان» شندى احتفالا فى قصره ودعا إليه الأمير إسماعيل وتظاهر بامتثاله للطاعة لدفع الجزية المالية المقررة عليه، فجمع حوله عددا كبيرا من الجنود الأرناؤوط الذين تحالف معهم ونجح فى إثارة الأهالى على الجنود المصريين وبدأ الحفل واشتعلت النيران فى القش الذى كان يحيط بالقصر ولم يتمكن إسماعيل من الفرار واختنق هو ورفاقه بعد أن فتح كردفان ودنقلة وأم درمان، واتخذ حكمدار السودان الموفد من قبل محمد على (خورشيد باشا) الخرطوم مقرا

للحكم عام ١٨٣٠ ويرجع الفضل فى تأسيس هذه المدينة إلى هذه الحملة العسكرية حيث كانت مدينة صغيرة لا أهمية لها وتم اختيار هذا الموقع بين النيلين الأزرق والأبيض، ولما كان ملتقى النيلين يشبه الخرطوم فقد سميت بذلك الاسم، وشأن كل البلاد التى دخلتها قوات محمد على فقد استتب الأمن فى السودان وألغى محمد على «الرق» رسميا عام ١٨٣٨ بعد فتح السودان التى أدخل بها زراعات جديدة، وهو أول من شجع أفراد البعثات الجغرافية الاستكشافية لارتياد المناطق النائية فى السودان وتتبع مجرى النيل على أن السودان التى سافر إليها محمد على لتفقد أحوالها كانت هى البلد الوحيد التى لها ما يبررها من خوض غمار الحرب ومخاطرها وخسائرها من كافة الجوانب السياسية والاقتصادية والجغرافية وذلك ما لم يتوافر فى فتوحاته الأخرى كما سنرى.

حرب اليونان

لم يزل محمد على واليا يستطيع السلطان عزله بفرمان وعلى الرغم من كونه الرجل الثانى، بعد السلطان فى مصر، فقد كان يرى أوضح من الرجل الأول، فدائما يوفق فى خططه وأهدافه ويرنو ببصره إلى القمر فإذا لم يدركه فإنه يكتفى بثمار الشجر.. هكذا كان المبدأ السياسى الحربى فكل حرب أو

فتح جديد هو تعضيد لمركزه أو تثبيت لولايته ولكن لماذا تحارب مصر فى اليونان وما هى أهدافها؟

اشتعلت الثورة الأهلية فى اليونان من بين شباب الجمعيات الثورية وكانت الثورة تحديدا فى شمال البلقان ذات طابع دينى فاشتعلت نارها فى البلدان الأوروبية التى هبت لتحرير اليونان وهى جزء من أملاك السلطنة العثمانية آنذاك ويحكمها ولاة يتم تعيينهم بواسطة الباب العالى، وانبرى كبار أدباء أوروبا أمثال فيكتور هوجو وشاتو بريان بأقلامهم يدعمون الثورة الأوروبية من التعسف العثمانى ويطالبون باستقلالها عن السلطنة.

فصدرت أوامر «السلطان محمود» إلى محمد على بسرعة إرسال قوات عسكرية لإخماد هذه الثورة واحتواء الموقف واشتركت تركيا أيضا ـ التى أفزعتها هذه المحاولة الانفصالية ـ فى إطفاء جذوتها قبل انتشارها فى بقية أجزاء السلطنة.

والتقى الأسطولان التركى والمصرى على شاطئ الأناضول وتقدم الأسطول المصرى الذى لم يكن مكتملا آنذاك ونجح فى هزيمة اليونانيين فى حصار مدينة نافارين فى أول حرب يخوضها الجيش المصرى فى أوروبا التى اجتمعت دولها الكبرى (انجلترا وفرنسا وروسيا) وتم عقد معاهدة «لندرة» التى تقرر فيها منح اليونان استقلالا داخلية مع الاحتفاظ بالسيادة

التركية عليها، ونجح محمد على فى جزيرة «كريت» لولايته ولم يغنم من هذه الحرب فى شبه جزيرة المورة، سوى إعلاء اسمه وتأكيد قوته وقوة مصر أقوى ولايات السلطنة العثمانية والتى بدأ يعد العد التنازلى ويتأهب للانفصال عنها.

الحرب فى سوريا

«الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع» وموقع مصر الجغرافى كان سببا رئيسيا فى تعديل المثل الشعبى الشائع ليصبح ما يجىء من الشرق ما يسر القلب، فقد غزا قمبيز والإسكندر الأكبر والأيوبيون والأتراك حتى الفتح الإسلامى مصر من الباب الشرقى لحدودها عن طريق شبه جزيرة سيناء وكان كلوت بك يقول دائما إن حدود مصر ليست فى السويس ولكنها فى طوروس (بسوريا) أما محمد على فمازال ظمآنا لم يشبع بعد من ماء المالح (السلطة) فرأى أنه من الحكمة أن يصيب عدة عصافير فحجر واحد أولها ضم سوريا تعويضا له على خسائره فى حرب اليونان التى تحطم فيها أسطوله وهى فرصة ذهبية لاستغلال موارد بلاد الشام التى يتوافر فيها الخشب والفحم والنحاس وهى مواد أساسية لسياسته التصنيعية التى استحدثها وضم سوريا كان يعنى أيضا إضافة لرصيده العسكرى وإطالة لقامته أمام عمالقة أوروبا فمن تتسع أملاكه على هذا النحو لم يعد قزما ولكنه طويل القامة مهاب بين

الأقـوياء فلمـاذا لا يسـتـقل بذاته وقـد فـات قـدراته كل حـدود السيطرة التيس حاول أن يفرضها الباب العالى على سياسته التوسعية بعد أن تجسدت معالم الدولة المصرية الكبيرة فقد نجح فى ضم سوريا وكانت البداية قاعدة ذهبية نادرا ما تخفق وهى «عدو عدوى صديقى» والعدو كان الأمير «بشير الشهابى» أمير لبنان الذى عزله السلطان العثمانى «عدو محمد على» فقرر أن يستعطف السلطان ويتوسط لديه لكى يعيد الأمير الشهابى مرة أخرى لإمارة لبنان ونجح مخططه بصورة مبدئية وفى الحال تحالف مع بشر الشهابى الذى ظل حافظا لعهده مع محمد على وفى ١٨٣١ انطلق الأسطول البحرى بقيادة «عثمان نورالدين» لفتح الشام ولكن وباء «الكوليرا» . التى مرض بها محمد على وشفى منها بقدرة الشافى وبنيته القوية . تمكنت من القضاء على خمسة آلاف جندى فتوقف الأسطول ولم يتحرك إلا بعد تجاوز هذه الأزمة بقيادة إبراهيم باشا يكن (من أقاربه) وسليمان باشا الفرنساوى وعباس حلمى الأول «حفيده» ونجحت هذه الحملة فى احتلال غزة ويافا وحيفا .. وصور وبيروت وطرابلس والقدس ومن استعصت على نابليون وضرب بها المثل فى صعوبة اختراقها .. «إنت حتفتح عكا» نعم لقد نجح إبراهيم باشا فى فتح عكا واستفاد من أخطاء نابليون فدانت له بلاد الشام بسهولها وجبالها وخيراتها لتعلو مكانة مصر وتزداد قوة ومهابة بعد أن أصبحت تضم «السودان وجزيرة

العرب وجزيرة كريت وبلاد الشام» فهذا كيان امبراطورى عربى إسلامى، ويكفى أن يكون الامبراطور، هو حامى حمى الحرمين الشريين والمسجد الأقصى لكى ينتزع من السلطان العثمانى الهيمنة الدينية التى كانت بمثابة العمود الفقرى لمقومات هذه السلطنة العثمانية الإسلامية، فماذا فعل السلطان حيال هذا الاجتياح العلوى؟ وهل اضطر لاستخدام القوة العسكرية ضد طموحات محمد على الإمبراطورية؟ كانت معركة «حمص» ١٨٣٢ بين الجيشين التركى والمصرى هى إكليل النصر الذى توج كل فتوحات (الباشا) حيث نجح الجيش المصرى من هزيمة الأتراك فى أول معركة تنتصر فيها مصر على تركيا منذ هزيمتها فى معركة الريدانية التى انتصر فيها السلطان سليم الأول.. وأصبحت بمقتضاها مصر ولاية تابعة للسلطنة العثمانية.

ولم يكتف محمد على بذلك ولكنه اقترب من عرين الأسد المستأنس وزحف بجيوشه إلى الأناضول فاحتل ولاية «أدنة» التركية وانتصر فى «قونيه».. وظهرت أنوار البسفور خافتة بعد أن أصبح الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا على مسيرة ستة أيام منها فقط واحتل المصريون أيضا «كوتاهية» وصار قاب قوسين من الآستانة وهنا انتفضت أوروبا أمام هذا الغازى المتمرد وتم التوصل إلى عقد «اتفاق كوتاهية» ١٨٣٣ وبمقتضاه عهد إلى محمد على بإقليم «أدنة» التركى وهو جزء من

الأناضول يشتهر بوفرة مناجمه وأخشابه وتم تجديد ولاية إبراهيم باشا على مدينة جدة، بالإضافة إلى مشيخة الحرم وإقرار ضمه لسوريا وجزيرة كريت مقابل شرط أساسى وهو رحيل الجيش المصرى عن باقى بلاد الأناضول.

واستمر الصراع كامناً ست سنوات واشتعل مرة أخرى عام ١٨٣٩ حين هزمت تركيا فى معركة «نصيبين» غرب نهر الفرات وبوفاة السلطان محمود تتطور الأمور لصالح محمد على ويتولى السلطان عبدالمجيد البالغ من العمر (سبعة عشر عاما) مقاليد الحكم فكان هدفا لبضع الخونة نظرا لحداثة سنه ونتيجة للضغائن الكامنة بين قائد الأسطول الذى تم الاستغناء عن خدماته بعد وفاة السلطان محمود قرر الانتقام من القيادة عن طريق الفرار بالأسطول والتوجه به إلى الإسكندرية وتسليمه لمحمد على على غريم «خسرو باشا» وعدوه اللدود وكان هذا الأخير هو الذى تقرر أن يتولى قيادة الأسطول.

وبالفعل أصبح محمد على يمتلك أسطول تركيا وبذلك أصبحت مصر أقوى دولة بحرية فى البحر المتوسط وانقلبت الموازين الاستراتيجية فى المنطقة وفى الحال اجتمعت الدول الأوروبية الكبرى (بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا وفرنسا) واقترحت فرنسا (صديقته الودود) احتفاظه وورثته من بعده

بحكم مصر والشام وامتعضت انجلترا وأظهرت رفضها القاطع لكيان مصر الإمبراطورى وتزعمت تفكيكه وبالفعل تم الاتفاق مبدئيا على أن يرد محمد على الأسطول التركى إلى مياه الدردنيل.

وتم الاتفاق بين الدول العظمى على ضرورة التوصل إلى حل جذرى يضع حدا لتوسعات محمد على ومن ثم ينهى خلافاته مع الباب العالى وطرح معاهدة لندرة للتسوية ١٨٤٠ ولكن محمد على رفضها واعتزم المقاومة وحشل الجيوش حتى يحتفظ بالبلدان التى فتحها وخاصة جزيرة العرب والحجاز التى احتلها ما يقرب من عشرين عاما وكان حريصا على احتفاظه بلقب حامى الحرمين ولكنه أخلاها عام ١٨٤٠.

من جهة أخرى وعدته فرنسا بمساعدته ولكن حظه خانه هذه المرة وسقطت بلدان الشام سريعا الواحدة تلو الأخرى مثل قطع الدومينو نتيجة لثورة الأهالى ومقاومتهم للحكم المصرى بالإضافة لتحريض بريطانيا على هذه الثورة وإشعالها.. فوجد محمد على أنه لا طاقة له بمحاربة الحلفاء مجتمعين فالنتيجة لن تكون فى صالحه بعد أن تخلت فرنسا عنه أيضا إرضاء لبقية الحلفاء الذين تم الاتفاق بينهم وبين الباب العالى على إصدار فرمانين فى عام ١٨٤١ حيث تم الاعتراف بمصر ومكانتها دوليا واستقلال الباشوية عن تركيا وإقرار حق الوراثة

لمحمد على وأسرته من بعده فى مصر على أن تكون الكلمة للباب العالى فى اختيار من يتقلد الولاية من أبنائه الذكور ورفض الفرمان الثانى الخاص بالسودان تقليد محمد على ولاية مقاطعات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها ولكن الدول الأوروبية الكبرى تدخلت مرة ثانية لتعديل بعض الشروط فى فرمان ولاية محمد على ولكن التعديل كان فى صالحه، حيث جعل الولاية من حق الأكبر من أولاده وأحفاده الذكور وحدد قيمة الجزية السنوية، ولكنه قيد عدد الجيش بما لا يتجاوز ١٨ألف جندى وأصبح من حق الوالى (محمد على) منح الرتب العسكرية حتى رتبة «أميرالاى» ولكنه منع من بناء السفن الحربية إلا بإذن من السلطان ولم يكن هناك ما يلزم مصر بتنفيذ تلك القيود فى هذه الفرمانات بينها وبين تركيا خاصة فيما يتعلق بعدد الجيش ولكن هذه التسوية وضعت مصر تحت الوصاية الأوروبية التى كانت تمتلك وحدها تعديل بنودها بالاتفاق مع الباب العالى وظلت خلالها ولاية تابعة للسطنة العثمانية اسميا كما سنرى فيما بعد ولكن تظل معاهدة لندرة عام ١٨٤٠ هى الوثيقة الرسمية التى اعترفت الدول الأوروبية بمقتضاها بمكانة مصر الدولية وأخيرا أسدل الستار على الحروب المتواصلة التى مكنت محمد على من الاستقلال الذى لم يكن من اليسير منحه لدولة ضعيفة فكما يقول نيتشه

«لا شىء يتحقق فى هذه الحياة ذو قيمة إلا بالقوة» وذلك منطق القوة العسكرية دائما.

وعلى الرغم من أنها كانت حروبا توسعية لكنها كانت تؤدى فى المقام الأول مهاما دفاعية وتوسع مناطق النفوذ الفاصلة بين محمد على والأستانة فاستقلاله كان أمرا حتميا وهو الطموح - المقاتل - العنيد - المستبد - المستنير - المصلح - المحب، فقد أحب محمد على مصر وليس عدلا ألا نجزم بغير ذلك على الرغم من كل المساوئ والسلبيات التى شهدها عهده، ولكن يكفينا أنه كان محبا أراد أن يتجاوز واقعة ورنا ببصره باتجاه الغرب ناهلا كل ما من شأنه أن يسهم فى الانتقال بمصر من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، ولم يعهد الشرق من هو فى طموح محمد على وقوته آنذاك ويشهد بذلك أديب فرنسا العظيم «فيكتور هوجو» بقوله: «آسيا ليست مجردة من الرجال علعظماء مثلما نعتقد.. فهى التى أنجبت العملاق الوحيد الذى يمكن أن يمكن مقارنته ببونابرت.. إنه محمد على باشا الذى يمكن مقارنته ببونابرت مثما نقارن النمر بالأسد»!! ولكن المصاعب والكوارث لم تتخل عنه أيضا ولاحقته على الرغم من طالعه السعيد قضى الطاعون على الآلاف من أفراد الشعب وانتشرت الأمراض والأوبئة مثل الرمد والجدرى والكوليرا لذلك لجأت لتأسيس الحجر الصحى واستنفذت الحروب العديدة والطويلة التى خاضها الكثير من موارد البلاد البشرية والمالية

واضطر للاستعانة أيضا بنظام الجاسوسية وعهد إلى نائبه «لاظوغلى» بتتبع أحوال الأمن العام حتى لا يأخذ على غرّة وكان يعرف عنه أيضا ولعه بمعرفة أفكار الشعب واتجاهاته وميوله فقد ظل شهر العسل المصطنع بينه وبين الباب العالى، عرضة للاشتعال فى أى حين.

واستمرت خطة إصلاحه التى تقلصت نسبيا بعد صدور فرمان ١٨٤٠ حيث اضطر لتخفيض عدد قوات الجيش وذلك أمر منطقى لانتهاء الغرض من حروبه التوسعية والاستقلالية إذعانا لشروط الحلفاء لكى يأمن شرهم وفى عام ١٨٤٦ بدأ يخطط شوارع القاهرة على الطراز الأوروبى فى خطوط واسعة مستقيمة وبدأ ترميم المنازل وإطلاق الأسماء على الشوارع الرئيسية وقد ذكر الجبرتى أن شوارع القاهرة كانت تعانى من الضجة والازدحام، ففى عام ١٨١٤ عندما تزوجت ابنة محمد على كانت توجد صعوبة شديد فى موكب زفافها الذى سار فى شوارع القاهرة، فتم توسيع بعضها خصيصا لهذه المناسبة وتم إطلاق الأسماء على الشوارع الخمسين التى تم تخطيطها للمرة الأولى فى عهده وأضيئت بضى القناديل.

أما وسائل الترفيه والتسلية فكانت تنحصر فى مشاهدة حيل الحواة والقرداتية ولاعبى الثعابين والاستمتاع بالأراجوز والاستماع إلى القصص الشعبية من القصاصين وكانت هناك

بعض الفرق التمثيلية والموسيقية الجوالة واعتصم الناس بالأمثال الشعبية كوسيلة للاحتجاج والاعتراض غير المعلن وانتشرت المقاهى الشعبية فى القاهرة وبلغ عددها ما يقرب من الألف مقهى، بالإضافة للحمامات العامة وكانت تعتبر من وسائل الترفيه أيضا خاصة عند النساء والأثرياء الذين كانوا يمتلكون بيوتا بها حمامات خاصة ولم تتعد الاحتفالات إلا المناسبات الدينية وموالد أولياء الله الصالحين باستثناء الاحتفال بوفاء النيل وشم النسيم.. وعلى رأس كل هذ الاحتفالات كان الاحتفال بموكب المحمل الذى يحتفل فيه بإرسال كسوة الكعبة الشريفة على ظهور الجمال متجهة إلى الأراضى المقدسة من أبهج المناسبات التى يتبعها موكب خروج بعض فرق الدراويش والفرق الموسيقية ويتبعها قافلة من الجمال ويرأسها أمير الحج وبعثة الحج الذى يتم تعيينه سنويا.

ومن العجيب أن الجبرتى كان يعانى أيضا من الفوضى والزحام مثلنا فى شوارع القاهرة وعلى حد تعبيره «فالإنسان يقاسى الأهوال إذا مر بالشارع من كثرة الازدحام ومرور الخيالة وحمير الأوسية والجمال التى تحمل الأتربة والأنقاض والأحجار لعمائر الدولة.. حتى الزحمة فى داخل العطف الضيقة» أما الطرق فهى غير مرصوفة يبلغ اتساعها ما بين خمسة وعشرة أقدام وكان شائعا أن يخطو الخادم مسرعا أمام

سـيـده الذى يجلس على حـمـار ذو بـردعـة مـريحـة.. وتروى الرحـالة الإنجليـزية صـوفـيـا بولين بول «شـقـيقـة إدوارد لين» أن الحمير كانت تتمتع بحظوة وشهرة فى اجتياز عقبات الطريق والسير بخطى أسرع وأسلس من الخيل.

وتذكـر هذه الرحـالة أيضـا أن بعض الشـوارع كـانت لا تسـمح بمرور مـواكب الخيـالة.. أمـا الدروب فكانت لهـا بوابتـان يغلقـان ليلا وفى عـام ١٨٤٧ أصـدر مـحـمـد على أوامـره رسـمـيـا بتـعـداد سكان مصر للمرة الأولى رسميا وقدره بـ٤٤٠, ٤٧٦, ٤نسمة.

حريم الوالى

ولكن مـاذا عن نظام الحرُيم العـالى؟ يقـول عبـاس العقـاد: «من السهل أن تجمع ألف رجل فى مكان واحد ولكن من الصعب أن تجـمع امـرأتين فى بيت واحـد» ولكن أزرق العـينين وقـاهر المماليك والوهابين والمنتصر فى المورة والأناضول وفـاتح عكا شـمـالا والسـودان جنوبا لن يسـتـعـصى عليـه بالطبع أن يحظى بكلمـة «نعم» من قصـر الحـريم بالقلعة أو فى قصـر شـبـرا اللاتى جمعهن من مـختلف الأجناس والألوان يحـرسـهن عدد كبـيـر من العبيد والأغاوات.

وقـد انفـردت الرحـالة صـوفـيـا لين بـزيارة حـريم البـاشـا فى القلعة وقد شاهدت عددا لا يحصى من النساء الجميلات جدا

والفتيات الحسناوات معظمهن تركيات وشركسيات واستدعى انتباهها هذا الكم الهائل من الماس واللؤلؤ الطبيعى والزمرد الذى كان يرصع ملابس حريم الوالى ووصفت بعض ثيابهن بأنها عرض حى لرواية ألف ليلة وليلة وحظيت صوفيا لين أيضا بحضور حفل زفاف زينب هانم - صغرى بنات محمد على - على كامل بك ياور وسكرتير محمد على الخاص وقدرت هدايا الباشا لابنته فى هذه الليلية ما يقرب من مائتين ألف جنيه عام (١٨٤٥).

وبالرغم من الحياة الصاخبة والخطط الناجحة والانتصارات الساحقة والفرمانات المؤكدة لتثبيت وتأكيد وراثة عرشه، فقد كان يردد دائما أنه «قضى الشطر الأكبر من حياته وحيدا لا أحد يؤازره غير بوغوص بك».

ويضيف فى أسى وحزن: لقد أدركنى الكبر فلا أستطيع أن أنتظر كما يستطيع ذلك من هم أصغر منى ولهذا يجب الإسراع فى تنفيذ كل ما أريد.

وفى عام ١٨٤٦ كان يتمنى أن يشاهد أوروبا وباريس بصفة خاصة، حيث كانت تربطه صداقة متينة بالملك لويس فيليب ولكنه لم يذهب لمسافة أبعد من رودس وقبرص وفى عام ١٨٤٨ اشتد عليه المرض (قيل إنه أصيب بالجنون) فاعتزل الحكم وعهد إلى حفيده عباس باشا بحكومة القاهرة وابنه سعيد باشا



بحكومة الإسكندرية وتولى إبراهيم باشا الحكم فى يونيو ١٨٤٨ توفى ٢أغسطس عام ١٨٤٩ عن عمر يناهر ثمانين عاما حافلة بالأعمال والبطولات والتحديات والانتصارات والهزائم والأحلام والأوهام والخداع واستحق أن يحمل عن جدارة لقب «مؤسس مصر الحديثة».



إبراهيم باشا

إبراهيم باشا

ولد إبراهيم باشا أكبر أنجال محمد على وساعده الأيمن فى قولة عام ١٧٨٩ وجاء إلى مصر مع أبيه وأخيه طوسون عام ١٨٠٥، فى البدء عهد إليه محمد على ببعض المهام الإدارية والحربية، وحين اشتد عوده لقنه درسا هاما لا غنى عنه لمن أراد أن يحكم «تعلم الطاعة أولا ثم احكم فإذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع» وبالفعل كان ابنا مطيعا لأوامر أبيه شأن أى قائد عسكرى ناجح واستطاع محمد على أن يحقق طموحاته نتيجة للارتباط المتين بينه وبين إبراهيم فى تأسيس دولة قوية، فهو مؤسس الإمبراطورية الكبرى ولكن إبراهيم باشا كان يمتلك أيضا المواهب السياسية والإدارية والعسكرية ما يهيىء له المحافظة على كيان هذه الدولة وبقائها.

ويمكننا أن نحصر جوهر الخلاف بينهما فى أسلوب الحكم فقد كان محمد على أشبه ما يكون بالديكتاتور المصلح يؤيد فكرة الحكم المطلق ويدعمها بينما تأثر إبراهيم بالديمقراطية وسيطرعليه حلم تحويل الإمبراطورية التى أسسها أبوه إلى دولة مصرية عربية كبرى.

لم يتجاوز إبراهيم الثانية والعشرين عاما حين قضى أبوه على المماليك فى مذبحة القلعة، أما أول مناصبه الرسمية فهو منصب «الدفتردارية» وهى تعادل منصب وزير المالية حاليا ثم تدرج فى مهامه السياسية فانتقل إلى الصعيد حاكما على هذا الإقليم العصى آنذاك.

ظلت كفاءته الحربية كامنة إلى أن تجلت فى الحرب الوهابية، التى استعان فيها لأول مرة فى الشرق ببعض الخبراء الأوروبيين لكى يكتسب خبرات وفنون قتالية جديدة وساهم فى فتح السودان وتولى قيادة الجيش المصرى فى اليونان.. كما حارب فى المورة أيضا والتى أشرنا إليها فى عهد محمد على.

وفى عام ١٨٣١ نجح إبراهيم فى فتح بلاد الشام واستمر الحكم المصرى فى سوريا ولبنان عشر سنوات، وعلى الرغم من أنهما كانتا خاضعتين أيضا للسلطنة العثمانية لكن الأتراك لم يتركوا أثرا كبيرا فيهما، بينما نجدهم يؤرخون لعهد إبراهيم

فى أحاديثهم حتى عقود قريبة ويتخذون من دخول إبراهيم للشام قاعدة لتواريخهم.

وإليه نسبت البنادق الطويلة التى كان يستخدمها جنوده وانتشرت فى الشام باسم البنادق «الإبراهيمية».

ويقول د. حبيب جاماتى: «إن أهل الشام إلى يومنا هذا يقولون فلان عنده مصارى كثير إشارة إلى النقود المصرية فى عهد إبراهيم باشا».

ذلك العهد الذى أشار إليه معظم المؤرخين بأنه أفضل ما رأت الشام منذ ثلاثة قرون. أما لبنان فقد كانت ولاية عثمانية تتمتع باستقلال ذاتى كبير يميزها عن غيرها من ولايات السلطنة، وكقاعدة عامة فإن من يريد كل شىء فإنه لا يحصل على شىء!! وهذا ما حدث فى الشام حين فرض عليهم محمد على الضرائب وسعى لتجنيدهم ونزع أسلحتهم.. ثم احتكر تجارتهم الأساسية وهى الحرير فى ذلك الوقت.. فخسر إبراهيم باشا ولاية الشام.

وسقطت مدنها واحدة تلو الأخرى.. وقد صرح إبراهيم بحلمه فى تأسيس دولة عربية بعد أن نجح فى فتح عكا فقال: «أتمنى أن تصل فتوحاتى إلى المدى الذى يتكلم فيه الناس باللغة العربية» تلك اللغة التى تعلمها فى مصر ولو يتقنها أبوه.

تولى إبراهيم باشا حكم مصر فى عهد أبيه عام ١٨٤٨ حين اشتد عليه المرض.

انتهز الباب العالى فرصة ولايته وسعى إلى نزع الامتيازات التى حصلت عليها مصر بموجب اتفاقية ١٨٤٠ ـ ١٨٤١، فكان من أهم مهامه فى تلك الفترة الحرجة، تأكيد وتثبيت دعائم حكم محمد على وذريته وتحصين الشواطئ المصرية تحسبا لأى هجوم!! أما معظم أعماله فقد تمت بأثر رجعى فى عهد أبيه.

كان إبراهيم محبا للعلم والتجديد، بالإضافة إلى ذلك فقد كان ذكاؤه الحاد وشجاعته ونفاذ بصيرته هى أبرز ما يميز شخصيته ومن المفارقات أنه كان ينأى بنفسه عن المظاهر الجوفاء ويعرض عنها فقد عاش حياته جنديا مقاتلا متنقلا على صهوة جواده لأكير من ربع قرن لم يعرف خلالها الراحة إلا قليلا.. ولم يكن يعلم بالطبع أنه سيأتى من صلبه من يبسطها كل البسط فيقعد ملوما محسورا (إسماعيل).

انفرد إبراهيم بأشهر شائعة فى تاريخ الأسرة العلوية حيث طعن فى نسبه إلى محمد على (قيل إنه ابن زوجته التى كانت متزوجة من قبل).

واستمرت هذه الدعاوى كما سنرى منذ عهد إسماعيل إلى عهد الملك فؤاد ولم تتأكد صحتها.. والشبه كبير بين محمد على وإبراهيم يدحض هذه الشائعة وينسفها من الأساس.



أراد إبراهيم أن يفعل لابنه مثلما فعل والده فسافر إلى الأستانة للحصول على فرمان الوراثة لابنه الأكبر الأمير[١٤] «أحمد رفعت».. ونشرت «الوقائع المصرية» أنباء الإعداد لهذا الاحتفال.. ولكن وفاته المفاجئة ألغت كل التوقعات.

وعلى الرغم من مواهبه القيادية المتميزة، فقد كان أقصر حكام أسرة محمد على حيث تولى حكم مصر فى إبريل ١٨٤٨.

وتوفى فى نوفمبر من نفس العام عن عمر يناهز ٧٩عاما ليأتى من نسله نصف حكام أسرة محمد على تقريبًا، وكان دائمًا يردد أنا لست تركيًا، فقد جئت إلى مصر صبيًا ومنذ ذلك الحين مصرتنى شمسها وغيرت دمى وجعلته دمًا عربيًا.



عباس باشا الأول

عباس باشا الأول

أنشأ السكة الحديد وحىّ العباسية

«إذا لم تتقدم فإنك تتأخر، فإذا عدت للوراء فإنك تضمحل» وهذا ما فعله عباس بن طوسون بن محمد على . أعز الولد الذى تولى الحكم فى آخر أيام جده الحبيب لم يكن موهلا للحكم على الرغم من أنه كان وليا للعهد أثناء حكم عمه إبراهيم وحين وافته المنية (آل إليه حكم مصر لأنه كان أرشد ذكور العائلة سناً كما تنص بنود اتفاقية ١٨٤٠) أو (حكم القوى على الضعيف) كانت فترة ولايته لمصر انتكاسة حقيقية تبلورت فيها مأساة الحكم الوراثى، حيث اتسم عهده بالرجعية والتقهقر..

بدأ حياته عابسا متشددا فأقصاه إبراهيم باشا إلى الحجاز، أما نشأته فكانت عثمانية منغلقة.. حيث عانى طويلا من مرض الصرع.. فكان دائم الشك يؤمن إيمانا أكيدا بنظرية المؤامرة التى كان يتوقعها دائما من أفراد الأسرة العلوية، فازدهرت

الجاسوسية فى عهده ونظرا لشراسته فقد نجح فى القضاء على مشكلة قطاع الطرق التى كانت تؤرق التجار ونظرا لضيق أفقه فقد أهمل السودان إهمالا شديدا .. كما ساءت حالة التعليم بصورة مخيفة إلى درجة إغلاق بعض المدارس والتى انتقى منها عددا ضئيلا من التلاميذ (على الفرازة) وأنشأ لهم مدرسة «المفروزة» وهى مدرسة حربية.. وفى ظل هذا المناخ العباسى المتهجم سافر عدد كبير من علماء مصر إلى السودان وعلى رأسهم رفاعه بك الطهطاوى.. من جهة أخرى ساءت حالة الجيش واضمحلت البحرية وزاد الطين بلة حين أستقدم أكثر من ستة آلاف جندى من الأرناؤوط وعهد إلى بعضهم بحراسته الخاصة فزادت سطوتهم وأصبحوا يشكلون نسبة كبيرة فى تشكيل الجيش، الذى تم تمصيره فكانت خطوة إلى الوراء وفى عهده أيضا اشتركت مصر فى حرب القرم (بين تركيا وروسيا) ولاء للباب العالى وتدعيمًا للعهود السياسية التى كانت تربطه بالسلطان حيث كان يخشى انهيار السلطنة العثمانية وتقسيم دويلاتها بين الصقور الأوروبية وقد منحه السلطان فرمانا يخوله حق القصاص من الجناة دون استئذان الباب العالى تعزيزا لسلطته فى مصر.

فيما يتعلق بعلاقته بفرنسا الصديق الصدوق لجده محمد على باشا فلم تكن سيرته معها سيرة حب، حيث تقلص النفوذ الفرنسى فى عهده بصورة كبيرة ويمكننا القول بصورة واضحة

أنه كـان يعـانى من بعض المشكلات النفـسـيـة مـثل عـقـدة الاضطهـاد التى أشرنا إليـها فعـمد إلى إقصـاء الفرنسيين فى محاولة منه لبث الطمأنينة إلى قلبه فحلفاء الأمس ربما تآمروا ضده مع أعداء اليوم!! ولا يكاد يذكر اسم عبـاس الأول فى أى مرجع فـرنسى إلا بالسـخرية والتهكم والسوء.. فقـد وصفـه جوستاف فلوبير(١٥) الكاتب الفرنسى الكبير فى كتابه «رحلة فى مصـر» بقـوله: إنه رجل أبله وشبـه معتوه، لايستطيع فهم أى شىء وهو أكبـر مفسد لأعمال محمد على ويضيف الرحالة «ماكسيم دى كان» إلى هذا الوصف البليغ بعض العبر المخجلة يصـفـه بأنه رجل بدين، أكـرش شـاحب اللون، سلوكـه أخـرق، ساقاه مقوستان، وعيناه جامدتان، يصدر عنه أحيانا ضحكة مرتجة لا تنبسط معـها أساريره من فرط بدانته!! لاعلاقة بالطبع وربما كان السبب الحقيقى لهذا التحامل الشخصى ضده يرجع إلى كيمياء الكراهية المتبادلة بين الفرنسيين وعباس الذى تحصن فى قصـر منيع على أطراف القـاهرة فكان ذلك مبررا قـويا لنشأة حى العباسية الذى سمى باسمه المتواضع تاريخيا.

من جهة أخرى حين أدار ظهره لفرنسا لم يجد أمامه إلا بريطانيا وامتدت يده تستقبل الأسد الإنجليزى الماكر الذى انتشر نفوذه من خلال (ميرى) القنصل الإنجليزى آنذاك وفى









الملابس المملوكية

فجر الدبلوماسية فإن منصب القنصل العام وهو وسيلة الاتصال الوحيدة كان يعادل سلطة دولة كاملة فى تلك البلاد وبالإلحاح والتكرار نجح الإنجليز فى إقناعه بإصلاح طريق القاهرة ـ السويس، ولعل العمل المضىء خلال فترة حكمه هو إنشاؤٌ لخط السكة الحديد بين الإسكندرية والقاهرة عام ١٨٥٢، حيث استعان بالمهندس الإنجليزى الشهير «ستيفنسون» واكتمل فى عهده الخط الواصل بين الإسكندرية وكفر الزيات فكان أول خط للسكة الحديد فى الشرق، الأمر الذى أدهش السلطان العثمانى «عبدالعزيز» حين قدم إلى مصر فى عهد إسماعيل وكانت المرة الأولى فى حياته التى يشاهد فيها قطارا بحاريا على الرغم من زعامته الإمبراطورية العثمانية.

توفى فى ظروف غامضة عام ١٨٥٤ واتجهت أصابع الاتهام إلى فكرة المؤامرة التى كان يخشاها فقيل إن مماليكه تآمروا على قتله بإيعاز من عمته، وفى بعض الكتابات من حريمه وحاول أفراد حاشيته تكتم خبر وفاته حتى يصل ابنه «إلهامى» من أوروبا فأسرع سعيد باشا وأكل النبق!!

ويرفض القنصل الأمريكى «دى ليون» والقنصل الإنجليزى «بروس» فكرة اغتياله ويؤكدان أنه توفى إثر إصابته بنوبة صرع حادة أعفته من استكمال مهمته الفاشلة فى حكم مصر والذى استمر ست سنوات.



سعيد باشا

سعيد باشا «عاشق المكرونة»

دهاة السياسة قديما كانوا يلجأون إلى تقديم أصناف والطعام وبكميات كبيرة لنظرائهم فى المفاوضات ويعمدون إلى ملء بطونهم فتنصرف وظائف المخ لهضم الطعام وبالتالى تضعف قدرة المفاوض نسبيا فى المجادلة والإقناع ويتهيأ نفسيا للتوقيع فى سهولة ويسر طبق المكرونة المفضل لدى سعيد باشا كان من أهم أساليب ديليسبس الدبلوماسية التى استطاع من خلالها الانفراد بتوقيع عقد امتياز قناة السويس التاريخى فى نوفمبر ١٨٥٤.

ولد سعيد باشا بن محمد على عام ١٨٢٢ وبدأ حياته بهذه النغمة المصرية قائلا: «أود أن أعرف ما العروق والشرايين التركية والشركسية فى جسدى لأفتحها وأتخلص من هذا الدم الممقوت، وحيث إننى أعتبر نفسى مصريا فمن الواجب أن أربى

أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا!!! (ياللهول) حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب وقد عاهدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل».

فالباشا مولع بمصر.. مكره فى أصول شبه التركية وتعليقا على ذلك كتب عرابى باشا وكان قائمقامًا فى عهد سعيد فى مذكراته يقول:

«إن هذه الكلمات هى حجر الأساس فى مبدأ مصر للمصريين» ولكن الشعار الذهبى للساسة فى كل العصور يوصى بفصاحة اللسان وبلاغة العبارة وهما قوة أقوى من السيف أحيانا ولكن سعيد كان محبا لمصر بالفعل فهى التى منحته عرضها على الرغم من نقائصه فقد كان خليطا من الطموح والإقدام والتردد والضعف وعشوائية التفكير لكنه لم يفتقد طيبة القلب ولم يحرم التسامح ووهب خفة الظل.

اهتم محمد على بتنشئته واختار له البحرية ليتدرج فى سلكها حتى أصبح قائدا عاما للأسطول فى أواخر عهد أبيه.. على الرغم من أنه كان مصابا بدوار البحر كما يقول نوبار باشا فى مذكراته.. وكان يطمع مثل أبيه فى تحديث مصر عن طريق توثيق علاقته بفرنسا ولكن تسوية عام ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ ظلت قيدا يدمى المعصم فى عهد سعيد وأخلافه ويمكننا

الإقرار بأن هذه التسوية كانت السبب الرئيسى لخضوع حكام أسرة محمد على للضغوط الأوروبية حيث استمرت أرجوحة التوازنات بين انجلترا وفرنسا.. ليعلو شأن الأخيرة فى عهد سعيد الذى يمكننا حصر أهم الأعمال فى عهده بالقضاء على الذيول المتبقية لنظام الاحتكار التجارى وإقراره للملكية العقارية للأراضى الزراعية لإصلاح حالة الفلاحين فيما يعرف باللائحة السعيدية عام ١٨٥٨ وهى أساس التشريع الخاص بملكية الأطيان فى مصر كما ألغى نظام احتكار الحاصلات الزراعية وصار للفلاح مطلق الحرية فى التصرف فى محصوله.

كما خفف عن الأهالى بعض الضرائب التى أصبحت تدفع نقدا وأمهلهم فترة زمنية متسعة لكى يتوافر المال فى أيديهم لدفع الضريبة وحظى الموظفون المتقاعدون فى عهده بصدور لائحة المعاشات وهى الأساس الذى بنى عليه نظام المعاشات المتبع فى مصر لموظفى الحكومة وأخذ على عاتقه مهمة إكمال خط السكة الحديد بين القاهرة والإسكندرية عام ١٨٥٦ وأنشأ خط سكة حديد آخر بين القاهرة والسويس عام ١٨٥٨ وكان سببا رئيسيا فى تنشيط حركة التجارة بين المدينتين.

وعهد إلى «مارييت» باشا عالم الآثار بجمع الآثار المصرية وحفظها فى مخازن بولاق.. وطلب من محمود باشا الفلكى وضع خريطة مفصلة للقطر المصرى.

وقفز بالجيش فوق حاجز الاضمحلال والتقهقر اللذين أصاباه فى عهد عباس الأول، فقام بترقية الضباط المصريين ووصل ببعضهم إلى أعلى المراتب بعد أن كانت مقتصرة على الأتراك والشراكسة واتخذ من مسار الإصلاح العسكرى مسارا آخر موازيا للإصلاح الاجتماعى عن طريق تحسين نوعية الطعام وأسلوب حياة الجنود بصفة عامة فكانوا ينقلون ذلك التطور الاجتماعى والسلوكى إلى قراهم بعد انتهاء فترة تجنيدهم التى عمل على خفض سنواتها وجعلها إجبارية للجميع.

وفى عهده أيضا انتشر نفوذ قناصل الدول الأوروبية واتسعت تجارته وكثرت قضايا التعويضات التى كانت من أسباب الأزمة المالية فى عهده وأثناء حواره مع أحد رجال الأعمال الأوروبيين ذات يوم قاطعه وأمر خادمه بإغلاق الشباك قائلا: إذا أصيب هذا الرجل بالبرد فسوف يكلفنى عشرة آلاف جنيه استرلينى تعويضا عن هذا البرد المزعوم.

ومن أهم المواقف التى تؤكد تردده وغرابة أطواره.. قيامه بتسريح عدد كبير من الجيش ثم إعادة تنظيمه مرة أخرى فتكبد بذلك خسائر مالية فادحة ويرى الزعيم أحمد عرابى أن سعيدا اضطر لتسريح قواته نتيجة لتضخم حجم المديونية الحكومية فى عهده تجاه ألمانيا وفرنسا مقابل الأسلحة وبناء

السفن فى ميناء السويس.. أعدا ترتيب هذا الجيش مرة أخرى استعدادا للقتال فى حالة وقوع حرب بينه وبين تركيا التى ساءت علاقته بها بسبب قناة السويس.. وكان عدد أفراد الجيش يقترب من ٦٤ألف مقاتل، صرف معظم هذا الجيش بعد أن عادت العلاقات الودية بينه وبين تركيا وبحكم نشأته البحرية فقد عمل على تجديد وحدات الأسطول ولكن انجلترا «سيدة البحار» تنبهت سريعا إلى خطورة هذه الإصلاحات وأقنعت الحكومة التركية بخطورة تجدى الأسطول المصرى الذى قد يستخدم ضدها فيما بعد.. فأصدر الباب العالى تعليماته بعدم إجراء أى إصلاحات أو بناء سفن جديدة إلا بعد الحصول على موافقته وبناء على ذلك تم الاستغناء عن معظم ضباط البحرية وإدراجهم فى وظائف مدنية فى الوقت الذى كانت صناعة السفن تتحول فيه فى معظم الدول من سفن شراعية إلى سفن حربية بخارية وامتثل سعيد لرغبة الباب العالى ولكنه اعتنى أيضا بالملاحة التجارية داخليا وخارجيا وحين نشطت التجارة فى السويس عمل على إصلاح مينائها وتوسعته فأنشأ حوضا عائما لإصلاح السفن وإذا كانت مصر قد اشركت فى حرب القرم فى عهد عباس الأول فقد استمرت مشتعلة فى عهد سعيد، ومن الغريب أن مصر اشتركت فى حرب المكسيك أيضا فى عهده بفرقة سودانية مكونة من ١٢٠٠ضابط.. وفاء

لعهد المحبة والصداقة بين سعيد باشا ونابليون الثالث امبراطور فرنسا فى ذلك الوقت.

أهمل السودان فى عهد عباس «فقرر سعيد زيارة السودان» الذى كان يفكر فى إخلائه.. لكنه عدل عن هذه الفكرة وقرر إصلاحه وقام بإلغاء منصب الحاكم العام (حكمدار السودان) وجعل من السودان خمس مديريات مستقلة وحين شكا الأهالى من سوء إدارة مديرى الأقاليم أعاد منصب الحكمدار مرة أخرى.. وهنا تكمن أهم نقاط ضعفه فى التردد والتسرع فسعيد لم يتأثر بهذا البيت الشعرى:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة..

فإن فساد الرأى أن تترددا

وهو لم يكن مترددا فقط ولكنه كان عديم الصبر أيضا وضعيف الإرادة وقد استمر انتكاس النهضة التعليمية فى عهده ولم يتحمل عبء الإصلاح والإحياء اللذين أوجدهما محمد على بالصبر والحزم والإصرار فلجأ إلى قطع العقدة بدلا من حلها فأغلق المدارس التى تحتاج إلى إصلاح وقام بإلغاء ديوان المدارس أو نظارة المعارف كما ألغى مدرسة المهندسخانة ببولاق ١٨٥٤ ثم أعاد فتحها وجعلها مدرسة حربية كما شلت حركة البعثات العلمية فى عهده فلم يرسل سوى ١٤طالبا إلى أوروبا فى مقابل هذا الاضمحلال فى التعليم المصرى نجد أن هناك

بوادر انتعاش وازدهار للبعثات الأجنبية الدينية التى سارعت وفتحت مدارسها فى مصر بإعانة منه مثل إعانة راهبات «البون باستور» أو الراعى الصالح.

فيما يتعلق بالنظام السياسى فقد أهمل مجلس المشورة الذى أسسه محمد على وأعاد تنظيم الدواوين فجعلها أربع نظارت هى الداخلية والمالية والحربية والخارجية ومن حسنات عهده تحقيق الاستقلال القضائى لمصر بعد حصوله على حق اختيار القضاة بعد أن كان يتم تعيينهم عن طريق «قاضى القضاة» الموفد من الباب العالى.. كفان أمر القضاء عرضة للأهواء الشخصية والرشاوى المالية.. نتيجة لاختيار القضاة وفقا لهذه الاعتبارات المشينة.

امتياز قناة السويس

قناة السويس هى اختراع فرعونى منذ عهد سيزوستريس مرورا بنابليون الذى قاد حملته إلى مصر بصفة أساسية لهذا الغرض وانتهاء بديليسبس الذى لم يكن مهندسا.. ولكنه كان دبلوماسيا متقاعدا يمتلك قدرة عجيبة على الإقناع.. حاول استخدام مواهبه فى عهد عباس لكى يتسلل ويجد منفذا لإقناعه بجدواها لكنه فشل فشلا ذريعا.. مع رجل مثل عباس يمقت الأوروبيين بصفة عامة والفرنسيين بصفة خاصة..

فحاول أن يعرض المشروع على السلطان العثمانى مباشرة وتوجه إلى الأستانة لكن طلبه قوبل بالرفض وهنا تكمن عبقريته فهو لم يكل أو يمل أو ينتظر.. ولكنه قابل الرفض بمزيد من الدراسات الهندسية ودراسات الجدوى انتظارا لاقتناص الفرصة الملائمة.

ولا يكاد يذكر اسم قناة السويس حتى يقفز إلى الأذهان الثلاثى الشهير «فرديناند ديليسبس وسعيد وإسماعيل باشا».. وقد ارتبطت أسرة ديليسبس بصلة صداقة خاصة مع محمد على.. حيث كان «ماثيو» والد فرديناند من أصدقاء الباشا المقربين، أثنا عمله قنصلا لفرنسا فى مصر عام ١٨٠٣ واختص محمد على فرديناند بالإشراف على تدريب سعيد رياضيا وتعليمه فن ركوب الخيل الذى كان ديليسبس من فرسانه البارزين.

ولجأ محمد على إلى فرض تعليمات مشددة على سعيد الذى كان يعانى من البدانية والشراهة فى الطعام.. وأمره بأن يجرى يوميا خارج سور القلعة ليتمكن من إنقاص وزنه.. وهنا تتجلى شهامة ديليسبس وكرمه الحاتمى حيث كان يقدم طبقا شهيا من المكرونة لم يتنكر سعيد يوما لمذاقه ولم ينس لديليسبس معروفه..

وحانت الفرصة لتنفيذ الفكرة التى عجز «لوبير» كبير مهندسى الحملة الفرنسية عن تنفيذها.. فقد أجرى لوبير دراسة هندسية تتعلق بشق القناة ولكنه أخفق تماما.. لأنه أقام دراسته على اعتقاد خاطىء مفاده أن البحر الأحمر يعلو عن البحر المتوسط بمقدار تسعة أمتار.. وهى عقبة فنية تحول دون إتمام المشروع ومن شأنها أن تغرق الدلتا بأكملها وفى عهد محمد على لم يترك حلفاؤه الفرنسيون هذه الفرصة وقاموا بعمل دراسة فنية سليمة ولكنه رفضها بلباقة وأعطاهم وعدا مكتوبا على الرمال بتنفيذ المشروع فى وقت لاحق.. وأضمر فى نفسه عدم تنفيذه على الإطلاق.. فقد استشعر ببعد نظره أن القناة سوف تجعل مصر مطمعا للنفوذ الأجنبى كما فعل البسفور فى تركيا وحين تولى سعيد باشا الحكم اغتنم ديليسبس هذه الفرصة الذهبية وصحبه فى رحلة فى الصحراء الغربية ومع غروب الشمس.. تأكد أن نجمه سيسطع لا محالة. فقام باستعراض مهارته فى ركوب الخيل والقفز فوق الحواجز بعنترية عربية وقرر أن يطلع سعيد باشا على خطة مشروع القناة وعن هذا الوقت كتب ديليسبس فى مذكراته يقول: «عبرت لسعيد[٣٥] باشا عن أهمية القناة وأنها كانت هدف جميع العظماء الذين حكموا مصر وأن العاهل الذى سيقوم بتنفيذ شق القناة سيظل خالدا أكثر من بناة الأهرام واستشهدت بفوائد اختصار المسافة فى الزمان والمكان بين

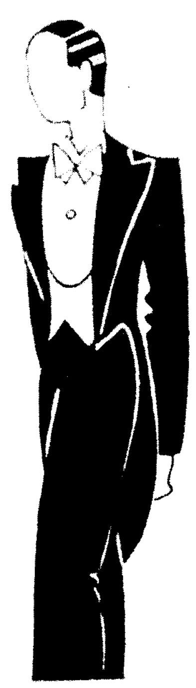
مـخـتلف دول العـالم فـالقناة سـتـخـتـصـر المسـافـة بين لندن ونيـودلهى إلى النصف». أما أهـمـيـتـها الاسـتـراتيـجـيـة فـمؤكـدة عالميا.. فطلب سعيد باشا أن أضع الخطوط العريضة للمشروع على الورق.. ولكنه فـوجئ بـأننى أعـرض عليـه خطة مـبـدئيـة للمـشـروع أعددتها من قبل!! ثم اسـتـدعى سـعـيـد قـواده وقص عليـهم الحـديث الذى دار بيننا وطلب إليـهم أن يبـدو رأيهم فى مشـروع «صديقـه» وكان هؤلاء المستشارون أقدر على إبداء الرأى فى مناورات الخـيل[٣٦] منهم فى التكلم عن مـشـروع عظيم لا يسـتطيـعون فـهـمـه ولكنهم كـانوا يـريدون إيهـامى بأن صـديق مـولاهم الذى رأوه يقـفـز على الحـائط راكب جـواده بتلك المهـارة لا يمكن أن يدلى إلا بآراء صـائبـة وكـان فى مـقـدمـة المـعـجـبين بقـفـزات ديليـسـبس ذو الفـقـار باشـا وزير المـاليـة الذى كـانت له منزلة كبيرة لدى سعيد وهكذا نجح هذا الداهية الدبلوماسية عن طريق اسـتـخـدام كل مـهـاراته فى الرشـاوى المكرونيـة وفى الفروسية من اتمام أشهر صفقة فى التاريخ..

لم يكن ديليـسـبس على الرغم من طمـوحـه ومكانتـه لدى البـاشـا يقف بمفـرده.. لتـحـقـيق هذا الحلم الأوروبى الذى كـان مطمع الجـمـيع.. ولكن ديليـسـبس حظى بعناية فـائقـة من الامبـراطور نابليـون الثـالث والإمـبـراطورة أوجـينى التى كـانت تربطه بها صلة قرابة (يقال إنه ابن عمها) وكان مشروع القناة يحظى باهتمامها الشخصى وعلى الرغم من ذلك كتب وزير

خارجية فرنسا خطابا إلى القنصل الفرنسى يقول فيه: «فى الوقت الذى لا نخفى فيه مطلقا تعاطفنا مع القناة فإنه من الأفضل أن نمتنع عن ربطها بمسئوليات القنصلية العامة».

وقد اعترف سعيد باشا بسهولة منحه الامتياز لديليسبس فحدثه قائلا: «أعترف لك بأنى لم أفكر طويلا فى الموضوع وإنما هى مسألة شعور وليس من عادتى أن أقلد الناس فيما يتبعون ويعملون وبالرغم من الجهود المضنية التى بذلتها انجلترا ومساعيها لدى الباب العالى لعرقلة المشروع الذى كان يهدد نفوذها الاستعمارى ويهددها بفقدان السيطرة على أهم شريان مائى فى العالم.

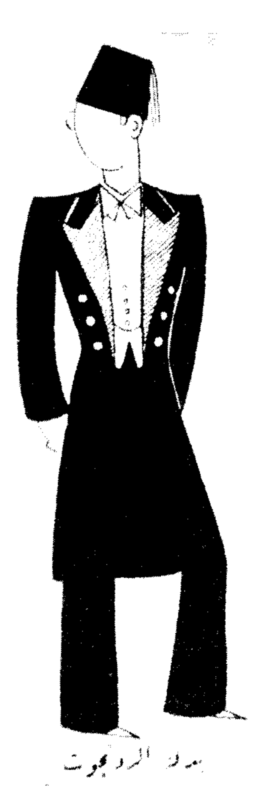
وعلى الرغم من تأكيدات السلطان عبدالحميد بعدم إتمام المشروع.. فقد تم توقيع عقد الامتياز والترخيص لديليسبس بإنشاء وإدارة شركة تقوم بحفر تلك القناة التى اقتنع سعيد بعالميتها ومن ثم فلا خطر من سيطرة إحدى الدول الأوروبية عليها، لأن الدول الأخرى لن تترك للدولة المعتدية أية فرصة للاستئثار بها» وبهذا المنطق السعيدى المتفائل تم تأسيس الشركة واستثمارها عام ١٨٥٤ لمدة ٩٩عاما من تاريخ افتتاحها للملاحة والسماح للشركة باستخدام ٤/٥ العمال من المصريين واستخدام المناجم والمحاجر المصرية دون مقابل والتمتع بالإعفاء الجمركى على جميع الآلات والحصول على مساحات شاسعة من الأراضى المصرية التى تحيط بالمنطقة المعنية



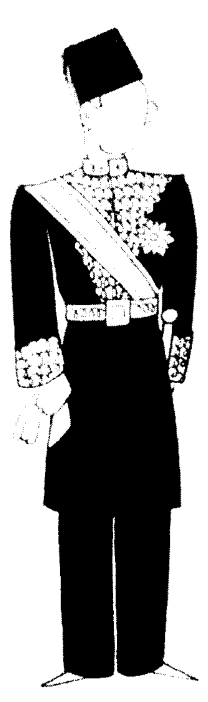
بدلة الفراك



بدلة البونجور



بدلة الردنجوت



بدلة الاستمبولينا

الأزياء الرسمية فى العهود الملكية

بالحفر والتى حفرها مليون وربع مليون مصرى بالسخرة، فقدت مصر خلالها أكثر من ١٢٥ألف عامل أثناء عمليات الحفر وفى مقابل الأراضى والامتيازات الممنوحة للشركة تحصل الحكومة المصرية على حصة قدرها ١٥٪ من صافى الأرباح السنوية ولكن ماذا عن موقف الباب العالى بعد توقيع الامتياز؟ ذهب ديليسبس وحاول إقناع السلطان بجدوى المشروع وأهميته للإمبراطورية العثمانية.. فكتب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) العثماى خطابا لسعيد باشا تعليقا على زيارة ديليسبس يقول فيه ناصحا: «فلتأذن لصداقتى بأن نقول لك بأننى أشعر بحزن كبير لرؤية جلالتكم تلقون بأنفسكم بين ذراعى فرنسا ولنتذكر ما تكلفه والدكم لوضعه ثقته فى هذه الحكومة الفرنسية. إن فرنسا لا تستطيع (٣٧) أن تفعل شيئا سواء ضدك أو معك فى حين يمكن لانجلترا أن تؤذى كثيرا.

واهتزت ثقة سعيد نسبيا وأمر بالفعل بإيقاف عمليات الحفر عام ١٨٥٩ حتى يتم الحصول على موافقة الباب العالى ولكن ديليسبس سعى لاستكمال مشروعه ورضخ سعيد فى النهاية.. وترك الأمر لديليسبس الذى أعد تقريرا شاملا للرد على الإدعاءات والانتقادات الهندسية التى أطلقها معارضو مشروع القناة فى أوروبا وعلى رأسهم ابن ستيفنسون مخترع القاطرات البخارية التى كانت ماتزال فى مراحلها الأولى على الرغم من أن المشروع كان يراهن على مستقبل السفن البخارية ورواج

تجارتها عالميا.. فلم يكتتب الانجليز وهم متحفظون بطبيعتهم وقد زادهم موقف حكومتهم الرافض للمشروع مزيدا من التحفظ والشكوك.. ولم يهتم الأمريكيون المنعزلون بمشروع يبتعد كثيرا عن أراضيهم وقد داعب سعيد باشا قنصل الولايات المتحدة فى مصر بقوله: «سوف نتنافس مع برزخ بناما وسوف ننتهى من القناة قبلكم» وهكذا تعثر الاكتتاب واستطاع ديليسبس عن طريق مكره ودهائه وعدم تروى صديقه الباشا أن يورطه آنذاك فى اكتتاب ١٧٧٦٤٢سهما من مجموع أسهم الشركة البالغة ٤٠٠ألف سهم تقريبا.. تم سداد جزء منها والباقى على سنوات.. ولم تتوقف الدهشة الأوروبية من نجاح ديليسبس فيما فشل فيه الآخرون وكتبت إحدى الصحف الأوروبية تقول تعليقا على لسان أحد قادتها: «ومن الغريب أن سعيد لم يطالب صديقه بأى ثمن مقابل الامتيازات التى منحها له فقد باع إرث الفراعنة لرجل فرنسى وقبض الثمن، ابتسامة زائلة».

وفى أبريل عام ١٨٥٩ بدأ الحفر فى القناة دون موافقة انجلترا وتحفظ تركيا وترحيب فرنسا.. ومن الإنصاف أن يقترب اسم ديليسبس أيضا بالحديث عن أول قرض حصلت عليه مصر فى عهد سعيد من أوروبا عام١٨٦٢.. ونتيجة للورطة المالية التى انجرف إليها سعيد.. كتب نوبار باشا فى

مذكراته يصف هذا الوضع «قال سعيد باشا لقنصل فرنسا بلهجة مشددة: لقد أغرقنى صديقك ديليسبس حتى أذنى» وقد تحملت مصر فجأة ٤٤٪ من رأس المال الإجمالى للشركة.. وكان من المفترض أن يتم الاكتتاب من خلال رؤوس الأموال الحرة، ووجد سعيد المتسرع نفسه فى ورطة مالية، فاقترض من بنك «فروهلنج جوشن بلندن» قرضا قيمته ٢,٢٤٢,٨٠٠جنيه استرلينى، ولجأ أيضا للتحايل على قوانين السلطنة العثمانية التى كانت تحظر سياسة القروض من الخارج.. ووجد أن أفضل الحلول هو اللجوء للاستدانة من المرابين عن طريق سندات يحررها على الخزانة بالقيمة المقترضة.. وتعرف ماليا بالديون السائرة وهى أخطر ما يهدد اقتصاد أى دولة لأنها بلا روابط ولا قيود.. ونتيجة لهذا التراخى أصبح الموقف المالى هشا بصورة ملحوظة.. ما أضعف سلطة الحكومة فى مقابل السلطات الممنوحة للأوروبيين والتى كانت تنظمها قوانين «الامتيازات» المنحازة لهم تماما.

وفى نضج الرجولة اشتد المرض على سعيد وتوفى فى يناير عام ١٨٦٣ عن عمر يناهز ٤٢عاما ودفن بالإسكندرية.



الخديو اسماعيل

الخديوى إسماعيل

نقل باريس للقاهرة

قديما قالت العرب: كل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون فإذا كان الجنون خديويا يصل إلى درجة العشق فلابد أن تكون المعشوقة هى المحروسة فهو القائل: «لم تعد بلادى فى إفريقيا.. نحن قطعة من أوروبا».. هو فنان حالم برتبة حاكم.. أخجل كليوباترا حين رمقته فى ممرات التاريخ فشعرت أنها لم تفعل شيئا يذكر لاستقبال أنطونيو عندما قدم إلى مصر وأمرت بأن تقطف زهرات اللوتس من على ضفاف النيل وافترشت بها الأرض بساطا ورديا قرمزيا حانيا غاصت فيه قدماه حتى تعثر سيره.. وهو أول حاكم شرقى يستثير غيرة لويس الرابع عشر ويسكن فى قصور فرنسية فخمة بديعة مثله!! أما زبيدة زوجة هارون الرشيد فلم تكن تتخيل أنه يوجد من النساء من يفوقها فى الثراء

والدلال والتمتع بعظمة الملك وجنون ترفه.. إنه عصر إسماعيل.. الذى شهد أشهر ولائم التاريخ فى حفل افتتاح قناة السويس الذى تكلف مليون و٤٠٠ألف جنيه عام ١٨٦٩ وحضره ملوك وأمراء أوروبا وعلى رأسهم أوجينى زوجة الإمبراطور نابليون الثالث ملك فرنسا، فكان ذلك سببا وجيها من وجهة نظر الخديوى ليصبح ليلة من ألف ليلة وليلة..

فإذا تحدثنا عن أفراح الأنجال الأربعة والتى استمرت أربعين ليلة من الكرنفالات والمهرجانات الفنية فلم تشهد مصر ما يضاهيها ثراء وإبهارا منذ عهد الفراعنة.. هو عصر الفتوحات الإفريقية والنهضة الأدبية والأزمات المالية والصحوة التعليمية والكوارث الطبيعية والفخامة المعمارية والأناقة الفنية.. إنه عصر إسماعيل رائد النهضة المصرية الحديثة ومؤسس نزعة حب الظهور والفخفخة فى المجتمع المصرى وجوهرة التاج فى أسرة محمد على.

ولد الخديوى إسماعيل عام ١٨٣٠ فى قصر المسافرخانة بالجمالية كان والده إبراهيم باشا يتصف بالحزم والشدة، توافر له فى حداثته دراسة اللغة لعربية وحفظ بعض الأبيات الشعرية من التراث العربى وقراءة القرآن الكريم بالإضافة لإتقان اللغة التركية بالطبع، وفى سن العاشرة أصيب برمد فى

عينيه فسافر مع أبيه إلى دمشق للاستشفاء ثم سافر بمفرده إلى النمسا لاستكمال العلاج حيث حظى إسماعيل بعناية العائلة المالكة النمساوية وبرعاية «ميترنيخ» السياسى الشهير آنذاك. فتنته فيينا بعراقتها.. ولم يكد يفوق من نشوة إعجابه حتى سافر إلى «باريس» مهد الفنون الجميلة فاستكمل دراسته فى المدرسة التى أنشأها جده محمد على عام ١٨٤٥ ودرس لها أكثر من ١٨٥طالبا مصريا وهنا ظهرت نزعته الباريسية التى لازمته طوال حياته ثم انتقل إلى كلية «سان سير» العسكرية وسرعان ما اختطف الموت إبراهيم باشا بعد أقل من عام من انتظامه فى دراسته، فعاد إلى مصر حيث خلف عباس الأول (ابن عم إسماعيل) محمد على فى حكم مصر ونظرا للخصومات والضغائن التى كان يحملها عباس تجاه أفراد أسرة محمد على وعمه إبراهيم وأولاده على وجه الخصوص، فقد اضطر إسماعيل للسفر إلى الأستانة مع بعض الأمراء أثناء فترة حكم عباس لكى يتجنبوا أى منازعات أو خلافات معه وتم تعيين إسماعيل عضوا بمجلس أحكام الدولة العثمانية.. وأنعم عليه السلطان عبدالمجيد بـ«الباشوية» وحين توفى عباس الأول وتولى عمه سعيد باشا عرش مصر عاد إسماعيل وعهد إليه سعيد برئاسة مجلس الأحكام وكان يمثل أكب هيئة قضائية فى البلاد، كما أسند إليه منصب «سردار» أو قائد الجيش المصرى، ويقوم القدر باستكمال الأحداث ويعتذر إسماعيل عن حضور

الحفلة الكبيرة التى أقامها سعيد باشا لأمراء العائلة العلوية فى الإسكندرية وأثناء عودة الأمراء تنحرف عربة القطار أثناء مرورها فوق كوبرى كفر الزيات وهى تقل الأمير أحمد رفعت (شقيق إسماعيل وولى عهد سعيد الذى كان يصاحبه أيضا حليم بن محمد على) ويتوفى أحمد رفعت وينجو حليم ليصبح إسماعيل وفقا لفرمانات الوراثة لعام ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ أرشد الذكور فى أسرة محمد على وبذلك فهو «ولى عهد سعيد باشا» وسرعان ما راجت فكرة المؤامرة الاغتيالية ويتلقف الباب العالى هذه الشرارة التى تشتعل عقب وفاة معظم ولاة مصر تقريبا من الأسرة العلوية وفى غضون سنوات يتولى إسماعيل عرش مصر عام ١٨٦٣ وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ويسعى لتعديل نظام الوراثة عام ١٨٦٦ بعد أن أغدق الأموال والهدايا الثمينة على الباب العالى وحصر العرش فى أرشد الذكور من ذريته هو وليس من أسرة محمد على، فقد كانت ولاية مصر فى عهد الأسرة العلوية تخضع لمبدأ اللى مالوش كبير يشترى كبير بأمواله عن طريق رشوة الباب العالى وبذلك قضى على الفرصة الأخيرة للأمير حليم فى توليه عرش مصر، الأمر الذى أفقده صوابه ودفعه إلى الطعن فى نسب الخديوى إسماعيل استنادا إلى بعض الآراء والأقاويل التى كانت تروج لشائعة تقول إن إبراهيم باشا هو ابن محمد على بالتبنى فهو ابن زوجته «أمينة هانم» وبذلك لاحق لإسماعيل فى الولاية

على مـصـر من منطلق أنه لا يمت بصلة دم لمحـمـد على وذهب الأمـيـر حليم للمطالبـة بخلو رجل لعـرض مصـر حتى يتنازل عن حقـه فى ولاية العهد لأنه كان أكبـر سنـا من توفيق (أكبـر ذكور إسمـاعيل سنا) فطالب حليم الخديوى إسمـاعيل بـ٢٠مليون جنيه استـرلينى فى أول الأمـر ثم انخـفض الرقم إلى ٧مـلايين.. ثم تنازل نهائيـا عن كل القضـايا التى رفعهـا ضـد إسمـاعيل مقـابل دخل سنوى ثابت قـدر بـ٨٠ألف جنيـه استـرلينى.. وظل صـراع العـرش يتكرر منذ ولاية إبراهيم، فقد سعى فى حياته وحصل على فرمـان الولاية لابنه أحمد رفـعت (الذى لقى حتفـه غـرقا) ونشـرت «الوقـائع المصـرية» أنبـاء الاحـتـفـال الذى أقـيم لقـراءة الفـرمـان ولكن مـرض إبراهيم ثم وفـاته المفاجئة حـال دون تنفيذ هذا الفـرمـان، حيث توفـى فى أواخـر عـهـد محـمـد على وتولى عباس الأول ولاية مصـر وسعى بدوره لتعديل الوراثة أيضـا ولكن سـعـيد كـان هو المرشح طبـقـا لفـرمـان ١٨٤٠ بالإضـافـة لغـيـاب «إلهامى» ابن عبـاس الأول بسفـره خـارج مصـر أثناء الوفاة، الأمـر الذى يسـر على سـعـيد باشـا مـهـمـتـه فى اعـتـلاء العـرش دون الدخول فى صـراعات مع إلهـامى وحـاول سـعـيد بدوره أن يغـيـر نظـام الوراثـة أضـا لكنـه لم ينجـح، إنـه صـراع السلطـة التى لا يقـوى على إغـرائّهـا أحـد.. فمـا بالنا إذا كـان الإغـراء هو عـرش مصـر!! يكفى أن نعلم أن إسمـاعيل لم يحضـر جنازة عمه سعيد بالإسكندرية لأنه كـان مـشـغـولا بمراسم تنصيبـه اعـتـلاء أقـدم

وأعـرق العـروش فى العـالم.. إذن إسـمـاعـيل كـان لديه نفس الطموح الأبوى فى حصر الولاية فى أرشد أبنائه (توفيق) وكان يرى أن ذلك من شـأنه أيضـا أن يؤدى إلى اسـتـقـرار العـرش وإنهاء الخلافات فى البيت العلوى فقام بشراء فرمانات الوراثة الثلاثة فى عهده عام ١٨٦٦ كما أشرنا ولكن الباب العالى قام بمضاعفة الجزية السنوية التى تدفعها مصر وتم رفعها من ٣٥ألف جنيه استرلينى إلى ٧٠ألف جنيه وفى عام ١٨٦٧ منح السلطان لقب (خديوى) وفى عام ١٨٧٣صدر الفرمان الجامع الشامل الذى حقق لمصر حرية زيادة عدد الجيش وفقا لما تقتضيه ظروف البلاد ورفع الخديوى حق عقد الاتفاقيات مع الدول الأجنبية ووضع القوانين وواجه (ولى النعم) كما كان يلقب المشكلة الأزلية التى طالما واجهت أسلافه وأخلافه وهى معضلة الاستعانة بالنفوذ الأوروبى (الفرنسى غالبا) للتخلص من تسلط الباب العالى والاستقلال عن هيمنة السلطنة العثمانية.

يقول إسماعيل: النظام والاقتصاد[١٧] فى المالية هما أساس كل إدارة جيدة وسأجعلهما منهجى فى كل أعمالى ولكى أقدم مثالا صادقا للجميع فقد عقدت العزم على ترك النهج الذى سار عليه أسلافى وتقرير مرتب ثابت لى لن أتجاوزه أبدا، فأتمكن بذلك من تخصيص عموم إيرادات القطر لإنماء شئون الزراعية.

إنى أجارى المدنية وتركيا جامدة لا تفعل ذلك وترانى أفعل فتشعر بالمذلة، إن مصر عشر تركيا فى مساحتها ومع ذلك فهى تنتج نصف ما تنتج السلطنة. إننى لا أطلب من الحكومة الفرنسية تأييدها المادى أو المالى بل تأييدها الأدبى فحسب، فلتعمل على منحى الاستقلال إننى أنتمى إلى أسرة محمد على ونحن نعلم جميعا مساندة فرنسا ورعايتها التى خصتنا بها دائمًا.

إنها تصريحات السلطة التى تحمل الكثير من الوعود والعهود بعضها صادق والبعض الآخر يتنكر ويتناقض مع تصريحات سابقة أو لاحقة فهو يقول عن نفسه إن الاقتصاد فى المالية هو أساس الإدارة الناجحة وذلك ما لم يعرفه إسماعيل الذى كان يقول عن نفسه «إنى أبذر الذهب بذرًا وأملى فى المستقبل أن يعود إلى مرة أخرى»، ولكن إسماعيل كان عاشقا لمصر.. وللعشق خصائص وصفات لا تخلو من الجنون.. فماذا فعل ذلك الولهان إرضاء لمعشوقته الخالدة مصر؟

عاش إسماعيل طفولته المبكرة فى مصر وبهرته فيينا ولم يقاوم سحر باريس العاطر.. ومن اختلاط هذه البيئات وتسربها إلى كيانه فى سن صغيرة، نشأ إسماعيل متفردا متميزا «إنسانا أقوى من بيئته» مصرى الطابع شرقى الروح، فرنسى النزعة

وكما يقول الإنجليز «إذا لم تذهب إلى الجبل.. فأنقل الجبل إليك» فعقد إسماعيل العزم وخطط لنقل باريس إلى القاهرة.. بدلا من السفر إليها ففى عام ١٨٦٣ تولى عرش مصر والقاهرة لاتزال مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن ٢٧٠ألف نسمة تمتد من المقطم والقلعة انتهاء بالعتبة الخضراء التى يحيط بها المستنقعات والمدافن والبرك من كل جانب وكان ذلك سببا كافيا لانتشار الملاريا.. حيث لم يكن بالقاهرة مجارٍ عامة أما مداخل المدينة فكانت محاطة بالحقول والقرى ويبتعد نهر النيل عن العمران ما لا يقل عن أربعة كيلومترات وتشكل البرك والمستنقعات الجزء الأكبر منها، ويمر فرع النيل الرئيسى بالجيزة وبولاق الدكرور والدقى وإمبابة. أما الشوارع فضيقة خانقة وتطل القاهرة على فرع النيل الراكد الآسن الذى كان يتم نقل الماء منه إلى البيوت.. فالتركة مثقلة والهموم مركبة. وهذا هو الحال بدون ألوان فماذا فعل هذا الرجل ذو الثلاثة وثلاثون عاما؟ لم يفعل إلا ما يفعله أى مبدع استلهم من الواقع خيوطا وأغمض عينيه فاختلطت الرؤية بالرؤى والحقيقة بالخيال والإرادة بالعمل وهو يشاهد أمام عينيه فيلما حيا يجسد حبه الدائم لباريس التى بهرته عمارتها وسكنته فنونها فكان مشروعه «باريس الشرق» أو إعادة تخطيط القاهرة أو رد الاعتبار إليها بعد الغزو الأجنبى الذى كتب عليها أن تقاومه آلاف السنين وإذا كانت باريس التى فتنت إسماعيل فرنسية

الهوية فإن لاسمها دلالة مصرية، فكلمة باريس تعود يإلى عهد الرومان الذين غزوا باريس تعود إلى عهد الرومان الذين غزوا باريس وأقامت قوتهم على ضفاف نهر السين وأطلقوا عليه هذه المدينة اسم «برايزيس» أى بيت ايزيس أو هبة ايزيس وكانوا يتبركون بها.. ثم حرف الاسم بمرور الأيام وأصبح «باريس» فكأن إسماعيل حين أعاد تخطيط القاهرة أعاد إلى مصر رمز الوفاء «ايزيس»[٢٢] مضافا إليها فوائد الحضارة والعمارة والفنون، وعن طريق الاستعانة بصديقه الامبراطور نابليون الثالث «امبراطور فرنسا» الذى قام بتكليف المهندس الفرنسى الشهير «هاوسمان» وهو الذى خطط باريس وبعض المدن الأوروبية.. نجح إسماعيل فى تخطيط وإعادة بناء أكبر من ١٠٠٠فدان تقريبا. وهو رقم قياسى بكل المعايير فى ذلك الوقت حيث كان يشتمل على إنشاء شبكة مياه للشرب وشبكة للمجارى وشبكة لإنارة الشوارع باستخدام الغاز ورصف الطرق وغرس الأشجار ووضع تحت يد «هاوسمان» جميع الإمكانات وكانت جميع طلباته تلبى فى الحال.. كان أول طلب يطلبه «هاوسمان» يعد طلبا خياليا، فقد طلب تغيير مجرى النيل من مكانه القديم وتحويله إلى وسط المدينة، مثلما يمر نهر السين بقلب باريس.. وبالفعل بدأت خطة التحويل[٢٣] وتم وضع حاجز خرسانى بالقرب من مدخل كوبرى عباس لكى يتجه النيل إلى الشرق وأقصم مصد فى موقع فندق شبرد الآن ليغير اتجاهه

ويعود إلى مجراه الأصلى فى بولاق.. ودون اللجوء لأى أعمال حفر.. حفر النيل مجراه الجديد ذاتيا وشاء القدر أن يفيض النيل فيضانا شديدا ١٨٦٥ ويتحول المجرى كما تم تخطيطه «فنيل القاهرة الذى يطل على فنادقها الكبرى الآن لم يكن له أى وجود قبل عهد إسماعيل وقد استغرق تحويل المجرى الجديد ثمانية عشر شهرا، ثم جاء كوبرى قصر النيل تاجًا يتلألأ فوق صفحته، حيث كان أول كوبرى يقام على نهر النيل من منبعه إلى مصبه يبلغ طوله ٤٠٦أمتار قام بتصميمه شركة «ليل» الفرنسية وقد وصف وقت إنشائه الذى استغرق عاما ونصف العام بأنه من أجمل الكبارى فى العالم وفور الانتهاء من العمل فى الكوبرى تم تزيينه بتماثيل أربعة سباع من البرونز وكان ذلك سببا كافيا فيما بعد ليطلق عامة الشعب على الخديوى إسماعيل لقب أبو السباع ومن أهم المشروعات التى نتجت عن ردم مجرى النيل مشروع «حديقة الأورمان» وكلمة «أورمان» تعنى الغابة باللغة الألبانية فتم إنشاؤها بتصميم فرنسى مماثل لغابة بولونيا الشهيرة وكانت تحتوى على نباتات نادرة والأمر كذلك بالنسبة لحديقة الحيوان التى كانت تعد من أشهر حدائق الحيوانات فى العالم، واتساقا مع المثل الشعبى القائل «الحى أبدى من الميت» فقد أمر إسماعيل بنقل المقابر التى كانت تحيط بمنطقة العتبة حيث كانت تشكل عائقا أمام تخطيط «هاوسمان» ونجح إسماعيل وكان دبلوماسيا هادئا

ومفاوضا من الطراز الأول فى إقناع الأهالى بنقل المقابر وأمر بإقامة مسجد تكريما لأصحابها وإرضاء للمواطنين وأطلق عليه «مسجد العظام».

أما بركة الأزبكية التى سميت نسبة لجامع السلطان أزبك فقد تم ردمها وتحويلها إلى حديثة عامة مساحتها عشرون فدانا وكانت وقت إنشائها صورة طبق الأصل من حديقة لوكسمبورج فى باريس بنافوراتها وأزهارها وحتى أبوابها المعدنية المزخرفة «فيرفورجيه» التى كانت تحرسها ومجموعة من أندر الأشجار فى العالم وسرعان ما تم استكمال تخطيط المنطقة فتم إنشاء دار الأوبرا عام ١٨٦٩ على غرار أوبرا «لاسكال دى ميلانو» التى تعد من أولى الأوبرات فى العالم، تم بناؤها فى ستة شهور وجاء موعد الافتتاح فى ٢٠نوفمبر ١٨٦٩ وقبل اكتمال بناء غرف الممثلين والمخازن فاضطروا للاستعانة بالمخيمات لتقوم بدور الغرف تستوعب دار الأوبرا ٨٥٠متفرجا وبلغت تكاليف إنشائها ١٦٠ألف جنيه.

ومن الطريف أن قرار الخديوى إسماعيل بإنشاء هذه الأوبرا كان ينص على أن تكون دار أوبرا مؤقتة إلى أن يأتى وقت يتم فيه إنشاء دار أوبرا جديدة وقد اضطر إلى رهنها بعد مرور ثمانى سنوات بتسعة ملايين جنيه تقريبا واستمرت كلمة مؤقتة ١٠٢عاما حتى تاريخ احتراقها ١٩٧١ وقد كلف إسماعيل

«مرييت باشا» لكى يبحث عن قصة مصرية من أوراق البردى تصلح موضوعًا للأوبرا فوقع الاختيار على أوبرا «ريجوليتو» التى وضع موسيقاها الإيطالى العظيم «فيردى»، وظل مسرح الكوميدى فرانسيز عالقا فى شريط ذكريات إسماعيل فتم إنشاء المسرح الكوميدى بميدان العتبة فى الموقع الذى تحتله مصلحة البريد الآن عام ١٨٦٨ وقد استغرق بناؤه ٤٢يوما، وتم إعادة تخطيط ميدان العتبة الخضراء التى سميت بهذا الاسم بهدف الإيحاء بعتبة الدخول إلى الجنة الخضرا وعرفت شوارع مصر الكبرى طريقها من قلب هذا الميدان فتم تخطيط شارع محمد على وكلوت بك وشارع الموسكى نسبة إلى قصر «موسك بك» امتاز عصر إسماعيل أيضا بتقليد معمارى احتفظت فيه جميع المنشآت والمبانى والشوارع بانتسابها لأصحابها الأصليين حتى قصر عابدين الذين قام بشرائه وبنائه عام ١٨٦٣ وكان يمتلكه «عابدين بك» لم يشأ أن يغير أو يعدل فى اسمه حفاظا على تراث المدينة وتاريخها وبما أن إسماعيل بدأ حياته سائحا ملكيا فى البلاط الأوروبى فقد ظل طيلة حياته ينظر إلى مصر بعين السائح الأجنبى ويتخيل انطباعات النظرة الأولى وانشغل كثيرا.. حتى يجعل من معشوقته فاتنة لا يقاوم سحرها فقام بإنشاء طريق الأهرام ورصفه بامتددا عشرة كيلومترات فى أقل من ثلاثة أسابيع!! وإليه يرجع الفضل فى إنشاء ميدان محطة

السكة الحديد وتحويل منطقة الفجالة التى سميت بهذا الاسم نسبة إلى زراعة الفجل التى كانت سائدة.

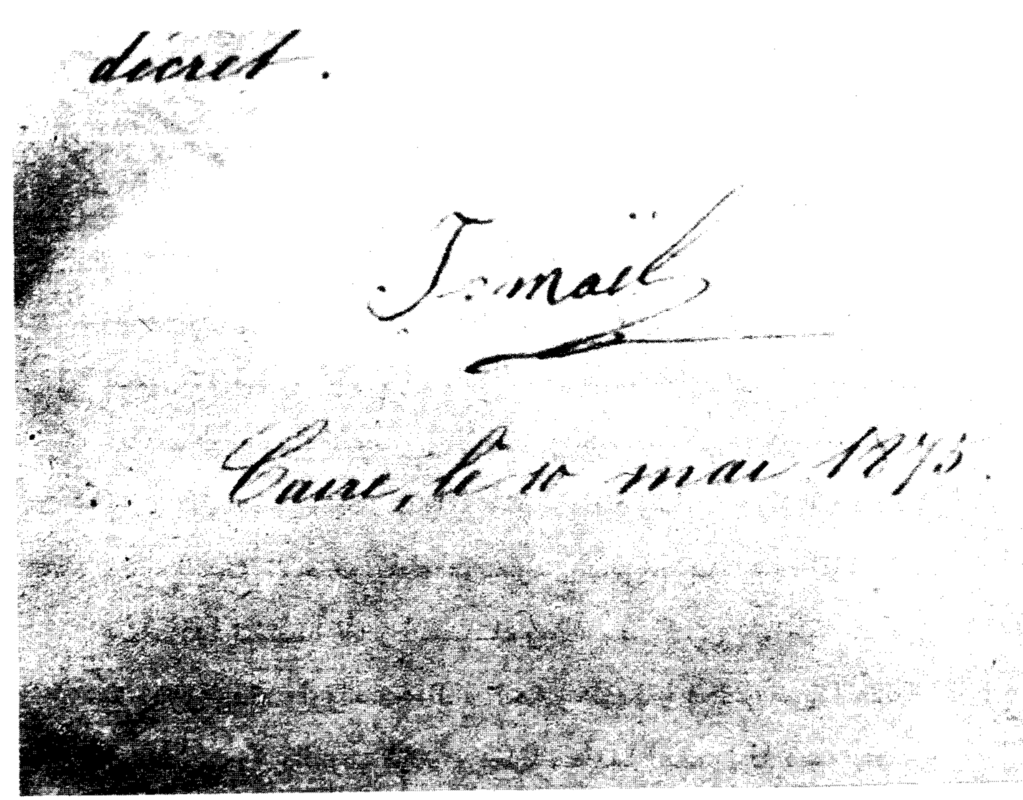
وقد ظهر تعبير «وسط المدينة» ليصبح بديلا لميدان الإسماعيلية (التحرير) وما حولها ويدين هذا الوسط بارأس والقدمين لطموحات إسماعيل فى إنشاء ميدان مشابه لميدان «الإتوال» فى باريس بنفس النسب والمساحات والشوارع الداخلية فتلألأ شارع سليمان باشا فى ارستقراطية باريسية وتوالت شوارع عدلى وثروت وقصر النيل ومحمد فريد.. وما يحيط بها من مناطق وميادين وكل هذه الثروة المعمارية التى ننعم بسخائها الفنى وقوتها الخرسانية التى نجحت فى اختبار السنين.. ومن الجدير بالذكر أن هذه الملحمة الهندسية أقيمت على أطلال التلال والهضبات التى كانت منتشرة فى هذه المنطقة ولم يكتف إسماعيل بهذه المسافة التى قطعها لتحقيق حلمه الباريسى. وفجأة وهب نهر النيل مصر نتيجة لتحويل مجراه جزيرة تكونت من الطمى والرمل وابتهج الخديوى بهذه الهبة النيلية وأمر بعدم إنشاء أى مبان فى هذه المنطقة، فهى من الآن فصاعدا مصيف لأهالى القاهرة وأطلق عليها اسم «زمالك» التى تعنى باللغة الألبانية كشك الاستحمام.. وسرعان ما سحرته هذه الزمالك فقام بإنشاء سراى الجزيرة عام ١٨٦٨ «فندق ماريوت الآن» التى شيدها خصيصا لاستقبال

الإمبراطورة أوجينى زوجة نابليون الثالث. كانت محل إعجابه الشديد. لتكون مقر إقامتها أثناء تواجدها فى مصر لحضور احتفالات افتتاح قناة السويس.. وقام بتأثيثها على الطراز الفرنسى كان موقعها الرومانتيكى فى هذه المنطقة البكر آنذاك.. من أهم الأسباب التى جعلت الخديوى يفضلها على قصوره الأخرى، وكانت أوجينى وزوجها الإمبراطور نابليون الثالث قد أكرما إسماعيل بحسن ضيافتهما له فى قصر فرساى حين ذهب إلى المعرض الدولى فى باريس عام ١٨٦٧.. وقام بفك إحدى المومياوات التى صحبها معه ماريت باشا لعرضها هناك فطلبت منه أوجينى إهدائها مجوهرات آل حوتب واسقط فى يد الخديوى الذى تعلل بأنه يجب استشارة مرييت باشا أولا لذلك سارع إلى إهدائها سريرا من الفضة الخالصة يزينه أربعة أعمدة مطعمة بالألماس والياقوت والزمرد وتم وضعه فى غرفة نومها التى صممت مطابقة تماما لغرفتها فى قصر فرساى هذا القصر على وجه الخصوص كان من أكثر القصور المحببة إلى قلبه وهى مكانه المفضل لإقامة الحفلات الراقصة والليالى الساهرة كان محبا للرقص مولعا بالغناء فى تلك الليالى.. التى كان يشدو فيها البلبل الصداح (عبده الحامولى).

افتتاح قناة السويس

مليون و٤٠٠ألف جنيه هى تكاليف حفل افتتاح قناة السويس الأسطورى الذى ظل إسماعيل يخطط لإعداده منذ توليه حكم مصر.. وبمجرد انتهاء أعمال الحفر فى القناة وفى اللحظة التى تلاقت فيها مياه البحرين (الأحمر والمتوسط) فى بحيرة التمساح وقف ديليسبس متهللا يقول: «منذ خمسة وثلاثين قرنا انحصرت مياه البحر الأحمر بأمر من موسى واليوم تعود هذه المياه إلى مجراها تنفيذا لأمر أنفدينا» ولتشهد ذكرى ١٢٥ألف عامل مصرى زهقت أرواحهم أثناء الحفر. ليهبوا مصر موردًا مائيًا يربط الشرق بالغرب ماليا وجعلها مطعما استعماريا فيما بعد.

أراد إسماعيل منذ البداية لهذا الحفل أن يكون ساحرا باهرا عالقا فى الأذهان، يتحاكى الناس عنه وتتوارده الألسنة فكان بالفعل حفل لا ينسى بدأ اهتمام إسماعيل شخصيا بسفره إلى الخارج بصحبة وزير خارجيته آنذاك نوبار باشا لدعوة ملوك وأمراء أوروبا الذين تم تقديم دعوة الافتتاح لهم على بطاقات مصنوعة من جلد الفيل (٣٠٠دعوة) بلغت تكلفتها ١٠آلاف جنيه وتم استقدام أكثر من خمسمائة طباخ و١٠٠٠سفرجى من مارسيليا وجنوا والبندقية لكى يعاونوا طباخى الخديوى الذين كانوا يستعدون لاستقبال أكثر من ستة آلاف شخص وعلى رأسهم أوجينى وفرنسوا جوزيف امبراطور



décret.

Ismaïl

Caire, le 10 mai 1875.

امضاء الخديو اسماعيل على دوسيه اشتراك مصر فى معرض فيلادلفيا بأمريكا عام 1875



احتفالات مصر بافتتاح قناة السويس

النمسا والأمير فريدريك ويلهلهم ولى عهد روسيا وشقيق ملك هولندا الأمير عبدالقادر الجزائرى وسفير روسيا والأديب الفرنسى أميل زولا والكاتب النرويجى «ابسن» وفى ليلة ١٨نوفمبر ١٨٦٩ كانت وليمة العشاء فى قصر الخديوى بالإسماعيلية وبدأت بالألعاب النارية والحفلات التنكرية وعشرات الأصناف والألوان من الطعام والشراب ورقصات الفالس وطلقات المدفعية. أما الخمور فكانت تتدفق من صنابير المياه واختلطت رائحة الشواء بأجواء القناة بالعطور الفرنسية بالأزياء الأوروبية وكرم الضيافة العربية، فكان أسهل ما يوصف به الحفل آنذاك أنه جاء نتيجة لحصول الخديوى إسماعيل على مصباح علاء الدين السحرى. ويكفى وصف أوجينى وهى زوجة «نابليون الثالث» امبراطور فرنسا آنذاك بقولها «لقد رأيت ما لم أره طوال حياتى» وتوالى قدوم السياح إلى مصر بعد احتفالات القناة وبلغ عدد الزائرين أكثر من ٧٧ألف سائح أجنبى.. وعلى الرغم من الانتعاش الذى شهدته القاهرة فإن غالبية قرى وريف مصر.. لم تستفد شيئا من أموال هؤلاء السائحين وكتب على جبين الجنوب (الصعيد) أن يظل مجهولا فى خطط التنمية والتطوير فالفجوة عميقة والمعاناة عامة والآلاف يعانون من البؤس والحرمان فهم خلف الكواليس محجبون عن أعين الغرباء.. عن ضيوف مولانا الذين يتسامرون فى غرفة الجلوس الكبرى فى «القاهرة».

الحياة الاجتماعية

«لا تسرف» هو المبدأ الذى قامت عليه فلسفة اليونانيين أجداد إسماعيل الأولين وعلى الرغم من ذلك لم يكن إسماعيل فيها ماليا والإسراف والتبذير وغبته الملحة فى حب الظهور من أبرز نقائصه الشخصية.. وكلها صفات لا تنتقص من عظمته فى جوانب أخرى.. فهو شخصية تاريخية يصدر الحكم لصالحه أو ضده بمقدار إسهامه فى تقدم مصر الحضارى وقد تحقق له هذا حين قام بتجديد مصر إذا صح هذا التعبير.. ولم يعصمه الفنان الذى كان يسكنه من التلقائية والعشوائية فى أحيان كثيرة فهو فى سباق محموم مع الزمن لكى يبنى فى سنوات ما استغرق فى أوروبا عشرات السنين.. فعرف طريقه مبكرا إلى الاستدانة والتفت حوله حاشية السوء التى تتوافر بكثرة فى أروقة البلاط الباردة، فتبعث هى الدفء بخفة ظلها وحكاياتها وحين كان إسماعيل يصرخ قائلا أطبخى يا جارية كانت تأتيه الإجابة سريعة حاسمة: من البنوك يا سيدى!! ولم يزعجه أن يستدين ليبنى وقد استدان سلفه سعيد (١١مليون جنيه) وتركها نواة لتركة مثقلة من الصعب جدا التخلص منها فهى تنتقل عبر الأجيال فتكون همومها مركبة ومشاكلها معقدة.

أشرنا إلى احتفالات قناة السويس الأسطورية ذات المليون و٤٠٠ألف جنيه وهو رقم يحمل دلالات عديدة من الإسراف

والتبذير.. وهو يعادل المليارات لإقامة حفل لستة آلاف شخص!!

تأتى أفراح الأنجال الأمراء (توفيق[٢٤] - حسين - حسن - فاطمة إسماعيل) التى أقيمت عام ١٨٧٣ واستمرت ٤٠ليلة بمعدل عشرة أيام لكل فرح تلك الأفراح التى وصفها «ادون دى ليون» قنصل أمريكا فى مصر بأنها تعود إلى عهد هارون الرشيد حيث اصطفت أقواس النصر فى باريس الشرق وشهدت سراى الجزيرة حفلا راقصا بديعا اتسع لأربعة آلاف شخص وتم بناء العديد من المسارح فى الشوارع والمداين.. وتم إنارة الشوارع التى استقبلت العربات الملكية التى تجرها الخيول المذهبة لاستعراض موكب التحف والهدايا المهداة من الخديوى إسماعيل ووالدته إلى العرائس وقد تم وضعها فوق عربات مكشوفة على وسائد من القطيفة المذهبة لكى يراها عامة الشعب - المسكين - وهى فى معظمها قلائد ماسية وأقمشة مطرزة باللؤلؤ والزمرد والياقوت.. بالإضافة لمئات الأوانى الفضية المطعمة بأحجار يصعب حصرها، ومن نسيج الذهب افترشت الأرض لتخطو فوقها سمو الأميرة فاطمة إسماعيل التى تم زواجها من طوسون بن سعيد باشا وقد ارتدت رداء من الماس واللؤلؤ لم يعرف الحرير الأبيض الفرنسى طريقه إليه من قبل، بالإضافة إلى ذيل الطاووس الذى يزينه والمرصع

بامتداد خمسة عشر مترا بالمجوهرات والأحجار الكريمة وكان طبيعيا ألا يقل تاج ليلة العمر عن كل الأبهة الماسية وبلغت تكاليفه أربعين ألف جنيه!

وفى الحرملك كانت تشدو ألمظ على نغمات العود الشرقى.. وعبده الحامولى يقوم بنفس المهمة فى السلاملك ويجزل له افندينا العطاء فقد كان من أحب الأصوات إلى قلبه وكان ملازما له فى كل حفلاته. فإذا أضفنا إلى تلك الليالى الذهبية والماسية.. احتفالاته السنوية بعيد الجلوس الذى كان يتم الاحتفال به فى ساحة قصر عابدين ويبدأ بمرور آلاف الدراويش يعقبهم الكرنفالات التى كانت تستوحى استعراضاتها وفنونها من عظمة مصر القديمة، حيث تنتشر السرادقات فى كل أنحاء مصر ويتكرر هذا المشهد الاحتفالى فى معظم الأعياد الدينية والاحتفال بعيد وفاء النيل.. لأدركنا كم من الأموال أنفق خلال الستة عشر عاما التى قضاها فى الحكم وقد انبهر السلطان عبدالعزيز سلطان الامبراطورية العثمانية أثناء زيارته لمصر ١٨٦٣ بما شهده من فخامة وترف وأدهشته القطارات البخارية وكان يشاهدها لأول مرة فى حياته وله عبارة شهيرة يقول فيها: «مصر من أصغر أجزاء السلطنة ولكنها تتقدم يوما بعد يوم أما نحن فسقوطنا متواصل على وفرة مواردنا» وقد

أنفق إسماعيل أموالا طائلة للاحتفاء بالسلطان عبدالعزيز ووده وداعا رأسماليا حيث أغدق عليه الهدايا والأموال التى ازدحمت بها سفينته شراء لتدعيم روابط الصداقة وتمهيدا للحصول على فرمانات الوراثة لابنه توفيق كما ذكرنا من قبل وفى عام ١٨٦٩ قام إسماعيل بزيارة الأستانة وتكررت ملحمة الإنفاق الجامح فى الحفلات التى أقامها فى قصره الفخم على مضيق البسفور وقد قدرت قيمة الأموال التى أنفقها على رجال الأستانة خلال فترة حكمه بـ٣٧مليون جنيه وجاء القصور الملكية السبع التى قام بتشييدها «عابدين ـ القبة ـ الجزيرة ـ الدوبارة ـ الزعفران ـ بولاق ـ حلوان» لتكون سببا كافيا لذوبان الذهب فى يديه ليصبح طلاء يغطى أعمدتها وأروقتها وتتسرب الملايين المتبقية لشراء الأثاث وتأسيس الضياع.. وهلم جرا وقد أصبحت الديون بالفدان فلم يكن مع الرأى القائل السلف تارة والرد خسارة.

إسماعيل المفتش أو الخديوى الصغير

هذا اللص سرق ما لم يسرق الملوك مع أنه نشأ[٢٥] فى مكان متواضع على ضفاف النيل إلا أنه بلغ فى أقل من عشر سنوات بما امتلك من قصور ومجوهرات ونساء وجوار أكثر مما كان

يستطيع سليمان فى كل مجده أن يمتلكه فلديه ثلاث سرايات تغطى البساتين والحدائق التابعة لها مساحة لا تقل عن مساحة الأرض التى أقيم عليها الأهرامات الثلاثة.

وهى مصممة على الطراز الفرنسى وإذا أراد الإنسان أن يشاهدها وهو سائر على قدميه بدون انقطاع فلن يكفيه الصباح، أما الزوجات الشرعيات وما ملكت يمينه فكن ستا وثلاثين امرأة وقد خصص لكل منهن ستا من الجوارى البيض وعددا غفيرا من الجوارى الحبشيات وكان عدد النساء فى تلك القصور الثلاثة شبيها بعدد سكان قرية صغيرة. ذلك هو وصف أدون دى ليون قنصل الولايات المتحدة فى مصر لإسماعيل صديق المفتش، شقيق الخديوى إسماعيل فى الرضاعة وهو ابن لفلاح مصرى اسندت إليه وظيفة التفتيش فى الصعيد من هنا حمل لقب المفتش كان مقربا من الخديوى ومن أحب الناس إلى قلبه، وقد خصص جناحا فى قصر عابدين وكان يطلق عليه العامة الخديوى الصغير.. فهو مصدر للسلطة بعد الخديوى مباشرة وكان يعمل مستقلا تماما دون مشورة إسماعيل فى بعض الأحيان وكقاعدة عامة فنادرا ما يتولى إنسان سلطة تفوق سلطة أقرانه دون أن يسىء استخدامها وهذا ما حدث بالفعل من قبل «المفتش» الذى كان يقوم بتعيين كبار المأمورين والمديرين مقابل إتاوات مالية ويذكر أمين سامى باشا فى كتابه

«تقويم النيل» أن إتاوة تعيين المدير كانت تتراوح ما بين ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ جنيه ووكيل المديرية من ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠جنيه وبعض هؤلاء المعينين لم يكن مستوفيا لأى شروط لشغل الوظيفة بل إن بعضهم كان يجهل القراءة والكتابة!!

وقدرت ثروته بأكثر من ١٣٥ألف فدان من أخصب الأطيان، بالإضافة للحلى والمجوهرات التى تزيد قيمتها على ٦٥٠ألف جنيه إلى جانب الأسهم والأوراق المالية وثمنها أكثر من نصف مليون جنيه وهكذا استشرى الفساد فى البلاط وترك إسماعيل الحبل على الغارب لهذا المفتش الشره الجائع!! الذى اشترت إحدى زوجاته مروحة لو اشترتها من شهر زاد شخصيا لما بلغ ثمنها ٣٧٥ألف فرنك!! وكان طبيعيا أن يسرى الحقد بين أميرات وزوجات الخديوى ويشعرن بالغيرة والحسد من زوجات المفتش وثرائهن الاستفزازى وهو لا يمت بصلة للأسرة العلوية وبدأ سيل القروض والديون على يد هذا الفاسد الذى رفض إسماعيل مرارا وتكرارا التخلى عنه وإعفاءه من العمل العام بناء على رغبة أفراد أسرته، فقانون الملوك لا يعترف بعبارة «يبقى الود ما بقى العتاب بل يذهب الود إذا جاء العتاب» ولكن إسماعيل لم يعبأ إلا بتحقيق أحلامه وطموحاته.. فندم كثيرا على إهماله وتغاضيه عن مراقبة ومحاسبة وزرائه والمحيطين به وعلى رأسهم المفتش كما سنرى فيما بعد.

الأزمات والكوارث الطبيعية

فن إدارة أو[18] احتواء الأزمات.. لم يعرف أكاديميا فى عهد إسماعيل وإن اضطر مرارا للتعامل مع عناصره بما فيها التهديد المفاجىء وضيق الوقت والاجتياح ونقص المعلومات.. كان ذكاء إسماعيل عاطفيا يخترق الجدران التى كانت تفصله عن الشعب.. فكان يستشعر دائما معاناتهم بالرغم من ذلك لم يعصمه ذلك الشعور من كونه ديكتاتورا مستنيرا يمتلك قلبا من الذهب الخالص. تعرضت مصر فى عهده لوباء الماشية والخيل الذى قدم إلى مصر عن طريق النمسا وإيطاليا وكان يفتك بالماشية.. فنقص الغذاء وشح الطعام واضطر إسماعيل إلى استيراد «الزبد» من الأناضول وتم توزيعه على الفقراء مجانا.

وما أن رفع الشعب رأسه حتى اجتاح وباء البغال والحمير والبلاد ففتك بأعداد هائلة منها واستمرت المعاناة.

وفى عام ١٨٦٣ تعرضت منطقة الحمزاوى وكانت من أشهر المناطق التجارية فى القاهرة إلى حريق كبير التهمت فيه النيران معظم المتاجر فلم تكن مياه النيل قد وصلت إلى القاهرة فكانت الخسائر فادحة فاستدعى إسماعيل التجار الذين أضيروا من الحريق وقام بإقراضهم الأموال وأمهلهم عشر سنوات حتى يتمكنوا من إعادتها، أما الكوليرا فقد عرفت طريقها إلى مصر مرات عديدة منذ عهد محمد على (١٨٣١ -

١٨٤٨ - ١٨٥٠ - ١٨٥٥) وعلى الرغم من اهتمام إسماعيل بالرعاية الصحية وردم البرك والمستنقعات فقد انتشر وباء الكوليرا عام ١٨٦٥ بصورة كبيرة قادما من مكة المكرمة بصحبة الحجاج العائدين من الأراضى المقدسة فتعطلت المصالح الحكومية وعم الذعر والخوف وبلغت جملة الوفيات أكثر من ١٢٤٢٩شخصا خلال شهرين فقط وهو رقم كبير فى ذلك الوقت، أدى إلى تعطيل شئون التجارة مع أوروبا نسبيا ولكن سرعة الإيقاع التى كانت تتسم بها إدارة إسماعيل نجحت فى احتواء تلك الأزمات التى اكتملت مصائبها بفياضات النيل المتكررة (١٨٦٣ - ١٨٦٦) فكانت سببا لارتفاع الأسعار وشح الحبوب وهدم بعض الجسور وإغراق الأراضى الزراعية وفى عام ١٨٦٩ ارتفعت مياه النيل كما لو كانت مياه المحيط الأطلنطى وأغرقت سواحل مصر فتلف الزرع وانهارت الجسور وأصبحت مصر مهددة بالغرق وموعد افتتاح قناة السويس على الأبواب.. فأصدر أوامره إلى كل مرؤسيه بالعمل ليلا ونهارا لإصلاح ما أتلفته هذه الكوارث وكان يعكف على مراقبة بعض هذه الأعمال بنفسه وحين قدمت أوجينى فى أكتوبر قبل احتفالات القناة بشهر تقريبا كان يصحبها للتنزه فى يخته الخاص فى النيل ويقوم بمراقبة إصلاح الجسور وتقويتها على وجه السرعة قبل أن يدركه موعد افتتاح القناة ويحصره فى ممر الأزمات، ومثلما فاض النيل فقد شح وعصى فى مرات

أخرى.. وكانت معاناة الشعب واحدة فى كلا الحالتين نقص فى الطعام وغلاء فى الأسعار وفى عام ١٨٧٧ توفى أكثر من عشرة آلاف شخص فى جرجا وقنا وإسنا نتيجة للمجاعة الشديدة التى تعرضت لها البلاد.. وكان من تبقى على قيد الحياة من الفلاحين يعتمدون فى غذائهم على الأعشاب البرية وكان لابد من احتواء الأزمة وإعداة التوازن إلى الحياة العامة. ففى عام ١٨٦٦ كان سعر الجنيه الانجليزى يساوى ١٧٦قرشا وفى عام ١٨٦٩ ارتفع سعره ليصبح ١٩٩قرشا وحين سافرت زوجة الجنرال الانجليزى «جوردون» حاكم السودان الموفد من قبل اسماعيل وصفت الوجه القبلى بأن الكآبة والبؤس يخيمان على وجوه قاطنيه!!

تعديل امتيازات قناة السويس

«إنى أريد أن تكون القناة لمصر لا أن أكون مصر للقناة» لم يكن غرضى فى مسألة القناة المساس بالمشروع نفسه ولا بمصالح المساهمين الفرنسيين.. فلم يحفزنى إلا شعور الحرص على سعادة ورفاهية بلادى، من اليوم الأول لولايتى أعلنت عزمى على إلغاء السخرة ولم يعد فى وسعى أن أعمد إلى ما عمد إليه جدى (محمد على) دون التعرض لعواقب وخيمة، وقد أخذ عليه هذا العمل أخذا مريرا بعد سنة ١٨٤٠، فأعمال القناة تقتضى وحدها تسخير ٦٠ألف رجل شهريا.

- لم يكن إسماعيل راضيا تماما عن بعض البنود التى منحها سعيد باشا لـ«ديليسبس» فى عقد امتياز قناة السويس ورأى أنه من الأفضل المفاوضة مع الأطراف المعنية لتعديل هذه البنود وإلغاء بعض الشروط من أجل المصلحة العامة وأهم بنود استوقفه هو بند تسخير العمال والفلاحين لإتمام أعمال الحفر بالقناة ووفقا لعقد الامتياز كان يتحتم على الحكومة المصرية تقديم ٤/٥ العمال من المصريين وكان ذلك يتنافى مع طموحاته بإلغاء السخرة، وقرر أن يتفاوض أيضا على كيفية إلغاء البند الخاص بملكية شركة القناة للأراضى التى تحتاج إليها مقابل تعويض تدفع لأصحابها أثناء شق ترعة المياه العذابة التى كان من العدل أن تتحمل الشركة كافة نفقاتها ولكن الشركة حصلت على حق بيع الماء العذب لرى الأراضى وكان لها حق فرض رسوم على السفن التى تمر فيها لذلك استند فى دعواه إلى قوانين الملكية العقارية فى الدولة العثمانية والتى تتبعها مصر وهى لا تجيز للأجانب ملكية الأراضى والعقارات ففى ذلك انتقاص لسيادة الحكومة المصرية أيضا فى البداية لم ينجح فى التوصل إلى اتفاق مع الشركة وتمسك ديليسبس ببنود الامتياز وأسرعت الشركة طلبا لمساعدة نابليون الثالث للتحكيم بين الطرفين ووافق الخديوى فأنتفت الموضوعية والحياد فالشركة فرنسية وهى جزء من مصالح فرنسا فجاء الحكم جائرا حيث ألزمت مصر ١٨٦٦ بتعويض الطرف المتضرر

(الشركة) من إلغاء بنود الامتياز (السخرة) وتنازلت الشركة عن حقوقها فى ترعة المياه العذبة على أن تقوم الحكومة المصرية بحفرها وأرجعت الشركة إلى الحكومة الأراضى الزائدة عن حاجتها كل ذلك مقابل تعويض دفعته الحكومة المصرية قدر بـ٨٤مليون فرنك وهو مبلغ يكاد يقترب من نصف رأسمال الشركة.. ولكنه كان حاسما وسريع القرارات قليل الصبر.. لم يحاول أن يطيل أمد المفاوضات مع الشركة ويتمسك بشروطه وإذ كان قبول حكم نابليون الثالث ودفع التعويضات من أخطاء إسماعيل فإن الخطيئة اكتملت معالمها حين أقدم على بيع نصيب مصر من أسهم القناة (١٧٦٦٠٢سهما) والتى اشترتها مصر فى عهد سعيد وكان من الممكن أن تستفيد منها وتنعم بخيراتها ولكنه اضطر إلى بيعها للحكومة الانجليزية عام ١٨٧٥ حين تراكمت ديونه وعجز عن السداد.. وتمت صفقة البيع مقابل ٤ملايين جنيه استرلينى وقد بلغت قيمة هذه الأسهم عام ١٩٢٩ (٧٢مليون جنيه) ويمكننا أن نؤكد أن حفر قناة السويس كبد مصر خسائر فى الأرواح قدرت بالآلاف ووفقا للبيان الرسمى الذى قدمته الحكومة إلى مجلس الشورى عام ١٨٧٦ بلغ مجموع ما دفعته مصر فى إنشاء القناة ١٦,٠٧٥,١١٩جنيها مصريا.. تلك القناة كانت سببا لاحتلال الانجليز لمصر لأكثر من سبعين عاما.

الإصلاح الإدارى

إصلاح التنظيم الإدارى فى الحكومة المصرية كان من أهم الأولويات فى عهد اسماعيل، حيث قسمت مصر إلى ثلاث عشر مديرية وتسع محافظات ويقوم «المجلس الخصوصى» بمعاونة إسماعيل فى إدارة شئون البلاد وهو المنوط بوضع القوانين واللوائح والقرارات.

وفى عام ١٨٧٨ أجبر إسماعيل نتيجة لضغط الدول الأجنبية التى كانت تهدف إلى تقييد سلطاته إلى إنشاء مجلس نظار (وزراء) يتولى مسئولية إدارة الحكومة فكان نوبار باشا هو أول رئيس له.

قام إسماعيل بتمصير الإدارة والاستعانة بالعمال والفلاحين وإقصاء الأتراك فى المصالح الحكومية إلى حد كبير وفى عام ١٨٧٠ أصدر إسماعيل أوامره بتعميم استخدام اللغة العربية فى كافة المصالح والدواوين وإنشاء قلم للإحصاء، فى عام ١٨٧٥ بدأت مصر فى اتباع التقويم الأفرنجى، حين اتسع حجم التعاملات مع أوروبا حيث كان التقويم القبطى والهجرى هو السائد فى البلاد واتباع النظام المترى للمقاييس والموازين.

واهتم اسماعيل أيضا بالإصلاح الاجتماعى الذى يعمل على إعلاء شأن قيم التقدم والتحرر من العادات والتقاليد البالية تمهيدا للمضى فى خطته الطموحة «تحديث مصر» فأمر

بإغلاق أماكن لعب الميسر التى كانت منتشرة فى الاهرة والإسكندرية ويرتادها أفراد الجاليات الأجنبية المقيمين فى مصر وحرصا منه على الصالح العام والعواقب الوخيمة لانتشارها قام بإغلاقها نهائيا عام ١٨٦٤ وعمل كذلك على مكافحة التشرد وعهد إلى مشايخ الحارات بمتابعة المتشردين وإدخالهم فى الحرف المهنية ومجازاة من يهمل من المشايخ واجبه وعلاج المصابين بالاستبالية هذا نص ما ذكر فى الأمر الكريم إلى ديوان الداخلية عام ١٨٦٦./

وإلى إسماعيل يرجع الفضل أيضا فى تشكيل المجلس البلدى أو بلدية (القاهرة) التى قام بفصل إيرادتها ومصروفاتها عن وزارة المالية.. وجعلها مستقلة ماليا شأنها فى ذلك شأن كل المدن الأوروبية وكان يهدف إلى صيانة «باريس الشرق» وإيجاد مجلس بلدى متفرغا لرعاية شئونها وتنميتها.

وحفاظا على الأرواح والممتلكات والمال العام.. أسس إسماعيل قسم المطافئ بالقاهرة واهتم بتنظيم المرور فى مصر وإصلاح السجون والاهتمام بنظافتها وتقسيمها إلى ثلاث درجات لمرتكبى جرائم القتل سجن مخصوص يليهم السارقون ثم أصحاب الدعاوى المدنية وطالب بترميم السجون وإصلاحها وبناء الجديد منها إذا لزم الأمر وفى عهده تم استعمال طوابع البريد عام ١٨٦٥ وقامت الحكومة بشراء مكاتب البريد الإيطالية وافتتحت مكاتب مصرية فى استانبول وجدة ونابولى

وبيروت وحفاظا على الصحة العامة تم إنشاء السلخانات فى القاهرة والإسكندرية.

الزراعة والحياة الاقتصادية

«إن الزراعة والفلاحة هما أساس تقدم بلادنا، والاهتمام بالزراعة على أحسن صورة يتوقف على إنشاء القناطر والترع والجسور لذلك اقتضت المصلحة تشكيل نظارة باسم ديوان الأشغال العمومية وإحالة القناطر الخيرية إلى هذه النظارة».

وهكذا تم تشكيل نظارة الأشغال ١٨٦٤ وهى التى أنشئت أكثر من ١١٢ترعة أهمها (الإسماعيلية والإبراهيمية والبحيرة) وبلغ مجموع الكبارى التى شيدتها أكثر من ٤٢٦كوبرى فى الوجه القبلى والبحرى وقد شهدت السنوات الثلاث الأولى من عهد إسماعيل رواجا كبيرا فى سوق القطن المصرى الذى تم تصديره إلى الدول الأوروبية أثناء نشوب الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) حيث ارتفع سعره وزاد طلبه نظرا لانقطاع تصدير القطن الأمريكى إلى أوروبا ولكن هذا الحال لم يستمر كثيرا وبعد انتهاء الحرب عاد السعر للانخفاض مرة أخرى فاهتم إسماعيل بتحديث الزراعة وتنويعها وأنشأ نظارة الزراعة عام ١٨٦٥ وإصدار أوامره بإعفاء الآلات الزراعية من الرسوم الجمركية وتم التوسع فى زراعة قصب السكر.

لم يختلف إسماعيل كثيرا عن جده محمد على فقد كان هو أيضا أكبر مالك للأراضى الزراعية بمصر التى قدرت عام ١٨٧٦ بأكثر من ٣٥٠ألف فدان من الأراضى الجيدة بالوجه القبلى، بالإضافة إلى ١٠٠ألف فدان من الأراضى البور.. وعلى الرغم من ادعاءات سعيد باشا الذى وصف بأنه صديق الفلاح فلم يكن عهد إسماعيل أيضا ولا سلفه سعيد العهد الذهبى للفلاح وقد عانى معظمهم من الضرائب التى كانت تفرض عليهم وتجبى قبل موعدها سدادها دون انتظار جنى المحصول فقد كانت القروض سوطا موجعا يلهب ظهر الحكومة ويلزمها بالسداد فى أوقات محددة، كما كانت مشاريع إسماعيل التوسعية فى مصر تبتلع عمالها من حفر الترع والرياحات والمصارف إلى رصف الطرق وكلها أعمال كانت تفتقد لعنصر الأمان آنذاك لذلك كانت نسبة الوفيات كبيرة والبؤس من نصيب الجميع.

أما الصناعة فكانت ماتزال فى فجر تاريخها حيث أسست الحكومة فى عهده مصانع عديدة للنسيج والطوب والدباغة والزجاج والورق وسبك المدافع واستخراج زيت البترول من البحر الأحمر وأثناء زيارته لانجلترا شاهد معامل الألبان فى قصر وندسور وأبدى إعجابه الشديد بها، فقامت الملكة فيكتوريا بإرسال رسومات المعامل إليه لتصميمها فى مصر.

السكة الحديد والموانئ

أنجزت شبكة السكة الحديد المصرية فى عهد إسماعيل وحتى عام ١٨٧٦ أكثر من ١١١٢ميلا أى (١٧٨٠كيلومترا) وهو رقم تجاوز فى ذلك الوقت شبكات السكة الحديد فى العديد من البلدان الأوروبية (سويسرا ـ هولندا ـ الدانمارك ـ رومانيا ـ تركيا ـ اليونان) بالإضافة إلى ٥٧كيلومترا تم الانتهاء منها لتصل وادى حلفا بالخرطوم فى إطار خطته لربط السودان ولكن هذا المشروع تعثر لم يكتمل كما سنرى فيما بعد.

تجديد الأسطول البحرى

اتبع إسماعيل شعار البحرية الخالد «البر لمن ملك البحر» فأصلح ميناء الإسكندرية وقام بتوسعته وأنشأ حوضا عائما لإصلاح السفن وأقام حاجزا للأمواج يمتد من رأس التين إلى العجمى، بالإضافة إلى بناء أرصفة الشحن والتفريغ وإيمانا منه أن مصر هى فنارة الدولة العثمانية فقد قام بإنشاء ما لا يقل عن خمسة عشر فنارا فى سواحل البحر المتوسط والأحمر وخليج عدن ومن مآثر إسماعيل احياؤه لترسانة الإسكندرية وإنشائه مدرسة للبحرية استقدم لها أكفأ المدرسين من أوروبا ويمكن حصر الأسطول المصرى فى عهده بـ١٤سفينة حربية ضخمة أشهرها المحروسة، كما أنشأ شركة للملاحة التجارية

سميت العزيزية نسبة للسلطان عبدالعزيز لنقل المواطنين إلى موانئ البحر المتوسط والأحمر فكان لها أثر كبير فى نشاط حجم التجارة بين مصر وأوروبا.. ويتركز الحوار التقليدى بين تركيا وانجلترا منذ عهد محمد على تحجيم جهود مصر فى زيادة أعداد الأسطول وتدعيمه وهو الأمر الذى كان يثير شكوك الباب العالى.

من جهة ومخاوف انجلترا من جهة أخرى التى لم تكن تخشى إلا مصالحها والتى ازدادت أهميتها الاستراتيجية فى مصر بعد افتتاح قناة السويس وخاصة أن فرنسا كانت هى سيدة الموقف ويكفى انجلترا استفزازا امتيازات قناة السويس والعلاقة الحميمة التى كانت تربط الخديوى بنابليون الثالث.. ولكن بعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا فى الحرب السبعينية ١٨٧٠ وبما أن الهزيمة جنازة خاصة فلم يشارك الخديوى صديقه الامبراطور الأحزان والدموع.. فالمصالح السياسية هى العملة المشتركة بين كل الزعماء لذلك اتجه إسماعيل إلى ألمانيا القوية وتم تجهيز الجيش وإعادة ترتيبه مرة أخرى وفقا للعسكرية الألمانية الصارمة وتقلص النفوذ الفرنسى فى مصر تدريجيا.. وما ترتب على ذلك من تعديل اللوائح والقوانين وتغير الأسلحة والزى العسكرى فى الوقت الذى تسلل فيه الثعلب الانجليزى الماكر إلى البلاد وف ١٨٧٠ عهد الخديوى إلى مجموعة من الضباط الأمريكيين برئاسة الكولونيل (ستون) وهو أحد القادة

الذين اشتركوا فى حرب التحرير الأمريكية ـ بمهمة تأسيس «هيئة أركان الجيش المصرى» فكتب تقريرا عن حالة الجيش جاء فيه «لقد درست شئون الجيش المصرى بعناية كبيرة مدة ستة شهور راغبا فى تعرف مزاياه ونقائصه وفكرت كثيرا فى حالته وفيما يمكن إدخاله من التعديلات لرفعه إلى مستوى أفضل الجيوش فى العالم.

إن أليات المشاة جنود يثيرون الإعجاب فهم حسنو الهيئة أقوياء نشطاء يتحملون التعب ويخضعون للنظام، لهم خبرة طيبة فى استعمال السلاح والمناورات والملبس والمسكن جيدان أما الأسلحة فهى من الطراز الأول وفى آليات الفرسان تجد جنودا ذوى هيبة وتجرى التمرينات بانتظام ومدفعية الميدان ينقصها السرعة فى الحركات والرماية ولا أجد بعد ذلك أركان حرب لا عامة ولا خاصة إن الجسد موجود برأسه وذراعيه ويديه وساقيه وقدميه ولكن لا أثر للأعصاب، فلا يوجد فى الجيش: فرقة للهندسة ولا فرقة للإدارة ولا هيئة أركان المدفعية ولا إدارة النقل. فكل شىء تابع مباشرة لناظر الجهادية وهناك مسائل تفصيلية تتعلق بالتمرين ولكنها لا تذكر فى نظرى إزاء ما بهذا التنظيم من فساد».

اتبع إسماعيل إذن سياسة متوازنة عسكريا حين هزمت فرنسا وسعى لتطوير الجيش وتحديثه، استعدادا لتحقيق خطته

التوسعية فى إفريقيا كما سنشاهد بعد قليل ولكن المتبوع «مصر» استمرت رهن إشارة (التابع) الدولة العثمانية مهما اختلفت المسميات واختلفت الأسباب، فمصر ولاية عثمانية مستقلة وعلى إسماعيل تلبية نداء السلطان وفى ذلك يقول:

«إن الدولة القوية التى تستحوذ على منابع النيل تملك دائما مفتاح مصر السفلى، إن الخديوية المصرية تحارب منذ وقت طويل فى دارفور وخط الاستواء وهور ولاحبشة والجميع يعلم عذرها من هذه الناحية ومن ناحية ضائقتها المالية وعلى الرغم مما ستئول إليه حالتنا المالية فقد تركت كل شىء وصرفت النظر عن جميع الاعتبارات إلا التضحية وخدمة الدين والدولة، فالحصول على الرضا العالى السلطانى وخدمة الدولة والأمة هما وظيفتاى المقدستان».

إنها معادلة إرضاء سيدين فى وقت واحد، فلكى ينعم إسماعيل بالرضا السلطانى كان لابد من تقديم الخدمات وفروض الطاعة والولاء ويقوم بتعبئة الجيش وتتكرر مأساة الحرب بلا قضية وما يترتب عليها من آثار سلبية محبطة.. تزعزع الولاء للحاكم.. وتوقظ الأحقاد ضد الطبقة الحاكمة المترفة ومن خلال التجربة وأصبح الشعب المصرى على يقين بأن مصالح الباب العالى تعلو فوق أى اعتبارات أخرى والدليل التاريخى اشتراك مصر فى حملة عسكرية أرسلت لإخماد ثورة

أمير عسير (إحدى مدن المملكة العربية السعودية) والذى كان يسعى لضم تهامة باليمن فاستنجد السلطان عبدالعزيز بالخديوى الذى لبى النداء فى الحال.. وفى عام ١٨٦٦ عجزت تركيا عن إخماد ثورة كريت فأرسل إسماعيل أكثر من خمسة آلاف مقاتل لمقاومة الثوار وتردد اسم محمود سامى البارودى كأحد ضباط هذا الجيش الأكفاء قبل أن يصبح من زعماء الحركة العرابية وحاربت مصر للمرة الثالثة فى البلقان وعلى حدود الصرب كان أكثر من سبعة آلاف مقاتل مصرى يقاتلون دفاعا عن وحدة السلطنة العثمانية العليلة وكان النصر حليف جنود مصر فى الحروب الثلاث.. فى عام ١٨٧٧ كان السلطان عبدالحميد الثانى يتربع على عرش تركيا بعد أن قتل السلطان عبدالعزيز ووقعت حرب البلقان بين روسيا وتركيا.. وتكرر طلب الباب العالى لإرسال قوة من الجيش واعتذر إسماعيل فى البداية متعللا بمشاكله المالية وعجزه عن سداد الديون.. لكنه لم يصمد طويلا تحت ضغط وإلحاح الباب العالى.. فى وقت عصيب ترصده فيه دائنوه ولم يكن بحاجة لعدو جديد وأرسلت مصر قوة مؤلفة من ١٢ألف جندى بقيادة ابنه الأمير حسن وكانت هذه الحرب فى واقع الأمر عبئا لا تحتمله أحوال مصر المالية وكانت سببا لفرض «ضريبة الحرب» التى وافق عليها مجلس شورى النواب وقدرها عشرة بالمائة من مجموع الضرائب لتمويل نفقاتها وانتصرت تركيا أيضا فى هذه

الحرب.. ولم تحدثنا الوثائق عن خسائرنا المالية والبشرية!!
ولكن الشيء المؤكد أن الخديوي لم يكن أمامه خيار للرفض!!

الفتوحات الإفريقية

حان الوقت ليفهم الجميع أن الفرق[١٩] في اللون لا يحول الإنسان إلى سلعة والسودان مصدر الداء ففيه بعض الأجانب يمارسون أفظع أنواع السبي والنخاسة لذلك يجب أن تصدر الحكومات الأوروبية إلى قناصلها ما يلزم من تعليمات للقضاء على هذه التجارة، لأن العبيد يعتقدون أني أشجع الفظائع التي يرتكبونها (الأجانب).

وهذا ما ينفرهم مني فلابد من القضاء على هذه التجارة المخزية يا جوردون. فالسودان منفصل عنا وينبغي أن نبذل الجهد في إنمائه ولا يتسير لنا ذلك إلا بعد الوصل بين البلدين عن طريق إنشاء خط حديدي سأنشئ هذا الخط مهما كلفني ألا تعتقدون أن السودان يساوي أكثر من عشرة ملايين؟

المصريون لديهم فكرة سيئة عن السودان أنهم يتصرورن أني أوفدهم إليه للتخلص منهم، جميع الضباط يحبون العاصمة وقد أصبحت جذابة بالفعل وستزول هذه الأوهام بإنشاء الخط فأنا أعتزم النهوض بالسودان!!».

مختلفة وجديدة وليست ببعيدة كانت طموحات إسماعيل فى السودان وأفريقيا.. أليس متفردا عن أفراد أسرته العلوية؟ فلماذا يتجه شمالا أو شرقا حيث الصدام والصراع مع الدول الثلاث (انجلترا - فرنسا - تركيا).. وقد أفادته تجربة محمد على حين تحالف مع فرنسا وخذلته.. أغرته إفريقيا الفتية وكان يراها القارة المضيئة بكنوزها والمثيرة بغموضها واكتشافاتها الجغرافية وكان لمصر علاقة بوادى النيل وإفريقيا ولكنها انقطعت منذ انهيار مصر القديمة على الرغم من أنها تمثل أبواب مصر الجنوبية إلا أنها لم تجدد إلا فى عهد محمد على.. وأهملت مرة أخرى فى عهدى (عباس الأول وسعيد) وفى الولايات المتحدة كان إبراهام لنكولن يشيع نعش العبودية ويحتفل بميلاد إعلان التحرير ١٨٦٣ فلماذا لا يكون هو أيضا إسماعيل محرر العبيد؟

لماذا لا يتم فتح السودان فى أفريقيا ذلك الإقليم العصى الذى كان يتبع السلطنة العثمانية شكليا؟ الذى قال عنه شريف باشا «إذا تركنا السودان فإن السودان لا يتركنا» أنه الجوار الاستراتيجى الذى فرض روابط الأخوة والدم واللغة ومنذ عام ١٨٦٣ أرسل أوامره إلى حكمدار السودان لمحاربة الرقيق وتمكن جعفر باشا صادق عام ١٨٦٥ من احتلال فاشودة وسد مداخل النيل الأبيض على النخاسين واسترد ميناءى سواكن ومصوع

على البحر الأحمر وكانتا من أهم موانئ الرقيق فى أفريقيا فى ذلك الوقت كانت انجلترا من دعاة محاربة الرقيق حيث أشار على إسماعيل بإنشاء مركز فى «جندكورو» للسيطة على مداخل النيل الأبيض الجنوبية للقضاء على تجارة الرقيق فى أعالى النيل ومملكة أوغندا والمنطقة الاستوائية.. وتم فتح السودان بدوافع إنسانية وموافقة إنجليزية، وفى عام ١٨٦٩ تم تعيين السير صمويل بيكر الانجليزى حكمدارًا اللسودان بتوصية من ولى عهد انجلترا الأمير إدوارد وكانت له سلطات مطلقة فى السودان لمكافحة الرقيق وأباطرته الذين كانوا يتواطأون مع رجال الدولة فى عهد عباس وسعيد باشا فى الخفاء فقد كانت تجارة الرقيق رائجة.. وفى عام ١٨٧٤ انتهى عقد «بيكر» الذى فرضته انجلترا على الخديوى ضمن خطتها لتقويض سلطاته والتدخل فى شئون مصر السياسية وكان أول أجنبى يتولى هذا المنصب ولم يكن بالطبع أمينا إلا على مصالح بلاده.. لذلك أهمل السودان والأقاليم التابعة له.

وخلفه الجنرال «تشارلز جوردون» وقد استمر حكمدارًا للسودان حتى عام ١٨٧٩ حيث قدم استقالته فى عهد توفيق وقد نتج عن هذه التوسعات الأفريقية تورط مصر فى الحرب الحبشية التى استمرت عاما ١٨٧٥ ـ ١٨٧٦ أبيدت فيها فرقة بأكملها وكان أحمد عرابى فى مقدمة ضباطها وكانت

الخلافات بين القادة الأتراك والأمريكيين سببا فى هزيمة الجيش الذى زلزلت أركانه، وعلى الرغم من أن حرب الحبشة هى حرب جبلية يصعب خوضها على أقوى الجيوش لكن اندفاع إسماعيل وتهوره فى تلك الفترة الحرجة ماليا.. أعطى الفرصة كاملة لانجلترا لكى تخطط لغزو مصر عن طريق التدخل فى سيادتها تدريجيا ثم فعليا فى ١٨٨٢.

ويؤكد اللورد كرومر هذا الرأى ويقول: «إن إسماعيل إذا كان جادا فى رغبته فى تحرير العبيد، فقد فتح من أراضى السودان أكثر مما يمكنه السيطرة عليه وحكمه وتنظيمه». ولكن ضم السودان كان من أفضل إنجازات إسماعيل وأكثرها واقعية فقد راهن على الفرس الرابح وكان النصر حليفه فى (فاشودة - مديرية خط الاستواء - جندكرو - أوغندا - الدارفور - الهرر - حروبه فى الصومال والحبشة) وبسطت مصر نفوذها على ساحل أفريقيا الشرقى وضمت إلى أملاكها كل البلاد الواقعة حول بحيرتى «فيكتوريا» و«ألبرت» اللتين يشار إليهما دائما عند الحديث عن الاكتشافات الجغرافية فى عهد إسماعيل لكنه خطأ شائع يرجع الفضل فيه إلى الجمعية الجغرافية الملكية بلندن وهى التى أوفدت الرحالين «جرانت[٢٦] وسبيك» عام ١٨٦٢ فى عهد سعيد - قبل أن يتولى إسماعيل واكتشفا البحيرة وأطلقا عليها اسم ملكتهم «فيكتوريا»، ثم التقى السير

بيكر مع جرانت وسبيك وعلم منهما بيكر أنهما لا يستبعدان وجود بحيرة أخرى لم تكتشف بعد... وبالفعل تمكن بيكر من اكتشاف البحيرة التى أطلق عليها اسم «ألبرت» نسبة إلى زوج ملكة انجلترا وذلك فى عام ١٨٦٤ بالجهود الذاتية. ولكن فى عهد الجنرال جوردون حاكم السودان الذى قام إسماعيل بتعيينه ١٨٧٤ خلفا لبيكر قام الضابط الأمريكى شاييه لونج لاذى عين فيما بعد رئيسا للأركان فى الجيش المصرى باكتشاف بحيرة «كيوجا» التى أطلق عليها اسم «إبراهيم» تمجيدا لوالد الخديوى ولكنها لم تعرف جغرافيا بهذا لاسم وعرفت فى الأطالس باسم «كيوجا».

أما عن حكم بيكر وجوردون فى السودان، فقد اتسم حكم بيكر بالتصادمية التى فرضتها جنسيته الانجليزية فلم يكن مرغوبا من الأهالى ومكروها من تجار الرقيق وتكلفت حملة إرساله إلى السودان لمحاربة الرقيق وفتح افريقيا واكتشافها جغرافيا ما يقرب من النصف مليون جنيه.

وكان للأمريكيين الذى استقدمهم إسماعيل لتدريب جنوده دور واضح فى مشروعاته الأفريقية ومن الطريف أن إسماعيل بإسرافه وتبذيره.. كان يوجه من حين لآخر رسائل دبلوماسية الطابع للسير بيكر يدعوه فيها للاعتدال فى النفقات.. حتى يتسنى له تعمير السودان دون الوقوع فى أزمات.. حيث كان

يعيش بيكر عيشة مترفة ومستفزة أحيانا فى أحراش السودان.. أما جوريون.. فقد اتسمت سياسته بالدموية والعنف اللذين كان يرى أنه لابد من اتباعهما لإلغاء تجارة الرقيق وفقا لمعاهدة إلغاء الرقيق التى وقعتها مصر مع انجلترا عام ١٨٧٧ وكانت تتعارض مع مصالح طبقة عريضة ترتبط بتجارة الرقيق ماليا واجتماعيا.. فظهرت الاضطرابات وبدأ الغليان الذى انفجر عام ١٨٨٠ باسم «الثورة المهدية» وقد جاء فى مذكراته المعروفة باسم[٢٧] «يوميات الخرطوم» قوله: «إنى أعيش بأمل أن لن أرى بريطانيا مرة ثانية بما فيها من حفلات العشاء المملة إن عقلى عاجز عن تصور كيف نحتمل مثل هذه الأشياء إنها لعبودية مطلقة!! وإنى لأوثر أن أعيش عيشة الدراويش عند المهدى عن أن أخرج كل ليلة للعشاء فى لندن، أرجو إذا جاء جنرال انجليزى إلى الخرطوم ألا يدعونى للعشاء. لماذا لا يمكن للناس أن يكونوا أصدقاء دون أن يدخلوا معدتهم فى الموضوع!!» هكذا القيم والمبادئ والأهداف والوسائل نسبية متغيرة فمن السخرية أن ينظر جوردون الذى جاء موفدا لمحاربة الرقيق إلى حفلات العشاء فى لندن على أنها عبودية مطلقة!! انتهت حياته فى السودان بقطع رأسه بين الأشجار فى الطريق العام كان ذلك فى عهد توفيق وثأرت انجلترا لجوردون بعد تلك الواقعة من السودان بأكمله واقتلعت ثورة المهدى فى معركة أم درمان!!

وسيطرت مصر على موانئ الصومال والحبشة أيضا وتنازلت تركيا عن بعض منها مقابل فرمان أصدرته لإسماعيل ويقوم بموجبه بدفع الجزية السنوية، أما انجلترا فلم يزعجها كثيرا الوجود المصرى فى السودان وخاصة أن حاكميه (بيكر وجوردون) كانا من رعاياها ويدينان بالولاء للتاج البريطانى.. ولكن هذه السياسة الهادئة لم تدم طويلا وانتهت عام ١٨٨٢ باحتلال مصر.

نجح إسماعيل عن طريق التدريب المستمر واستقدام الخبراء وإرسال البعثات العسكرية والمدارس الحربية التى أنشأها (المشاة - السوارى «الفرسان» - الطوبجية «المدفعية» - مدرسة أركان الحرب بالعباسية - مدرسة صف الضباط - مدرسة قلفاوات الشيش) وفى عام ١٨٧٤ بلغ عدد الجيش أكثر من ٩٣٨٠٤مقاتلين وكان هذا الرقم هو الحد الأقصى للجيش فى عهد إسماعيل والذى انخفض إلى حد كبير طبقا لما جاء فى «تقويم النيل» لأمين باشا سامى إلى ٥٧٠٧٠عام ١٨٧٨ وقت اشتداد الأزمة المالية وبذلك ازدادت قوة الجيش فى عهده بما يقترب من ٨٠٪ منذ توليه الحكم عام ١٨٦٣.. وكما رأينا فهى حروب استنزافية لم تستفد مصر منها شيئا يعوضها عن خسائرها المالية والبشرية - باستثناء السودان الذى تربطنا به وحدة وادى النيل.

المحاكم المختلطة

ثمانى سنوات من المباحثات والمفاوضات استغرقها إعداد مشروع المحاكم المختلطة الذى بدأ العمل به عام ١٨٧٦ للحد من سلطات القضاء القنصلى أو الامتيازات الأجنبية التى كان يتمتع بها الأجانب وغالبا ما كان ينتهى الفصل فى أية قضية مدنية أو تجارية بالتعويض المالى الجائر لصالح الأجنبى، فجاء قانون المحاكم المختلطة ليضع حدا لهذا الاستنزاف المالى عن طريق تعيين قضاة مصريين مع القضاة الأجانب أثناء الفصل فى الخصومات المدنية والتجارية الأمر الذى دعم استقلال مصر وتقوية مركزها بين الدول الأوروبية ولكن هذه المحاكم كانت سببا فى اشتداد الأزمة المالية لأنها دافعت عن حقوق الدائنين الأجانب ضد الحكومة المصرية وأضعفت «مسند الخديوية» كما كان يطلق عليها لأنها ألزمت الخديوى بتطبيق أحكامها وقد تم إلغاؤها عام ١٩٣٧ فى عهد فاروق.

التعليم والنهضة الأدبية والفكرية

صحوة فكرية ونهضة تعليمية وريادة أدبية شهدها عصر إسماعيل الذى كانت شيمته الجرى فى سباق محموم مع الزمن لمواكبة النهضة الأوروبية أو (الفرنسية) فى كافة المجالات..

فبعثت الحياة مرة أخرى فى المدارس الابتدائية التى أغلقت فى نهاية حكم محمد على ولم تجدد فى عهدى عباس الأول وسعيد، حيث لم يعبأ كثيرا بالتعليم كضرورة حتمية للنهوض بالبلاد كما رأينا. أعاد إسماعيل ديوان المدارس (نظارة المعارف) واستطاع على باشا مبارك رائد النهضة التعليمية فى ذلك العهد تحويل الكتاتيب إلى مدارس ابتدائية نظامية وإليه يرجع الفضل فى تقسيم مراحل التعليم الأساسية (ابتدائية وثانوية وعالية) وفى عام ١٨٧٣ كتب بيردسلى قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية الأمريكية يقول: «إن عدد الأوفاد الذكور الذين هم فى سن التعليم يبلغون ٣٥٠ألفا طبقا لتعداد السكان (٢٦٥٠,٠٠٠, ٥نسمة) وعدد الذين يترددون على المدارس ٨٩ألف فتكون النسبة ٢٣,٦٪ وهى نسبة تقل عن نسب بعض الدول الأوروبية ولكنها تفوق تركيا ١٠,٥٪ وروسيا ٥,٧٪ وتقترب من إيطاليا ٣١,٩٪).

واهتم إسماعيل أيضا بتأسيس المدارس العالية التخصصية التى شكلت فيما بعد الأساس الفعلى والنواة الحقيقية لإنشاء الجامعة المصرية فظهرت المهندسخانة ١٨٦٦ ومدرسة الحقوق ١٨٧٨ ودار العلوم ١٨٧٢ ـ ومدرسة الطب والولادة ومدرسة المحاسبة والمساحة ١٨٦٨ ومدرسة الايجبتولوجيا (لتعليم الهيروغليفية) ١٨٦٠ ـ ومدرسة الرسم وفلاحة البساتين ومدرسة التلغراف ومدارس الفنون والصنائع التى تخرج منها

مهندسو البحرية والسكة الحديد.. بلغت ميزانية التعليم فى عهد إسماعيل ٧٥ألف جنيه وكانت فى عهد سلفه ٦آلاف جنيه فقط ولكنها تراجعت فى نهاية عهده بسبب سياسة القروض وضغوطها المستمرة.

كما أنشأ مدرستين ثانويتين «الخديوية» بدرب الجماميز ومدرسة رأس التين بالإسكندرية كما اهتم بتطوير التعليم فى الأزهر وتم إدخال نظام الامتحانات لتخريج العلماء والمدرسين الذين نهلوا من مدرسة الإمام محمد عبده التى عرفت باتجاهاتها الفكرية والعلمية الحديثة، كما انتشرت مدارس الأقباط الأرثوذكس ومنحهم إسماعيل جزءا من أوقافه الزراعية يخصص دخلها للإنفاق على هذه المدارس ورعايتها.. وظهرت أكثر من سبعين مدرسة أوروبية تخرج منها أعداد كبيرة ممن يجيدون اللغات الأجنبية وأصبحوا يشكلون نواة حقيقية لانتشار الثقافات الأوروبية فى مصر.

فى الوقت الذى تراجعت فيه أعداد المبعوثين إلى أوروبا مقارنة بأعدادهم فى عهد محمد على، اهتم إسماعيل أيضا بتعليم المرأة المصرية وثقافتها وإليه يرجع الفضل فى أنه أول من أنشأ مدارس للبنات فى مصر كانت الأولى من نوعها فى الدولة العثمانية، حيث قامت زوجته «جشم أفت هانم» بتأسيس المدرسة السيوفية للبنات عام ١٨٧٣ ثم توالى انتشار مدارس البنات فى مصر.

أعلام الأدب

كوكبة من الأدباء والمفكرين والعلماء من أفضل من أنجبتهم مصر أحاطت عهد إسماعيل بهالة من نور، لم تتكرر مرة أخرى بهذه الوفرة والتميز فى عهد آخر.. ويحار المرء من أين يبدأ؟ وكيف يختار؟ رفاعة الطهطاوى . جمال الدين الأفغانى . محمد عبده . على باشا مبارك . محمود سامى البارودى . عبدالله النديم . الشيخ على الليثى . إبراهيم اللقانى . إبراهيم المويلحى . عبدالله أبو السعود . أديب إسحاق . محمد عثمان جلال . الشيخ حسن الطويل.

الصحافة

أبو نظارة هى صحيفة المعارضة الرئيسية فى عهد إسماعيل تلك الصحيفة التى أصدرها يعقوب صنوع وهو مصرى يهودى اعتنق الإسلام وكان يتمتع بالحصانة القنصلية لأنه حامل للجنسية الإيطالية وهكذا خيل إليه أنه يستطيع أن يكتب ما يشاء وينتقد من تصرفات إسماعيل ما يجعله آمنا من بطشه ولكن المستبد المستنير لم يتسع صدره لأى نقد فى تلك الفترة من فجر الديمقراطية الوطنية والحركة القومية فتم إبعاده من مصر عن طريق تدخل القنصلية الإيطالية.. فزاده ذلك إصرارا وعزما على إصدار الصحيفة من باريس باللغة العربية وإرسالها

إلى مصر لتباع سرا بالآلاف وتصبح من أكثر الصحف رواجا وعلى الرغم من هذا القمع الذى كان طبيعيا ومتوقعا فى تلك الفترة الزمنية.. فقد انفرد عصر إسماعيل بالريادة الصحفية التى تفوقت فيها مصر على المنطقة العربية.. بل والسلطنة العثمانية.. حيث بلغ عدد الصحف التى صدرت بين عامى ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ ما يقرب من أربعين صحيفة، صدر منها ثلاث وعشرون صحيفة باللغة العربية فكانت بحق من أهم دواعى الصحوة السياسية.

من جهة أخرى اجتذبت مصر «المتأورية» نخبة من أدباء ومثقفى الشام وكانت سياسة الخديوى ترمى إلى احتضانهم لمقاومة الباب العالى حيث فر معظمهم من حالة التحجر والجمود الفكرى اللتين كانتا سائدتين فى البلاد الخاضعة للسلطنة العثمانية.

فقدم إلى مصر سليم وبشارة تقلا وقاما بتأسيس الأهرام عام ١٨٧٥ لتكون أول صحيفة سياسية فى مصر وجاء سليم نقاش وأديب إسحاق وفى عام ١٨٧١ قدم إلى مصر أشهر لاجئ فكرى وواحدا من أهم أعلام عصره هاربا من تعنت الباب العالى إنه جمال الدين الأفغانى الداعية والمفكر الإسلامى وصاحب التيار الإصلاحى ليقذف بحجره فى بحيرة الحيالة السياسية ولاأدبية فيحرك دوائرها ويخرج منها للمرة الأولى اسم جريدة «مصر الفتاة» تعبيرا عن الحركة السياسية

التى كانت تحمل نفس الاسم وقد اتخذت من الثورة الفرنسية ومبادئها شعارا لها (الحرية والإخاء والمساواة) وأسس الأفغانى أيضا الحزب الوطنى الحر والمحفل الماسونى عام ١٨٧٧.. بالاشتراك مع شريف باشا على غرار المحافل الماسونية فى ألمانيا والتى احتضنت الجماعات الثورية السرية آنذاك.. ومن العجيب أن المحفل الماسونى الذى أنشئ فى مصر كان يجمع بين عنب الشام وبلح اليمن فجاء كوكتيلا سياسيا فريدا يضم الإمام محمد عبده. الأفغانى. سعد زغلول. بطرس غالى. سليم نقاس والمفاجأة الكبرى الخديوى توفيق (كان مايزال واليا للعهد) وزعيم الثور العرابية فيما بعد أحمد عرابى!!! وبعض ضباط الجيش إلى هذه الدرجة نشطت الحياة السياسية عن طريق الصدمات الكهربائية التى أحدثها قدوم جمال الدين الأفغانى إلى مصر.. وكان هو العقل المدبر وراء ظهور العديد من الصحف التى نادت بالديمقراطية وطالبت بوضع دستور على غرار النظم الأوروبية.. وانتقاد السياسة المالية التى أوقعت مصر فى بئر الديون المظلم.. وبدأت هذه الصحافة الشابة تتحدث عن أهمية إعمال العقل وفتح الباب للاجتهاد فى عبارات جديدة لامعة نجحت فى جذب الجماهير وإثارة فضولهم وتكوين بذور رأى عام وليد.

قد يسأل سائل ما موقف إسماعيل.. وهل كانت لديه صحيفة خاصة؟ فى بادئ الأمر كان اسماعيل فخورا بتقدم

مـصـر فى أى مـجـال من المجـالات طالما أنهـا تحـاكى النمـوذج الأوروبى، ولكن تحـمل النقـد وتوجيـه النصح من الطبـائع التى يحتملها البشـر بتحفظ شـديد.. مهما ادعينا غير ذلك.. أما قـانون الملوك الشـائع فهو يعـانى من حسـاسـية مفـرطة ضد كلمة «لا» أو عبـارة «هـذا خطأ» ولم يشـذ إسـمـاعـيل عن القـاعـدة.. فـإذا نظرنا إلى «الوقـائع المصـرية» سنجـد أنهـا تخلصت فى عـهـده من السـجع المتكلف والاسـتطالـة المملة وتنوعت مـادتهـا التـحـريرية بما يقـربهـا من الصـحف العـادية إلى جـانب اسـتـمـرارها فى نشـر «قـوانين ولوائح البـلاد على أسـاس أنهـا الجريدة الحكومية».

وهنا لنا وقفة صغيرة، فمن المألوف أن كل شىء كان يثبت فى الوقـائع أو الجـريدة الرسـمـيـة هو الحـقـيـقـة بعينهـا.. ولكن الخبـرة التاريخـية علمتنا أن الكتـابة فى الوقـائع أو غيـرها تتم بصـورة انتـقـائيـة فـمن المؤكـد أن هناك أزمنـة صـامـتـة ومـواقف محددة وصفحات بيضـاء ملأتهـا تفاصيل أخرى يريد أن يضعها أو يحذفها الحاكم وهكذا تتسرب الحقائق عبر السنينس وهو مـا يعـرف بالمسكوت عنه فى التـاريخ والذى يكون فى بعض الأحيان هو التاريخ الحقيقى!! وعلى كل، فقد أصدر إسماعيل جـريدة «وادى النيل» وهى الجـريدة شـبـه النـاطقـة باسـمـه لكى تتولى الرد على هجـمـات جـريدة «الجوائب» التى كـانت تصـدر فى تركيا ويرأسها أحمد فارس الشدياق.. كما اهتم إسماعيل

اهتماما خاصة بمجلة «روضة المدارس» وهى مجلة ثقافية متخصصة وعهد إلى رفاعة الطهطاوى برئاسة تحريرها. وإذا انتقلنا إلى السلوك الاجتماعى فهو حصاد آلاف السنين من العادات والتقاليد والممارسات لا يتم ارتداؤه ولكنه يتشرب عبر السنين من خلال الممارسات العملية الجادة والأخذ بجوهر الحضارة الغربية وليس بقشورها وذلك ما لم يدركه الخديوى وماتزال الفجوة واضحة بين الأزياء والسلوك!!

وفى عام ١٨٧٠ أسس دار الكتب ونشطت حركة الأدب والشعر والترجمة والغناء.. وعمل على إحياء المطبعة الأميرية وأنشأ مصنعا للورق على غرار المصانع الأوروبية.

وفى مجال العلوم والهندسة والرياضيات: نبغ عظماء مصر من أمثال مصطفى بهجت باشا وعلى باشا مبارك وحسين فهمى المعمار ومحمود باشا الفلكى وهو من أنبغ علماء مصر فى الفلك والرياضة قام بترجمة العديد من الكتب الفرنسية فى الرياضيات وهو أولعالم مصرى يكتشف آثار الإسكندرية وموقع سورها القديم تولى نظارة المهندسخانة والرصدخانة أيضا.. وعمل وكيلا للجمعية الجغرافية الخديوية ونذكر أيضا بإيجاز شديد على باشا مبارك ناظر المعارف صاحب الموسوعة الشهيرة «الخطط التوفيقية» التى أرخ فيها للقاهرة منذ نشأتها فى ستة مجلدات.

ومن شدو هذه الطيور المهاجرة والبلابل الوطنية المغردة تشكلت سيمفونية الحركة القومية تحت شعار «مصر للمصريين» بتنويعات مختلفة على أنغام لحن وطنى متميز ساهم فى إرساء قواعد النهضة الأدبية والفكرية وتهيئة المناخ الملائم لإحداثها الطفرات التعليمية والاجتماعية والسياسية التى شهدتها البلاد فى عصر إسماعيل.

مجلس الشورى والحياة النيابية

عرفت مصر أول برلمان فى تاريخها الحديث عام ١٧٩٨ وهو الديوان العام الذى أسسه بونابرت فكان أول مجلس نيابى تعرفه مصر منذ «البولا» أو البرلمان فى العصر الرومانى بالإسكندرية، وكما رأينا فقد أسس محمد على «الديوان العالى» وكان يهدف إلى تعبئة الرأى العالم المصريس لضمان ولائه له.. تمهيدا لاستقلاله عن الباب العالى ثم تألف مجلس المشورة عام ١٨٢٩ واستمرت الحياة البرلمانية التى قامت على أسس أوتوقراطية النوايا لكى تخدم أهدافا ديمقراطية شكليا، نتيجة لظهور طبقة اجتماعية جديدة فى مصر هى الطبقة الوسط من الملاك الزراعيين وكانت تسمى طبقة العمد والمشايخ أيضا.

يقول إسماعيل: «كان أملى (٢٠) تشكيل مجلس شورى بمصر ينتخب أعضاؤه من الأهالى وينعقد بمصر فى كل سنة مدة

شهرين ويسعدنى أن الانتخابات تجرى بحماس كبير والشعب يقدر المزايا العظيمة التى ستجنيها البلاد كما قدر ثقة الحكومة به فإننا لا نريد بعد اليوم معاملة الاتباع فى نظام الإقطاعيات بل معاملة الأبناء فليقولوا فى استانبول ما يشاءون!!

يؤسفنى أن أنظمة الحكم عندهم لن تمكنهم من أن يحكموا مثلنا».

وصدر المرسوم الخاص بتأسيس مجلس الشورى فى أكتوبر ١٨٦٦ ينتخب أعضاؤه الخمسة والسبعون وكان معظمهم من الأعيان لمدة ثلاث سنوات وظل لهذا المجلس النصيب الأكبر من اسمه فلم يقترب من التشريع وسن القوانين.. وهذه لقطات من خطبة العرش التى ألقاها إسماعيل فى أول جلساته: «من المعلوم أن جدى المرحوم حين تولى مصر وجدها خالية من آثار العمار ووجد أهلها مسلوبى الأمن والراحة فصرف الهمم لتأمين الأهالى وتمدن البلاد بإيجاد الأسباب والوسائل اللازمة لذلك وكان والدى عونا له ونصيرا فى حياته، ثم انقلبت أحوال مصر بعدهما إلى أن قدر الله تعالى تسليم زمام إدارة حكومتها إلى يدى وكثيرا ما كان يخطر ببالى إيجاد مجلس شورى النواب ليكون الأمر شورى بين الراعى والرعية ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى: «وشاورهم فى الأمر» لذلك استحسنت افتتاح هذا المجلس.

ويرى المؤرخ الكبير عبدالرحمن الرافعى أن مجلس شورى النواب تم تأسيسه دون مطالبة من الأمة فهو «منحة» من الخديوى وبذلك فلم يكن يمثل ثمرة كفاح ديمقراطى.. ولكن رد المجلس على خطاب العرش الذى عرضنا له جاء منمقا مسجوعا ولا غرابة فى ذلك لأنه كتب بلغة عصره.. لكنه عميق المغزى ماكر المعنى، حيث فند ادعاءات الخديوى بأن محمد على هو الذى انتشل مصر من الخراب وكانت خالية من العمار وبأدب شديد استنكروا ذلك بقولهم إن مصر صاحبة أقدم الحضارات وأعرقها منها انتقلت الفنون والعلوم إلى العالم قبل ميلاد محمد على بآلاف السنين وفى نفس الوقت أقر الرد تخلف البلاد فى عهد عباس الأول وسعيد وهذه لمحات من الرد على خطبة العرش فى افتتاح مجلس شورى النواب وأتمنى أن تتذرع بالصبر وتكمل قراءته حتى النهاية.

«بعد ما تشرفنا بالإصغاء للمقالة الجليلة نقول: إن ما قطفناه من زواهر الأخبار التاريخية وعرفناه من سوالف آثار الديار المصرية أنها كانت فى الأعصار الخالية وأن بقية الأقطار كانت تستمد من نبل معارفها الوافر معترفة بأنها مغترفة فى الأصل من نيل عوارفها الزاخر لكن لتداول أيدى من لم يحسن ملكها من الملوك السالفين تناولتها نوائب الزمن وتناولتها أيدى المحن حتى رجعت القهقهرى وأصبح غيرها من الممالك متقدما وملكها متأخرا وقاسى أهلها من الذلة والمسكنة

مما صاروا به فى غاية الحقارة والمهانة إلى أن أراد الله تعالى أن يعيد شبابها بعد الهرم فشرفها بجد العزيز محمد على باشا فأعاد لها من المعمارية ومحاسن الآثار الأصلية ومن تمام عناية رب العالمين أن ألهم سلطاننا الأعظم ولا غرو لأن الملوك من الملهمين، حصر وراثة الحكومة على التأييد فى نسل إسماعيل بأن يتولاها أكبر أولاده بعد عمره المديد وإذا كان إنشاء هذا المجلس الأنيق من أجل المساعى الحميدة فمن الواجب الشكر لتلك الحضرة العلية ورفع أكفنا أناء الليل وأطراف النهار بالدعوات من أجل الأوقات وسائر الحالات بدوام سعود افندينا وولى عهده حضرة محمد توفيق باشا».

هل الكلمات والمفردات التى صيغ بها هذا الرد تعد نفاقا برلمانيا صريحا للخديوى؟

من الإنصاف أن نعود إلى عام ١٨٦٦ ونستوحى المناخ العام لتلك السنين ونحن نقرأ خطبة الخديوى والرد عليها.. وهنا تكمن معضلة قراءة التاريخ الأزلية.. فالمسافة مازالت شاسعة بين التاج والبرلمان (الوليد).. ثم تأتى مرحلة التوازن تدريجيا.. وهكذا جاء تطور البرلمان المصرى رائدا فى الامبراطورية العثمانية والأقطار العربية، ولم يكن منحة وإنما إسماعيل أراد أن يكمل به هيئته الفرنسية.. سياسيا أيضا.. فلديه برلمان على غرار البرلمانات الأوروبية فإذا تطرقنا إلى المناقشات التى تمت

سنجد فى الدورة الثانية عام ١٨٦٨ أن مشكلة الديون قد استفحلت وقد ترك سعيد دينًا على مصر مقداره ١١مليون جنيه دون أى مبرر سوى عدم كفاءته ولا مبالاته ليشكل نواة الديون فى مصر حتى يومنا هذا!! وعرف إسماعيل طريقه إلى الاستدانة بعد مرور عام من توليه الحكم، حيث استدان عام ١٨٦٤ من بنك فرو هلنج جوشن ٥,٧٠٤,٠٠٠جنيه (القيمة الفعلية) أما القيمة الاسمية (٤,٨٦٤,٠٠٠) بالإضافة للعمولات والمصروفات وهكذا تكاثر الوسطاء حوله ويأتى إسماعيل المفتش ووزير ماليته على رأس هذه القائمة السوداء، التى قوضت حكم إسماعيل عن طريق إغراقه بالديون.

وفى البرلمان حدث تطور جديد فى دورته الثانية حين وافق الخديوى على عدم فرض الضرائب دون الرجوع إلى المجلس وأخذ موافقة وفى الدورة الثالثة عام ١٨٦٩ أعلن إسماعيل للمرة الأولى عن حجم الدين واستعرض الأعمال التى تمت فى البلاد منذ توليه العرش وحدد مخصصا ماليا له قدره ٣٠٠ألف جنيه سنويا ومخصصات لعائلته تقدر بـ١١٠٧٢٥جنيها وفى هذه الدورة أيضا قام وزير المالية بتقديم ميزانية عام ١٨٦٩ - ١٨٧٠ وبذلك تم إرساء أهم تقليد برلمانى فى مصر حتى يومنا (مناقشة الميزانية فى البرلمان).. وانتهت الدورة بصدور قرارين جاء فى أحدهما إلغاء اللائحة السعيدية (التى وضعت فى عهد سعيد) والخاصة بتوزيع تركة المتوفى من الأطيان الزراعية على

أبنائه.. ولكن شورى نواب إسماعيل وجد فى تفتيت الملكية الزراعية تهديدا لمصالحه الإقطاعية فتم إصدار قانون «حق الابن الأكبر والذى يحظر تقسيم الميراث على الورثة ولكنه يقصره على الابن الأكبر فى إدارة هذا الميراث وتوزيع صافى الربح على بقية الورثة.. ولا غرابة فى ذلك إذا كان رب البيت بالارستقراطية ضاربا فشمة أهل المجلس الإقطاع وقد يبدو هذا المسلك أكثر طبيعة إذا علمنا أن معظم أعضاء البرلمان كان يتم تعيينهم فى وظائف حكومية كبرى لضمان ولائهم للحكومة وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت سلطات مجلس الشورى تزداد تدريجيا.. الأمر الذى دعا إسماعيل صدقى المفتش فى البرلمان الثانى (١٨٧٠ - ١٨٧٣) إلى تفنيد مصروفات المشاريع وفى عام ١٨٧٤ اضطر إسماعيل لنقل ملكية أملاكه إلى زوجاته وأبنائه.. واكتملت مأساة الديون ببيع أسهم قناة السويس لانجلترا ورهن دار الأوبرا للايطالى ايفانجيل كيلو لو مقابل أكثر من ٩ملايين جنيه.

الأزمة المالية (بيدى لا بيد عمرو)

شاء القدر أن يكون إسماعيل هو الملهم لمبدأ التدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية حين طلب من ولى عهد انجلترا أثناء مروره بمصر تعيين مستشار انجليزى للمالية المصرية وكان

يهدف من وراء طلبه هذا التقرب إلى انجلترا واستمالتها لتكون عونا له فى أزمته المالية ومن المفارقات أن ولى العهد أجاب بأن هذا الأمر من اختصاصات القنصل الإنجليزى فى مصر.. وأهملت انجلترا أو أرجأت مناقشة هذا الموضوع وحين نجحت فى شراء أسهم قناة السويس تم إرسال «لجنة كيف» عام ١٨٧٥ فكان أول الغزو لجان وانتهكت سيادة الخديوى وأوصت هذه اللجنة فى تقريرها بأهمية توحيد ديون مصر فى دين موحد بسعر فائدة ٧٪.. ولم تأت هذه اللجنة بالطبع لمعاونة مصر فى الخروج من أزمتها.. ولكن لدفعها لأزمات أخرى وظهرت نوايا انجلترا حين أعلن دزرائيلى رئيس الوراء البريطانى فى مجلس العموم، أن تقرير لجنة كيف يجسد سوء أحوال مصر المالية.. وقد طلب الخديوى من كيف عدم نشره حتى لا يتزعزع موقفه أمام الدائنين الأوروبيين كان هذا التصريح من دزرائيلى إضافة لصدور مرسوم عام ١٨٧٦ بتأجيل سداد أقساط الديون كافيا لإحداث الذعر والخوف فى الأسواق المالية وانتشرت الشائعات عن إفلاس مصر واضطر الخديوى إلى إنشاء صندوق الدين والأخذ بنظام المراقبة الثنائية (الانجليزية ـ الفرنسية) يمثلها جوشن وجوبير والذى رهن بمقتضاه إيرادات السكة الحديد والجمارك ودخل الدائرة السنية وفى نفس العام ١٨٧٦ تم توحيد الديون الثابتة والسائإة فى دين واحد قيمته ٩١مليون جنيه استرلينى بفائدة ٧٪ وتعهد إسماعل بعدم إصدار أذونات

الخـزانة أو الاقـتـراض.. ويقـال إنه كـان يقـوم بإصـدار أذونات الخـزانة سـرا ولكن إسـمـاعـيل المفـتش أفـشـى سـره.. فكان ذلك سببا كافيا للفتك به!! على الرغم من أن إسـمـاعيل رفض مـرارا التخلى عنه.. وتغاضى عن سرقاته وأطماعه.. ووقعت الواقعة.

هنا أشـار على المفـتش أن يستقيل إرضـاء للإنجليـز.. فـرفض وقـاوم.. فأمـر إسـمـاعيل باجتمـاع المجلس الخـصـوصى للنظر فى إقـالة المفـتش حـتى يعطى القـرار الشكل الديمـقـراطى ويؤكـد اسـتـقـلاله فى اتخـاذ الرأى وبالفـعل اجتـمع المجلس وكـان يضم الأمـراء (حـسـين كـامل وحـسن تـوفـيق) أبناء الخـديوى وحـدثت مشـادة كلامية بينهم وبين المفتش فنظر المفتش إليهم(٢٩) قائلا: إنكم لاتزالون أولادا!! هـنا اسـتـشـاط غضب الأمـيـر حـسـين كـامل وكـان عـصـبـيا سـريع الانفـعـال فـهجم على المفتش وصـفـعـه على وجـهه وقـال له: أولاد!! هل بلغت بك الوقـاحة بمخـاطبـتنا هكذا! فـأجـاب المفـتش: إنى أتكلم للمـصـلحـة العـامـة فـالمسـألة ليست مسـألة عزل وزيـر بل إلغاء وزارة المالية بصـفـتها وزارة مـصـرية.. وحـاول التـحـدث مـرة ثـانيـة مع الخـديوى قـائلا: كـمـا أنـى لا أسـتطيع أن أنجـو بدون سـموكم فـإن مولاى لا يـسـتطيع أن يخـرج من المأزق بدونى!! وفى النهـاية أجبـره إسـمـاعيل على الاسـتـقـالة وتم تعيين الأمـيـر حـسـين كـامل وزيرا للمـاليـة (٢٢عـامـا) والأمـيـر حـسن وزيرا للحـربيـة (٢٠عـامـا) والأمـيـر توفيق وزيـر الداخليـة (٢٤عـامـا) ولكن جـوشن المراقب الانجليـزى كـان مـصـرا على

محاكمة المفتش أمام القضاء المختلط لوجود عجز قدره ٤٠مليونا من الفرنكات لذلك أسرع إسماعيل وبنفس السرعة والحسم والإرادة التى كان يتخذ بها قراراته.. وخطط للتخلص من المفتش وكان هو منفذ العملية.. حين مر على المفتش فى بيته وأخذه فى سيارته للتنزه ثم توجها إلى سراى الجزيرة.. هنا أسرع إسماعيل بالدخول بعد أن حياه الحرس ووفقا للبروتوكول فقد كان يتقدم المفتش بخطوات.. كانت لها فائدتها فى دخول الخديوى السرايا وبإشارة من يديه تم القبض على المفتش وتوثيقه وحبسه فى إحدى غرف السرايا.. تمهيدا لنفيه إلى دنقلة بالسودان.. وانتشرت الشائعات فنشرت الجريدة الرسمية ردا على هذه الشائعات: «إن اسماعيل صديق باشا وزير المالية السابق سعى إلى تدبير مؤامرة ضد سمو الخديوى بإثارة عواطف الأهالى الدينية ضد المشروع الذى اقترحه المستر جوشن وجوبير».

من جهة أخرى كان إسماعيل قد أرسل للأستانة يخبرها بتورط المفتش فى جرائم مالية.. وردت الأستانة بطلب إرسال المفتش لكى يحاكم فى أراضيها فقد كان المفتش حاملا (المشيرية العثمانية) وطبقا للانون لابد من محاكمته فى تركيا ولم يرد إسماعيل على طلب الباب العالى.. حتى جاءه النبأ اليقين بوفاة المفتش أو قتله.. هنا أذاع إسماعيل النبأ الرسمى الذى أتاه من دنقلة يفيد موت إسماعيل صديق المفتش نتيجة

لإفراطه فى شرب الخمر.. فلم تعلق الأستانة وانتهى الأمر ونشرت الجريدة الرسمية خبر موته فى دنقلة فى ٤ديسمبر ١٨٧٦ وتوالت الشائعات.. البعض أجزم أن المفتش لم يغادر مصر وقيل إن (لمصطفى باشا فهمى نسيب سعد زغلول - فيما بعد - يدا فى الموضوع) والبعض الآخر يقول إنه تجرع كأسا مسمومة من الخمر.. تعددت الشائعات والموت واحد.. ولكن المؤكد أن موته كان نذير شؤم.. على الخديوى أما عامة الشعب فقد شعر بالفرحة فالمفتش كان ظالما قاسيا سارقا شرها.. وبموته تخلص الناس من القهر الذى كان يمارسه لجمع الضرائب القاسية حتى يتمكن من سداد الديون التى أغرق فيها مصر هو ومولاه!!

ولكن ما حجم دين إسماعيل وأين انفقت هذه الأموال؟

وفقا للميزانيات التى أعدها(٣٠) إسماعيل المفتش ترك إسماعيل مصر ولديها تركة من الديون تقدر بـ٩٦مليون جنيه!! فما حصيلة الستة عشر عاما التى قضاها إسماعيل من تلك الديون؟

نفقات الحكومة خلال ١٦سنة	٥٥مليون جنيه
الجزية للباب العالى	١٠ملايين جنيه
فوائد الديون	٤٠مليون جنيه
الاستثمارات العقارية والمنشآت الزراعية والصناعية والمواصلات.. الخ.	٤٦مليون جنيه

التعليم وتأسيس الجيش والفتوحات ٤٩مليون جنيه

الافريقية . تعديل الفرمانات

والإصلاح القضائى

مجموع نفقاته خلال ستة عشر عاما ٢٠٠مليون جنيه

أما إيراداته فكانت تقترب من ٢٠٠مليون جنيه أيضا.. فكيف ترك هذا الدين البالغ ٩٦مليون جنيه؟

ديون سعيد باشا ١١مليون جنيه

ديون إسماعيل الفعلية التى حصلت ٥٤مليون جنيه

عليها مصر —

مجموع ديون مصر ٩٦مليون جنيه

٦٥مليون جنيه

—

٣١ مليون جنيه

فجملة الأموال المسروقة أو العجز غير المبرر فى عهد إسماعيل يقدر بـ٣١مليون جنيه وهو رقم رهيب.. كان كافيا لبناء دولة بأكملها فعلى سبيل المثال.

فى ذلك الوقت.. تم شراء قصر عابدين بمبلغ ٧٠٠ألف جنيه وتأسيسه بمفروشات خيالية حولته إلى قصر لويس الرابع

عشر فى فخامته وسحره.. كل ذلك مقابل ٢مليون جنيه.. وبلغت تكاليف دار الأوبرا ١٦٠ألف جنيه.. وحين نتحدث بمنطق الأرقام الآن عما يعادل ٣٢مليون جنيه فنحن نعنى المليارات..

وفى غضون تلك الأزمة.. استمرت انجلترا وفرنسا يسعيان لتقليص نفوذ إسماعيل عن طريق ادعائهم بأهمية تطبيق مبدأ «الملك يملك ولا يحكم» إلا من خلال مسئولية وزرائه أمام البرلمان.. وفى عام ١٨٧٨ تم تعيين نوبار باشا رئيسا لوزراء أول نظارة أوروبية (كان سكرتيرا لإبراهيم باشا وهو أرمنى ويجيد التحدث بـ١١لغة إلى اللغة العربية) وتعين السير ويلسون الانجليزى واعترضوا أن وزارة الأشغال وزارة متواضعة المهام فأسند الخديوى لهذه الوزارة اختصاصات إضافية لتنال الرضا الفرنسى!!

ولكن هذه الوزارة وجدت رفضا شديدا ومقاومة من الشعب، لأنها كانت تعد تدخلا سافرا فى شئون البلاد وفجأة حدثت فتنة الجيش حين تم استدعاء أكثر من ٢٥٠٠ضابط لم يتم صرف رواتبهم منذ أكثر من عشرين شهرا.. وكان أكثر الضباط ثورة وحماسا أحمد عرابى.. فاضطر إسماعيل إلى الحضور لتهدئتهم.. وحين رآه الضباط.. هدأت ثورتهم لذلك فسر بعض المؤرخين هذه الفتنة بأنها خطة محكمة من الخديوى لإسقاط وزارة نوبار باشا ولكننا لا نمتلك أى دليل على ذلك التفسير

ولجأ إسماعيل أيضا لاستخدام البرلمان والصحافة لتعبئة الرأى العام ضد أوروبا وبالفعل سقطت وزارة نوبار لتأتى الوزارة الأوروبية الثانية فى مار ١٨٧٩ برئاسة ولى العهد توفيق باشا وتم تعيين نفس الوزيرين الأوروبيين ولكن بشروط أسوأ عن سابقتها حيث أصبح لهما «حق الفيتو» فى مجلس الوزراء.

ووقف نواب البرلمان وقفة رجل واحد مع الخديوى فى محنته المالية وشعر الجميع بالقلق على مستقبل البلاد فالكل يخشى التدخل الأوروبى.. لذلك رفض البرلمان بالإجماع مبدأ تسوية مشاكل مصر المالية عن طريق إشهار إفلاسها وهو موقف وطنى لا غبار عليه أكد تماسك الأمة ولكن حين تطرق المجلس للاقتراحات الأوروبية بإلغاء قانون المقابلة وهو القانون الذى صدر لإيجاد مخرج للديون، حيث تم طرحه وفقا لافتراض مالى قدر ديون مصر بستة أضعاف الضريبة العقارية فإذا دفع الملاك ضعف الضريبة ست سنوات فمن الممكن سداد ديون مصر مقابل هذه الضريبة على أن يعفى الملاك من نصف الضرائب المفروضة عليهم إلى الأبد.

فهو قانون إقطاعى لا يخدم إلا الطبقة الرأسمالية وهى الأقلية ويضع الملاك فى موقف المرابى ذى النوايا الوطنية والأرباح الأوروبية!! ويرى د. لويس عوض أن نواب البرلمان فى تلك الفترة لم يكونوا فى مستوى الأحداث ولو كانوا لقبلوا إلغاء

قانون المقابلة وتحويل مستحقاتهم إلى قرض وطنى عادى بسعر فائدة ضئيل قابلا للسداد على آجال طويلة وتلك هى الصورة على حقيقتها بدون تذويق ولا تجميل واتفق معه فى هذا الرأى أيضا وأضيف أنه لم يكن هناك ايثارا فعليا من قبل الخديوى والنواب ولكنها آثره تخفت وراء شعارات وطنية الوطنية التى كانت فى بعض العهود ٩٩٪ ورق و١٪ عمل وكم من الجرائم يرتكب باسمها!!

وجاءت وزارة شريف باشا فى إبريل ١٨٧٩ بعد شهر من اقالة وزارة توفيق وكانت أول وزارة مصرية خالصة من مآثرها اعدادها لمشروع اللائحة الأساسية الذى يحدد اختصاصات الوزارة امام البرلمان فهى أول وزارة تعد مشروعا لأول دستورا فى البلاد ولكنه لم ير النور فقد قضى الأمر.

فى ١٨٧٩ كتب «فارمان» قنصل الولايات المتحدة فى مصر إلى وزير الخارجية الامريكى يقول:

من المستحيل تفسير مسلك انجلترا وفرنسا نحو مصر على أساس مالى بحت والحكومة الإنجليزية لابد أن يكون لها هدف آخر ترمى إليه.ويبدو للمراقب المحايد أن الهدف هو إشعال ثورة إذا كان فى الإمكان ذلك لاتخاذها ذريعة للاستيلاء على البلاد وأيا كان اللوم الذى يمكن أن يوجه إلى الخديوى لأنه سبب مديونية مصر الجسيمة فإنه فى رأى قد فعل كل مافى

وسعه خلال السنتين الأخيرتين ليخفض النفقات ويرضى دائنيه!!

هل تجلت الرؤية بهذا الوضوح والموضوعية للقنصل الأمريكى لإن بلاده لم تكن طرفا فى هذا الصراع؟ نعم ومن المؤكد أيضا أن جذور الثورة العرابية كانت على السطح واضحة تماما لكل من يتمتع بنظر ثابت واتفقت الدول الاوروبية «انجلترا - فرنسا) والنمسا - المانيا (اللتان شعرت بالاهانة حين قام الخديوى بدفع ديون انجلترا وفرنسا وتعثر فى دفع ديونها الضئيلة فغضب بسماك وانضم لهذا التحالف المشكل

وبعثت بقناصل دولها إلى الخديوى رقم التهديد غير المباشر فى حالة رفضه الاعتزال بتصيب الأمير حليم بدلا من توفيق وكانت فرنسا تتمنى ذلك .. فقد عرف عن توفيق ميوله الانجليزية وولائه الشديد للباب العالى.

وفى ذلك يقول إسماعيل: عندما توليت عرش مصر كان غرضى الأساسى أن تنمو موارد البلاد وتتحسن حالة شعبى وكان لابد لى من الإنفاق عن سعة تحقيقا لهذه الغاية فأنفقت كثيرا أننى سأنال - أن آجلا أو عاجلا - أضعاف أضعاف ما أتفق. وهكذا أقحمت نفسى فى ارتباكات مالية يأخذونها على ولكنى أعود فاسأل نفسى: إذا كنت قد واصلت إصلاحاتى على نمط متواضع مؤقت مكتفيا بما تدعو إليه حاجة اليوم، فهل

كانت مصر قد تبوأت بين الأمم ذلك المكان الذى تتبوأه الآن؟ هل كان العالم المتحدث بهم بمصائرنا ذلك الاهتمام، تدعونى فرنسا وإنجلترا إلى التسليم ولكن لحقوق السيادة حد وللالتزامات التابع حد أيضا.. ولا بدلى من الاحتفاظ بهيبتى إزاء اتباعى فالسلطان ووزراؤه يهددون بعزلى فليأتوا ويعزلونى أو ليكفوا عن إزعاجى.

وأخيرا صدر مرسوم العزل فى ٢٦ يونيو عام ١٨٧٩ وتنصيب توفيق خديويا على مصر وتكتمل شهادة «فارمان» القنصل الامريكى فى تقرير الرسمى الذى بعث به الى بلاده قائلا:

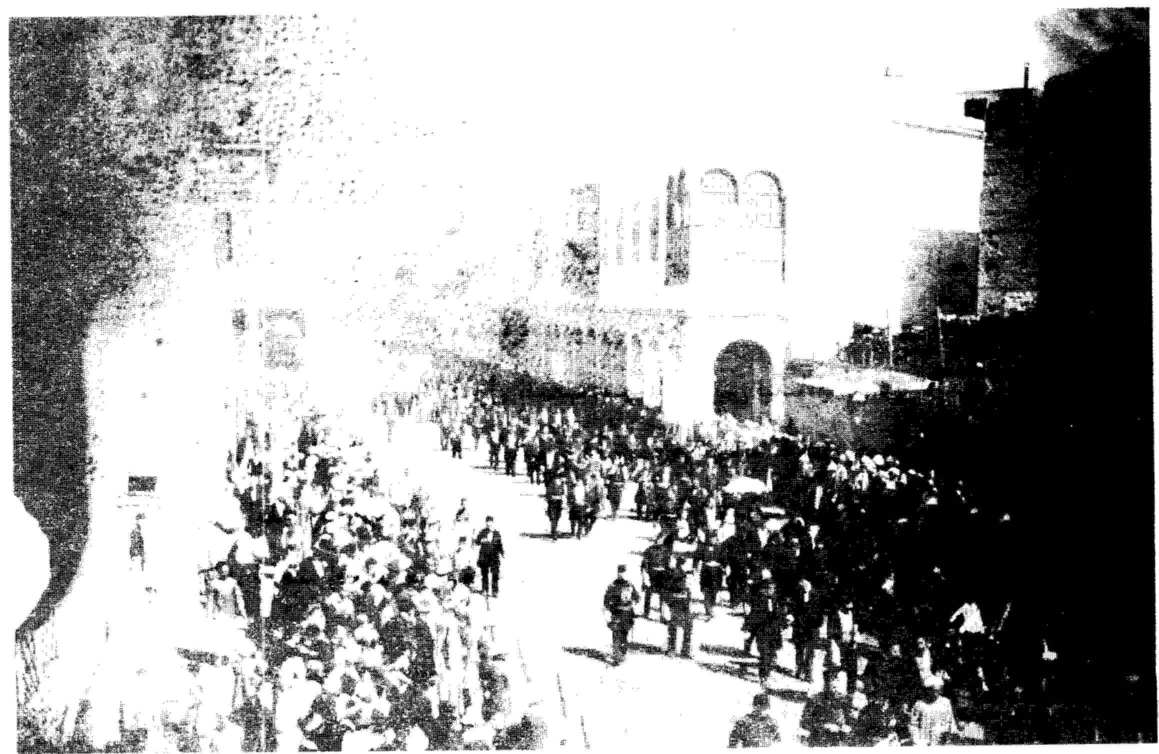
«من سوء حظ إسماعيل وحظ بلاده أنه اقتنع بفكرة إقامة دولة إفريقية عظمى على الطراز الأوروبى تمتد من البحر المتوسط حتى خط الاستواء وتاريخ العالم يخبرنا أنه من السهل إنشاء مستعمرات جديدة.. ولكن إقامة دولة قوية تجمع بين الحضارة الحديثة والقديمة.. وهى تجربة لم يثبت نجاحها حتى الآن وليس هناك من حاول إجراء هذه التجربة بإخلاص ومثابرة كما فعل إسماعيل ـ وقد أصاب بعض النجاح لكنه كرس على نفسه دينا جسيما وخرابا وسوف تكون هناك آراء متباينة ليس فقط حول مزايا ومثالبة حكم اسماعيل ولكن ايضا حول التدخل التعسفى من جانب الدول العظمى لعزله، فلم يسبق ان اعتبر عجز الدولة عن دفع ديونا سببا يخول الدول الأجنبية الحق فى أن تخلع حاكمها وفى تقديرى أن الحكومة الفرنسية

اسماعيل صديق المفتش



الخديو اسماعيل





جنازة الخديو اسماعيل عام 1895

ورعاياها كانوا مسئولين عن خلق الموقف المالى الراهن فى مصر فعندما باع الخديوى حصة مصر فى أسهم القناة لإنجلترا جرح بفعله كبرياء الفرنسيين ومنذ ذلك الحين انعدمت كل رحمة فى قلوبهم نحو مصر» ويختتم هذه الشهادة التاريخية بقوله: «هناك أمرا واحدا لا خلاف عليه وهو أن مصر تقدمت خلال السنوات الستة عشرة من عهده فى كل ما يتصل بالحضارة الحديثة أكثر مما تقدمت فى المائة سنة السابقة بل وربما الخمسمائة سنة السابقة واكثر مما ستتقدم لفترة طويلة قادمة ومصر تكاد تكون مدينة له وحده بهذا التقدم الذى أصابته وفى الساعة السادسة والنصف الموافق ٢٦ يونيو ١٨٧٩ أقلعت المحروسة بالخديوى إسماعيل متوجها إلى نابولى وأطلقت المدفعية لتحيته واحتشدت الجماهير لوداعه الذى وصفه اللورد كرومر بقوله: «إذا كان حكم اسماعيل باشا سيئا فإن سقوطه كان يجلله الكرامة ولا شك أن ألد أعدائه قد شعروا بالرثاء له فى محنته».

وانكسر الحلم وانتهى فجأة والإنسان لايحلم نفس الحلم مرتين.. هل انهمرت دموعه وهو يودع معشوقته مصر للمرة الآخيرة.. هل ردد قول الشاعر العربى يعاتبنى فى الدين قومى.. وإنما ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا!! هل شعر بالندم لإفراطه وبذخه أم بالظلم والعذر فجاء الدرس قاسيا صاعقا وقد تأكد انه لا صداقة فى السياسة ولكن بعد فوات الآوان؟



هل كان يود أن يعود إلى الشاطىء مرة أخرى ويلقى بنفسه بين الجماهير التى طالما عطفت عليه فى محنته وأكرمته وتمنى أن يعيش فى مصر مواطنا عاديا» بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن نجلوا على كرام».. فى كل الأحوال فقد سارت السفينة السفينة تشق عباب البحر.. ولكنه كوكتيل الوداع الذى لا نستطيع أن نأرخه ولكننا نستشعره فقط ونراه كافيا.. عن الخديوى الذى عاش منفيا فى نابولى ثم انتقل إلى الأستانة عاش خلالها عاشقا لمصر.. لم يشف من الهوى ومن الجنون.. وقد أوصى بدفنه فى مقابر الأسرة بالرفاعى.. وفى عام ١٨٩٥ توفى عن عمر يناهز ٦٥ عاما.



الخديو توفيق

توفيق..
هذا الشبل ليس من ذاك الأسد!

«لا يولد الإنسان خانعاً وإنما يصبح كذلك» أنانيا متواضع متفانيا.. منغلق اجتماعياً.. متوسط الذكاء.. ضعيف الشخصية انه توفيق بن إسماعيل الذى أجهض الأحلام.. وأطفأ الأنوار.. واستكان للاستعمار فلم يكن شبلاً من ذاك الأسد.

ولد توفيق عام ١٨٥٢ «لم يتجاوز إسماعيل الثانية والعشرين».

والدته هى «شوق نور هانم» إحدى جوارى إسماعيل - وما أكثرهن - من شركسيات وحبشيات.. وطبقا لقواعد نظام الحريم العثمانلى السلطانى فإن الرجل لا يعبأ كثيرا إذا حملت جاريته.. ويتغير الوضع إذا كان المولود ذكراً.. وتصبح الجارية زوجته وتمنح لقب هانم أو الوالدة باشا أو السلطانة الوالدة تبعاً لمكانة الأب (ولى النعم) وحين آل حكم مصر إلى إسماعيل.. سارع بشراء فرمان الوراثة لأكبر أبنائه «توفيق»

الذى ارتبط بإسماعيل بعلاقة جافية يكتنفها الغموض، نشأ توفيق نشأة تقليدية عثمانلية مصرية.. تلقى تعليمه المتواضع فى مصر.. التى لم يغادرها أبداً..

على الرغم من سفر أبناء إسماعيل الذكور جميعاً إلى أوروبا لإتمام دراستهم تلقى توفيق آداب اللغة العربية واللغة الفرنسية فى البلاط الملكى واستشعر منذ صغره تفرقة واضحة من قبل والده تفصله عن بقية إخوته الذكور وجميعهم غير أشقاء.. كان إسماعيل أيضاً على يقين من أن توفيق أقل أبنائه ذكاءاً وأضعفهم قدرة.. ويكفى أن ينشأ توفيق فى هذا المناخ لكى توشم شخصيته بالضعف وعدم الثقة بالنفس وإفتقاد العطف الأبوى وقد روى بنفسه جانباً من علاقته بأبيه للمستر باتلر أستاذ ولديه «عباس حلمى ومحمد على» قائلاً: «كان والدى[٣١] يسىء الظن بى ويسىء معاملتى إلى درجة أن أحد وزرائه ولم يكن أرفعهم شأناً - تطاول علىّ ذات يوم إلى حد امتهانى وتهديدى بأن والدى قد يبعث بى إلى السودان إن لم يجد منى إقبال على مساعدته الرامية إلى توسيع نطاق المدينة الغربية فى البلاد فأجبته: أن الخديوى أبى وولى نعمتى فإن شاء فله أن يبعث بى حيثما يريد ولو إلى أقاصى السودان وكان بعض أهل البلاط يعتقدون أن تلك المعاملة التى كنت ألقاها من والدى جعلتنى أتمنى أن تسرع الأيام نحوى بالعرش وعرض علىّ وزير آخر من وزراء أبى وكان أقربهم إلى قلبه (إسماعيل

المفتش غالبا) بكتابات من أجل إغراق أبى فى ميناء الإسكندرية لدى عودته من الآستانة فأبيت باشمئزاز وأطلعت والدى فيما بعد على تلك الكتابات فعانقنى طويلا والدموع تملأ عينيه وقال: «لقد خدعت فيك يا ابنى واعتقدت أنك تتآمر علىّ فأصفح عما مضى!!».

وذهب الماضى الذى لا يمكن إصلاحه» وحديث توفيق عن ماضيه لم ينجح فى فك جدائله..

فى شبابه المبكر إنحاز توفيق إلى طائفة الوطنيين المناهضين لسياسة إسماعيل القائمة على الاستدانة.. وإنخرط فى المحفل الماسونى واتصل بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأحمد عرابى وإبراهيم اللقانى.. وكان على علم تام بإتجاهات الرأى العام فى مصر وكانت نظرته لإسماعيل فى تلك الفترة أقرب ما تكون من نظرة مواطناً عادياً وليس ولياً للعهد، وفى يونيو ١٨٧٩ ودع إسماعيل وعانقه طويلاً وفى ثوان أصبح الخديوى توفيق الذى يحكم الأمبراطورية الافريقية التى اتسعت بها حدود مصر من وادى حلفا شمالا حتى خط الأستواء جنوبا ومن مصوع على البحر الأحمر شرقا إلى حدود درافور غربا وهى مساحة تعادل ضعف مساحة المانيا وفرنسا مجتمعين.. بالإضافة إلى دستور مؤجل وهو الذى اقترحه شريف باشا فى آخر عهد إسماعيل وتركة مثقلة بالديون تقدر بـ ٩٦ مليون جنيه .

كانت سياسة الباب العالى تقوم على الابتزاز المعلن لإصدار الفرمانات وخاصة فرمانات الحكم.. ولم يصدر فرمان تثبيت ولاية توفيق وتأخر قرابة شهرين.. تم خلالها التصريح والتلميح بإمكانيته إسناد خديوية مصر إلى الأمير حليم أو الشبح الملثم الذى تلوح به تركيا وفرنسا فى أوقات الأزمات.. وأنتظر الباب العالى الأموال والهدايا التى كان يغدقها إسماعيل.. حتى يحصل على الفرمانات.. ولكن دوام الحال من المحال فقد جفت الينابيع.. ولم يتبقى منها إلا أحجاراً من الديون يصعب حملها!! فلجأ توفيق سريعا للإستعانة بإنجلترا وفرنسا طلبا لمعاونتهما فى إستصدار فرمان توليه الحكم.. وتثبيته.. وكان له ما أراد.. ومنذ تلك اللحظة تغير موقفه تماما إزاء الحركة الوطنية والحياة الدستورية التى تحمس لها فى شبابه.. وأصبح أداة طيعة فى يد الأنجليز.. وظهر استبداده فى مرحلة مبكرة من توليه الحكم.. حيث أقال حكومة شريف باشا (أكبر داعية للحكم الدستورى) ورفض مشروع الدستور كلية.. وتولى رئاسة الوزارة بنفسه فكانت ردة دستورية تخلصت منها البلاد فى عهد إسماعيل بإقرار مبدأ «الملك يملك ولا يحكم» استمرت هذه الوزارة شهراً.. ولكن خلال هذا الشهر نجحت إنجلترا فى عودة «المراقبة الثنائية» فى وضع أسوأ.. حيث اشترطت انجلترا وفرنسا عدم فصل مراقبيها بصفة نهائية فى أمور مصر المالية.. دون الرجوع إلى حكومة البلدين.. فكانت هذه هى أول

خطوة فى طريق الاستعمار السياسى حيث تأكد لدى الشعب أن توفيق يؤيد سياسة «الحكم المطلق» التى تتعارض مع مبادىء الحركة الوطنية ومطالبها الدستورية.

الصحافة والتنظيمات السرية

بعد إقالة وزارة توفيق تألفت وزارة «رياض باشا» التى انحازت إلى الأجانب وألغت قانون «المقابلة» فأضرت بمصالح كبار الملاك والأعيان الذين ارتبكت أمورهم المالية.. نظراً لتدبيرهم أموال الضرائب المجمعة على أراضيهم على أن يعفوا من نصف الضرائب مستقبلاً.. وبذلك ضاعت أموالهم هباءاً وتنازلت حكومة رياض باشا أيضا عن حصة مصر فى قناة السويس وهى تمثل ١٥٪ من صافى أرباح قناة السويس مقابل ٧٠٠ ألف جنيه أسترلينى لسداد ديون مصر. وفى نفس العام ١٨٨٠ تأسست لجنة لإصلاح التعليم أو بمعنى أصح (تخريبه) لعقود طويلة.. فتم إنشاء مدرسة المعلمين العليا وعن طريقه تم «دانلوب مسئول العلم» الإنجليزى تحجيم عدد المتعلمين.. وصياغة عقولهم بالطريقة التى تضمن التراجع والتخلف مقارنة بالتعليم الأوروبى.. وأهم من كل ذلك تم القضاء على البعثات التعليمية لأوروبا.. فقد تأكدت انجلترا إن اطلاع بعض المبعوثين على المفاهيم الديمقراطية الحديثة بما يترتب عليها من

المطالبة بحياة نيابية ودستورية من شأنه أن يهدد مخططهم للسيطرة على بلد يطمعون فى استعماره.

فى ذلك الوقت عرفت مصر أول حزب سياسى فى صورة تنظيم سرى وهو «الحزب الوطنى الحر» الذى كان يناضل ديكتاتورية رياض باشا ومن أهم مؤسسيه «إسماعيل باشا راغب وعمر لطفى باشا وسلطان باشا.. كان جمال الدين الأفغانى هو أول من دعا للإصلاحات السياسية وإصدار الصحف التى تهاجم الفساد، كما أشرف من قبل وفى عهد توفيق وأثناء توليه للوزارة تم إلقاء القبض على جمال الدين الأفغانى بتهمة رئاسة جمعية سرية بهدف فساد الدنيا والدين!! ونفى الأفغانى إلى بومباى ثم انتقل إلى استانبول، حيث حدد السلطان عبد الحميد اقامته ووافته المنية عام ١٨٩٧ وتم إيقاف عدد من الصحف.. ونفى أيضاً أديب اسحاق أيضاً.. وفى نوفمبر ١٨٧٩ أصدر الحزب الوطنى الحر أول بيان سياسى يطالب بتوحيد الديون فى دين واحد واستبدال المراقبة المالية بمراقبة وطنية وإعادة الأملاك الخديوية الشاسعة إلى الحكومة المصرية.. وعجزت حكومة رياض باشا عن تتبع هذا البيان الذى صدر من قادة الحزب باشا حيث تعددت إتجاهاته وتنوعت طبقاته.. من جهة أخرى انخرط أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى (زعماء الثورة العرابية) فى هذا التنظيم الذى ضم الأعيان والمشايخ والسياسيين والأتراك

المتمصرين والعسكريين وأوساط الملاك والبسطاء.. وبهذا الإختلاف وعدم التجانس تميز هذا الحزب فى بدايته بأن «صوت الشعب» الذى اتحدت مطالبه فى إقامة حياة دستورية وبرلمانية تهدف إلى الحد من التدخل الأجنبى. فكان هذا الحزب بحق هو النواة الصلبة للثورة العرابية التى اشترك فيها الأعيان ورجال الدين.. ودعمها بعض أمراء الأسرة العلوية وعائلات النواب وقد اشترك من أسرة يكن وحدها ثلاث شخصيات هم حسن باشا يكن وإسماعيل بك يكن وإبراهيم باشا يكن على الرغم من مصاهرة توفيق لعائلتهم فقد كان صهراً لداود باشا يكن» وقد عهد إليه بنظارة الحربية بدلاً من البارودى.

ومن باريس أصدر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده مجلة «العروة الوثقى» وكانت أول مجلة تنتقد أوضاع المسلمين وتخاذلهم وتطالب بالإصلاح الدينى وتدعو لمقاومة الحكام فى العالم الإسلامى الذين خانوا بلادهم ومكنوا منها الدول الاستعمارية. فكانت تدعو «الجامعة الإسلامية» لذلك لم تتردد تركيا فى تدعيمها ولكن حين اختلفت أهدافها فى عهود لاحقة تخلت عنها.

وفى عام ١٨٨١ صدرت جريدة «التنكيت والبكيت» التى أصدرها «عبد الله النديم» - خطيب الثورة العرابية - وبعد الثورة تغير اسمها إلى (الطائف).. وكانت مهمتها نفى تهمة

التعصب الدينى التى ألتصقتها انجلترا بالثورة العرابية وتأكيد مطالب الثورة العرابية ومنح توفيق لقب الخديوى «الخائن المخدوع» فتم إغلاقها شهراً ثم عادت إلى الصدور مرة أخرى.

وفى عام ١٨٨٨ عاد الإمام «محمد عبده» إلى مصر، عن طريق وساطة الأميرة «نازلى فاضل» بنت عم توفيق واللورد كرومر وسعد زغلول «تلميذ الإمام» محمد عبده الذى عين «مفتيا للديار المصرية» وعين عضوا بمجلس الشورى وأسند إليه أيضاً رئاسة تحرير جريدة «الوقائع المصرية» وإدارة المطبوعات التى أنشأها عام ١٨٨١ بهدف الرقابة على الصحف وتكميم أفواهها. ولعلنا نذكر الصحفيون الشوام الذين قدموا إلى مصر فى عهد إسماعيل وبمرور الوقت ظهر فيهم الصالح والطالح.. وسقط قناع الزيف من على بعض الوجوه حين تملكت انجلترا زمام الأمور وانحاز الكثيرين منهم لصالح الإنجليز وقد وصف أحمد عرابى كتاب سليم نقاش «مصر للمصريين» بأنه مشوه فيه الغث والثمين والصدق والكذب وهو محشو بالأكاذيب والأباطيل» وعرفت القاهرة أول صالون نسائى من خلال الأميرة نازلى فاضل وهو الصالون الذى كان يضم فى تناغم إصلاحى وثورى دعاة التنوير ورواد الإصلاح الإجتماعى والسياسى فى مصر أمثال: محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين واللورد كرومر أيضاً.. ولم يكن صالوناً أرستقراطياً لكنه ملتقى لعرض الأفكار الطازجة ومحاولة

تعميمها بين أفراد الشعب فالأميرة نازلى قد شفيت من نقائص طبقتها الاجتماعية وكانت من أكبر المناصرين لعرابى وبتشجيع منها تعلم كلاً من محمد عبده . وهو فى الرابعة والأربعين . وسعد زغلول أيضا اللغة الفرنسية.. حيث كانت دراسته قانونية أزهرية فقط وتنكر العديد منهم لعهود الولاء وتغيرت المواقف وفقا للمصالح..

ولم يدم الوفاق طويلا بين قيادات الثورة ومؤيدوها وهو أمر وارد فى جميع الثورات.. من جهة أخرى كانت القاعدة الشعبية العريضة تضم المعتدلين والمتطرفين وقد تعذر فى أحيان كثيرة التوفيق فى الرأى فى كلا الجانبين ويظل عرابى باشا هو أسطورة هذه الثورة الدستورية، ولد عرابى باشا عام ١٨٤١ ولم تبدأ معاناته فى الجيش إلا فى عهد إسماعيل.. حيث خمدت ترقيته سنوات طويلة.. ومن الغريب أن الخديو إسماعيل حذر توفيق من طموحات عرابى الدستورية والديمقراطية فى وقت مبكر جداً... ولكن الثورة كقدر شعبى كانت أقوى من أى تحذيرات.

وزارة رياض المستبدة

عهد رياض باشا إلى عثمان رفقى باشا بنظارة الجهادية (الحربية) وهو شركسى متعصب.. فتمت ترقية الضباط الجراكسة فقط.. فاشتعلت بذور الفتنة العنصرية فى الجيش

على أوسع نطاق.. فقد احتمل ضباط الجيش فى عهد إسماعيل الكثير حيث تأخرت رواتبهم وجمدت ترقيتهم.. وألقى بهم فى غياهب أفريقيا وتشتت منهم ما لا نستطيع إحصاءه فى الحرب الحبشية التى خسرتها مصر.. وعُصف فى عهده أيضا باللائحة الدستورية.. وتدخلت انجلترا فى الشئون المالية والسياسية.. ونفذ مخزون الصبر وتقدم «أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى» إلى الخديو بطلباتهم المذكورة عاليه (فى واقعة غير مسبوقة فى تاريخ مصر الحديث) مضافاً إليها زيادة عدد الجيش المصرى طبقا للفرمانات لكى يصبح ١٨ ألف جندى.. وعزل رفقى باشا من نظارة الحربية.. فتم اعتقال عرابى وزميليه استعداداً لمحاكمتهم أمام المجلس العسكرى فى قصر النيل وحين شاع هذا النبأ زحف الجيش إلى نظارة الحربية وتم إخراج عرابى بالقوة وتوجه الجميع إلى سراى عابدين فى سبتمبر ١٨٨١ فخرج إليهم الخديوى توفيق وطالبوه بعزل رفقى عثمان وتعيين محمود سامى البارودى ناظرا للحربية وإصلاح البلاد دستورياً وتشكيل مجلساً للنواب على النسق الأوروبى فأجاب توفيق بعبارته الشهيرة كما جاءت فى مذكرات عرابى: «أنا ورثت تلك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا».

فرد عرابى: لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً أو عقاراً فلن نورث ولا نستعبد بعد اليوم».. وأستسلم توفيق أمام

هذا الضغط العسكرى والشعبى الجامح لطلبات عرابى التى أثارت مخاوفى الحاضرة دائما على سطح جلده وتظاهر بالامتثال إلى أن استعان بالإنجليز فعلياً فذابت مخاوفه واستكانت فى قوتهم!!

وشكلت الوزارة الجديدة برئاسة شريف باشا وأسندت نظارة الحربية إلى البارودى ولكن الخلاف دب سريعاً بين شريف باشا والنواب.. حين رفض مبدأ أساسى من أهم مبادىء الحياة النيابية وهو حق النواب فى مناقشة الميزانية وإقرارها.. واختلق أسبابا عديدة لشرح وجهة نظره منها عدم إعطاء الفرصة لإنجلترا وفرنسا للتدخل فى شئون مصر ومهادنتها فى الوقت الراهن حتى يتم اعتماد الدستور. وكان يهدف أيضاً إلى إحباط محاولات الباب العالى لإرسال بعثة تقصى الحقائق وهى البعثة التى أرسلتها برئاسة نظامى باشا والتى جاءت إلى القاهرة ووجدت كل شىء هادئاً.. حيث كان شريف باشا يمثل الجناح المعتدل بعد أن نجح شريف باشا عن طريق دبلوماسيته من إقناع عرابى بالسفر إلى رأس الوادى وعبدالعال حلمى إلى دمياط.. وقد انعكست ثقافته الأوروبية بشكل ملحوظ فى شخصيته المرنة فكانت لديه سعة الصدر لإستعياب كافة الآراء بالإضافة إلى ذلك فقد سادت عقلانيته الأوروبية التى اكتسبها أثناء دراسته على عواطفه الشرقية التى كانت هى القوة الحقيقية المحركة للأحداث لذلك.. لم يكن النجاح حليفه فى

كل الأحوال وإن كان من عظماء الرجال وبمكر وخداع تخلص توفيق سريعاً من البارودى وأسندت نظارة الحربية إلى صهره داود باشا يكن الذى اصطدم بالعرابيين وفرق شملهم واقترح إسماعيل باشا راغب أحد زعماء الحزب الوطنى الحر على عرابى اغتيال توفيق ويعلق عرابى على تلك الواقعة بقوله: استعذنا بالله من شر رأيه لأننا لا نود إلا الإصلاح بالتى هى أحسن ولأن ذلك العمل الفظيع كان ضد مبادئنا» ولكن هذه الواقعة تدل على سوء الأوضاع التى وصلت إليها مصر فى عهد توفيق وضاق بها الجميع من أعيان وتجار ونواب وفقراء ومدنيون وعسكريون.

وفى الوقت الذى أكتمل فيه عقد الحركة القومية أرسل الخديو توفيق هذا الخطاب عام ١٨٨٢ إلى الباب العالى شاكياً بقوله: «إننى أول من يتحاشى التفرقة بين المسلمين وأول من يفى بديوان ارتباط مصر بالخلافة العظمى ومن أجل ذلك لم أدخر وسعاً فى سبيل إنقاذ مصر من مصيبة القومية التى مُنيت بها منذ سنتين. إن إزالة فكرة القومية من مصر فرض علىّ فانتشار هذه الفكرة واتساعها بين الناس سينفضى إلى إنفصال مصر عن الخلافة العظمى» وهكذا كان يحارب توفيق بكل أسلحته استرضاءاً للباب العالى الذى لا يأمن غدره كما غدر بوالده وفى يناير ١٨٨٢ نشرت جريدة «التايمز» اللندنية

برنامج الحزب الوطنى الحر لتقرؤه أوروبا التى فوجئت بمطالبه الدستورية الجريئة وهى:

«استعداد الحزب لمهادنة الخديوى فى إطار من الشرعية التى تتطلب اقامة حياة نيابية والفصل بين السلطة التنفيذية والتشريعية. وإصلاح الأحوال مادياً وأدبياً وتوسيع نطاق المعارف واطلاق الحريات مثلما فعلت أوروبا فى كفاحها من أجل الديمقراطية كما وأعلن الحزب أنه حزب سياسى لا علاقة له بالأديان فالجميع أخوة والكل متساوون فى الحقوق السياسية «فالدين لله والوطن للجميع» واعترف رجال الحزب أيضاً بفضل فرنسا وانجلترا فى خدمة مصر واستمرار المراقبة المالية وقت الضرورة لكنهم يصرحون بأن ديون مصر لم تقترض لمصلحتها وإنما إنقضت لمصلحة حاكم ظالم كان لا يسأل عما يفعل وهم يدركون إن ما حصلوا عليه من الحرية والعدل كان بمساعدة هاتين الدولتين فهم يشكرونهما ويأملون أن يستخلصوا أوضاع مصر المالية من أيدى أرباب الديون شيئاً فشيئاً حتى يأتى يوم تكون مصر فيه بيد المصريين ويتعجبون من إعفاء الأجانب من الضرائب وعدم خضوعهم لقانون البلاد مع تمتعهم بخيراتها وهكذا انتقل صوت الحركة الوطنية من المحلية إلى الأوروبية فسارع الباب العالى بإصدار منشور عصيان ضد عرابى ورجاله يتهمهم فيه بإثارة الفتن وتأليب الشعب ضد الحكم العثمانى.. واستقالت وزارة شريف باشا

وكلف الخديو محمود سامى البارودى بتشكيل الوزارة الجديدة فى فبراير عام ١٨٨٢ وتم تعيين عرابى ناظراً للحربية، بناءاً على طلب البارودى الذى اشترط ذلك لضمان عدم إثارة الاضطرابات فى الجيش وأستتباباً للأمن المفقود بين أفراده.. وصدر الدستور المقترح من شريف باشا مع إجراء بعض التعديلات؟ الرقابة الثنائية وتم إقرار حق مراجعة الميزانية ضمن بنوده وأقره المجلس رسمياً فى ٧فبراير١٨٨٢ وكان إنجازاً فعلياً وبدأ العد التنازلى لانفجار الموقف الشعبى.. حين اكتشفت مؤامرة الضباط الجراكسة للتخلص من عرابى فتم إلقاء القبض عليهم وصدرت الأحكام بنفيهم إلى أقاصى السودان وتجريدهم من رتبهم وعلى رأسهم «رفقى عثمان» ناظر الحربية الأسبق.. والمتسبب الأول فى هذا الهياج الشعبى والعسكرى.

وفى الحال تدخلت انجلترا وفرنسا من خلال قناصلها لإقناع الخديوى بإعادة محاكمتهم تمهيداً لتبرئتهم.. فازدادت الخلافات وتعمقت الكراهية بين الخديوى والعرابيين الذين حاولوا عزل الخديوى ولكن مجلس النواب لم يناصرهم فى تلك الفترة فقد كان إقطاعياً ولكن تضافرت عدة عوامل أخرى أهمها (إصدار الدستور وتعديل بنوده التى أقرها المجلس والصدام مع الخديوى) إلى خلق موقفاً ثورياً لا يمكن تجاهله أو مهادنته وفى ٢٠ مايو ١٨٨٢ وصل الأسطول الانجليزى.

الفرنسى المشترك إلى الأسكندرية بهدف تهدئة الاضطربات وتدعيم موقف الخديوى الضعيف وتقدمت الدولتان بطلب إقالة وزارة البارودى ونفى عرابى وإبعاد عبد العال حلمى وعلى فهمى داخل الأراضى المصرية.. فرفض البارودى هذا التدخل السافر فى شئون مصر ووافق الخديو متشفياً.. فاستقال البارودى على الفور فعرض توفيق رئاسة الوزارة على شريف باشا ضمانا لاستقرار أمن البلاد - ووافق شريف باشا مضطراً كارها وسارع قناصل «روسيا والنمسا وألمانيا وايطاليا» إلى عرابى وألقوا على عاتقه مسئولية حفظ الأمن العام فى البلاد واقترحت فرنسا عقد مؤتمراً للنظر فى المسألة المصرية فى الآستانة.. وتعثر المؤتمر بسبب مماطلة الأتراك.. وسياستهم التى كانت تسير دائما فى إتجاه معاكس للرغبات الإنجليزية وموالية للسياسة الفرنسية وبدأت الأحداث تكتسب مسمياتها الحقيقية.. وتتكشف خيانة الخديو فى نص البرقية التى بعث بها إلى عمر لطفى باشا محافظ الاسكندرية والتى جاء فيها «لقد ضمن عرابى أمر[٣٢]الأمن العام ونشر ذلك فى الصحف وجعل نفسه مسئولاً لدى القناصل وإذا نجح فى ضمان هذا وثقت به الدول وصغر شأننا، الآن وأساطيل الدول فى مياه الأسكندرية وعقول الناس متهيجة فوقوع الخلاف بين الأوروبيين وغيرهم أمر محتمل فأختر لنفسك إما خدمة عرابى

مصر والسودان

اشتعلت الثورة المهدية فى السودان بعد عزل إسماعيل عام ١٨٨١، والمهدى هو أحد رجال الدين المتطرفين.. بدأ داعياً للتقشف والزهد وانتهى بإعلانه أنه المهدى المنتظر الذى سيملأ الأرض إسلامًا وعدلاً.. وبالفعل اعتقد عدد كبير من مريديه أنه يمتلك قدرات خارقة.. ولم تسلم مصر من تطرفه ومغالاته.. فبدأ بفتح ستار التمرد والعصيان على حاكم السودان العام الوفد من مصر محمد رءوف باشا.. وكان يردد دائما أن من غضب الله على الشعب السودانى فقد سلط عليهم الباشوات المصريين والأجانب!! وفى عام١٨٨٤ قررت انجلترا إرسال جوردون الذى كان حاكما فى عهد إسماعيل وكان هناك اعتقاد بأن أقدر الناس على إخضاع السودان والقضاء على المهدى الذى كان يخطط للإنفصال عن مصر.. وغزوها أيضا.. وانشغلت مصر بالثورة العرابية.. التى تزامنت مع ثورة المهدى.. فكان طبيعياً ألا تبالى الحكومة والشعب إلا بثورة عرابى.. أما قرار انجلترا فكان استعمارياً بحتاً.. قائماً على عدة أهداف أولها أن من يحكم مصر يحكم السودان ثانياً إذا تم إجلاء القوات المصرية من السودان.. فسيكون من الملائم إعادة فتحه مرة أخرى.. ولكنه سيكون سودانا إنجليزياً خالصاً.. لذلك رفض شريف باشا حملة مصرية إنجليزية مكونة من ١٠ آلاف مقاتل بقيادة رءوف باشا والكولونيل

١٥سبتمبر ١٨٨٢ وهزم عرابى فى القصاصين وفى التل الكبير نتيجة لخيانة بعض الدخلاء وأخيراً نالت انجلترا مرادها واحتلت القاهرة ومصر كلها ولم تغادرها لمدة اثنين وسبعين عاماً وتم نفى عرابى إلى جزيرة سيلا فى (سريلانكا) واختفى عبد الله النديم داخل الأراضى المصرية أكثر من تسع سنوات.. واطمأن توفيق المتخاذل وأمرته ملكته انجلترا بالإفراج عن المعتقلين السياسيين وفى عام ١٨٨٣ صدر «دستور دوفرين» نسبة إلى سفير انجلترا فى الأستانة الذى قام بوضعه وأعاد به البرلمان المصرى عشر خطوات للخلف ولم يكن ذلك استعداداً للوثب فوق خيانة توفيق وتسلط الأسد الإنجليزى أو مكافحة التخلف والفساد فى الباب العالى ولكنه انسحار من إنهزم فأطاع وتحول مجلس شورى النواب إلى مجلس شورى القوانين وإلى الجمعية العمومية وهما للمشورة وتابعان لمجلس الوزراء الذى خول سلطة إصدار القوانين والتشريعات باستثناء فرض الضرائب الجديدة. أما حرية الكلام فقد أصبحت حق للجميع فى مجلس شورى القوانين ورفعت إنجلترا شعار «دعه يتكلم.. دعه يعبر» طالما أن الكلام لن يفسد للود قضية ويبقى الحال على ما هو عليه وعلى المتضرر الإنخراط فى الحركة الوطنية وإعلاء مبدأ «مصر للمصريين».

مصر والسودان

اشتعلت الثورة المهدية فى السودان بعد عزل إسماعيل عام ١٨٨١، والمهدى هو أحد رجال الدين المتطرفين.. بدأ داعياً للتقشف والزهد وانتهى بإعلانه أنه المهدى المنتظر الذى سيملأ الأرض إسلاماً وعدلاً.. وبالفعل اعتقد عدد كبير من مريديه أنه يمتلك قدرات خارقة.. ولم تسلم مصر من تطرفه ومغالاته.. فبدأ بفتح ستار التمرد والعصيان على حاكم السودان العام الوفد من مصر محمد رءوف باشا.. وكان يردد دائما أن من غضب الله على الشعب السودانى فقد سلط عليهم الباشوات المصريين والأجانب!! وفى عام١٨٨٤ قررت انجلترا إرسال جوردون الذى كان حاكما فى عهد إسماعيل وكان هناك اعتقاد بأن أقدر الناس على إخضاع السودان والقضاء على المهدى الذى كان يخطط للإنفصال عن مصر.. وغزوها أيضا.. وانشغلت مصر بالثورة العرابية.. التى تزامنت مع ثورة المهدى.. فكان طبيعياً ألا تبالى الحكومة والشعب إلا بثورة عرابى.. أما قرار انجلترا فكان استعمارياً بحتاً.. قائماً على عدة أهداف أولها أن من يحكم مصر يحكم السودان ثانياً إذا تم إجلاء القوات المصرية من السودان.. فسيكون من الملائم إعادة فتحه مرة أخرى.. ولكنه سيكون سودانا إنجليزياً خالصاً.. لذلك رفض شريف باشا حملة مصرية إنجليزية مكونة من ١٠ آلاف مقاتل بقيادة رءوف باشا والكولونيل

هينكس تم القضاء عليها بالكامل فى كردفان ومات معظمهم جوعاً وعطشاً على الرمال الساخنة.. ولم يَعُد من هذه الحملة إلا ٣٠٠ مقاتل.. فكانت مذبحة بشرية.. انتهت بقطع رأس جوردون ـ قديس السياسة ـ التى لا تعترف بالقداسة، فمن أهم أسباب هذه الهزيمة المريرة إعلان جوردون عن نية انجلترا الحقيقية فى إخلاء السودان.. بل إنه ذهب إلى الإعلان عن تجاوزه فى جمع الضرائب وإباحة تجارة الرقيق التى حاربها سنوات.. فشعر السودانيون أن جوردون يلعب على أرض غير أرضه ومن السهل أن يكتسحه المهدى ورجاله.. وهو ما حدث بالفعل لذلك بادر المواطنون بالإنضمام لصفوف المهدى قبل بدء هذه المعركة، وحين علمت انجلترا بأن المهدى قام بتعليق رأس جوردون بين شجرتين وحام فوقها الطير وأرجمت بالحجارة.. ثم إعلان الحداد العام فى بريطانيا.. وبدأ العد التنازلى لتصفية دولة المهدى فى الوقت الملائم..

قبل أن تذهب جهود انجلترا فى طوكر!! ولكن ما هى طوكر!! بلغة السياسيين هى الهزيمة العسكرية للمهديين هى الهزيمة العسكرية للمهديين من خلال النصر الذى أحرزه الإنجليز عام ١٨٨٥ بوفاة المهدى وضعف حركته تلقائيا.. حين اجترأ السودان (المهدى) وهاجم حدود مصر فى وادى حلفا.. فثأرت انجلترا لجوردون وحاربت مع القوات المصرية فكان الضر حليفها وتم تأمين حدود مصر الجنوبية.. هنا أوصى

اللورد كـرومـر بالاسـتـيـلاء على مـدينة «طوكـر» شـرق السـودان حـيث كـان بعض أتبـاع المهـدى لايزالون يحـتـفظون بالغـلال فى صـوامـعـهـا ثم عـادت مـصـر وانسـحـبت من السـودان الذى وقع تحت سـيطرة أتبـاع المهدى حـتى عـام١٨٩٦.. (حـين تقـرر إنشـاء خزان أسوان فكان لابد من تأمين حدود مـصـر الجنوبيـة.. فهـذا مـا فـرضـتـه وحـدة النيل على كـلا الشـعـبـين اللذان ارتبط مصيرهما بنبع وجوار مشترك وتقـرر فتح السـودان عـام ١٨٩٦ وأنتصر (كيتشنز) الذى سيصبح مندوبا ساميا فى مصر فيما بعد - فى معـركة أم درمان وخسـرت مصـر ما لا يعوضه المال.. فمنذ نشوب الثورة المهدية ١٨٨١ وحتى اعادة فتحه نهائياً عـام ١٨٩٨ فـقـدت مـصـر أكـثـر من ٧٦ ألـف مـقـاتل وفى عـام ١٨٩٩ تحـدد مـصـيـر السـودان وأصـبـح سـودانـاً (مـصـرياً إنجليـزياً) بموجب اتفـاقـيـة الحكم الثنائى وحتى استـقـلال السـودان رسـمـيـا عان ١٩٥٤.

وبمرور الوقت تعـاظم دور بريطانيا فى مصـر فى الوقت الذى تضـاءلت فـيـه سلطة الخـديو الفـعليـة.. حـتى أصـبح من الملائم تتويج اللورد كرومر الذى وصـف توفيق قـائلاً: «أعـتـقد أن أفضل أصـدقـاء توفـيق لن يقـروا بأنه كـان رجـلاً عظيـمـاً أو خـديويا مثـاليـاً، فـهـو لم يكن من العظمـة فى شىء.. ولكنه كـان مكتفـيـاً بالزواج من إمرأة واحدة.. فـضـرب بذلك مثـلاً صـالحـاً لأولاده!! وكـان أبـاً صـالحـاً معنيـاً بحـسن تربيـة أبنائه وكـان بالقـيـاس إلى

من حوله مستقيما وفياً وكان كأكثر أهل بلاده يخاف المسئولية ويجتهد فى إلقائها على أكتاف الآخرين فكان يشكو من كثرة عدد الأوروبيين فى الحكومة المصرية فإذا قصده أوروبياً يلتمس منصباً أجابه بأنه سيكون سعيداً لإجابة طلبه ولكن السلطة البريطانية تمنعه من القيام بما يمليه عليه قلبه. كان عديم النشاط يفتقد الابتكار. كان طيب القلب يظهر المقت لكل أنواع التحكم!! ولم يكن متعلماً تعليماً عالياً ونادراً ما يقرأ كتاباً وكان يكتفى بالاطلاع على الصحف وإذا لم يكن عظيماً فى الرجال فهو لم يكن خديوياً فلو أنه كان رجلاً قوى الإرادة رفيع الخلق حاد الذكاء، لوضع نفسه على رأس حركة الاصلاح فى مصر ولظهرت سلطته وعلى الرغم من ذلك لم يكن ملوثاً برذائل الحاكم الشرقى» وهذه الشهادة هى أكبر عقاب لتوفيق فى ذمة التاريخ ممن أحتمى بحماهم وباع وطنه وأشترى رضاهم فإذا كان عهد إسماعيل هو «عصر الأحلام الوردية» فإن حكم توفيق جسد الكوابيس الاستعمارية التى أفزعته أيضاً ولم يحتملها كثيراً.. ووافته المنية عام ١٨٩٢ عن عمر يناهز أربعين عاماً.



عباس حلمى الثانى

عباس حلمى
أول من تحمس للحركة الوطنية المصرية

نحن لا نحكم مصر ولكننا نحكم من يحكمون مصر بهذه اللكنة الاستعمارية والعنجهية السياسية والأهمية الاستراتيجية لمصر بدأت علاقة الخديوى عباس حلمى الثانى باللورد كرومر. المندوب السامى البريطانى. وهى علاقة اتصلت خيوطها الشائكة من خلال لعب الشطرنج السياسى فى مباريات غير متكافئة انفرد فيها كرومر بعبارة: كش ملك!! ويموت الملك وتنتهى اللعبة لتبدأ من جديد وفى كل مرة يكون الفوز حليف كرومر..

يقول الخديوى عباس حلمى فى مذكراته التى كتبها فى جريدة «المصرى» ونشرتها دار الشروق ويشير إلى تلك العلاقة «كان يقول بلهجة (٣٧) ساخرة أنا راضى جداً عن نشاط صاحب السمو وعن شبابه!! الأمر الذى يعنى قلّة خبرتى، ونظراً لصغر سنى اعتبر كرومر أن من حقه أن يعطينى بعض النصائح

والتوجيهات التى قبلتها على مضض كان يحاول دائما أن يهيننى ويقلل من شأنى ويحاول أن يحرجنى مدعياً أن الشعب المصرى كان يرغب فى الثورة ضد الأسرة الحاكمة وأن الإنجليز حضروا من أجل حمايتها وإعادة النظام ودائما يقول لى: «لا تنسى أن الحركة العرابية موجودة دائما وأننى إذا ما رفعت إصبعى الصغير ستظهر من جديد وتطيح بالأسرة خارج البلاد!! وحينما كان يحدثنى بهذه الطريقة لم أكن أرد عليه أبداً.. إذ أننى كنت لا أرغب فى نشوب أزمة يمكنه أن يستغلها ضدى!! وأدركت أننى إذا أصررت على كرامتى ورفض الدور الصغير (الكومبارس) الذى ترغب انجلترا فى أن تتركه لى فإنه سوف يدفع الشعب المصرى للوقوف ضدى! هذا هو اللورد كرومر الذى كان يقضى أوقات فراغه فى ترجمة «الأوديسة» لهوميروس.. لقد رسموا له صورة رجل جاف عنيف ولكننى لا أوافق على هذا الرأى ربما قد أساء فى بعض الأحيان استخدام القوة الموجودة بين يديه ولكنه لم يكن خصماً فظيعاً.. كنت مسروراً بصراعى معه واعتبرت ذلك نوعاً من الرياضة.. وإذا كان له بعض المساوىء.. إلا أنه لم يكن مزيفاً أو منحرفا وطوال الفترة التى قضاها فى مصر كان حريصاً على تنفيذ مهامه وبصراحة شديدة كان وفياً فى خدمة بلاده.

استمرت هذه الرياضة أو اللعبة الخاسرة بين الخديوى وكرومر قرابة الخمسة عشر عاماً من الجدل الثنائى والقهر

الشعبى والفقر الديمقراطى.. إنه عهد كرومر الذى وصفه حافظ إبراهيم قائلا:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت

حواشيه حتى بات ظلما منظما

ولد عباس حلمى الثانى فى ١٤ يوليو عام ١٨٧٤ وهو الأبن الأكبر للخديوى توفيق شقيقه الصغير الأمير «محمد على» كان ولياً للعهد الملك فاروق.. حرص توفيق على العناية بابنائه وإتمام دراستهم فى أرقى المدارس الأوروبية.. وفى عام ١٨٨٢ أمر ببناء مدرسة مجاورة لقصر عابدين خصيصاً لأبنائه ولكنها كانت تضم أكثر من مائة طفل من الأسر الراقية وبذلك أعتاد عباس حلمى وأخيه محمد على الاختلاط والتحدث مع أطفال آخرين وفى سن العاشرة سافر عباس حلمى ولى العهد إلى إنجلترا وتم تقديمه للملكة فيكتوريا وفى الثانية عشر من عمر عمره ألتحق «بالتريزيانوم» وهى مدرسة عسكرية شهيرة فى فيينا وتوفى توفيق، فصدر فرمان وراثة عباس حلمى فغادر النمسا تتنازعه أحاسيس متناقضة وتعتصره آلام الفراق حزناً على والده لتغتال البهجة اللحظية التى تصاحب شهوة الملك وإغرائه فقد أصبح خديوياً لمصر وهو دون الثامنة عشر من عمره وذهب لوداع امبراطور النمسا «فرنسوا جوزيف» للمرة الأخيرة والذى واساه بقوله «إن أجمل طريقة للقيام بالواجب

تجاه الموتى هى أن نجيد عملنا ونحترم أفكارهم» واصطحب معه إلى مصر أستاذ القانون الدولى المسيو «لوى روبيه» وهو أستاذ فى الأكاديمية الشرقية فى فيينا وهو عالم سويسرى..

أراد عباس أن ينهل من حيادية بلاده.. فلا شىء أصعب فى السياسة من الحياد.. فالسياسة هى فن إرضاء الأسياد.. ليس حباً فى شمهورش ولكن من أجل المحافظة على التوازنات فى السيرك السياسى وما أكثرها!! (الباب العالى - الحركة الوطنية فى مصر - المصالح الشخصية الخ) أنه عباس الثانى (المعدل) الحفيد الثانى لمحمد على الذى يحمل نفس الاسم ويتولى عرش مصر وهو الشاب الوسيم المراهق الذى يتم إعداده منذ الصغر لهذه المهمة الخطيرة وتظل المرحلة العمرية التى يمر بها الإنسان خلال مشوار حياته.. تهتف بصوت الحقيقة فى أعماقه أيا كان منصبى.. فكان طبيعياً أن تتوج مراهقته وشبابه المبكران أيضا على عرش مصر.

نشأ عباس حلمى أرتوقراطياً شأن بقية أسلافه الذين حكموا أثناء شروق فجر الديمقراطية فتم تأجيل إعلان الدستور والتمسك بالحكم المطلق وهذه هى الوصفة السحرية لصيانة الملك من الجماهير التى لم تبلغ سن النضج بعد !! من هذا المنطلق (الذى كانت تتشدق به انجلترا دائما) بدأت الفترة الأولى من حكم الخديوى متميزة ومستنيرة نسبياً.. فهو أول حاكم من أسرة محمد على يتحس للحركة الوطنية ويدعمها

ففى عام ١٨٩٤ تعرف بطالب الحقوق مصطفى كامل بالخديوى فى صالون على باشا بارك الثقافى وتوافقت رؤيته مع هذا الشاب الوطنى الوسيم الذى غادر مصر متوجهاً إلى فرنسا ليملأ صفحات الفيجارو والأكلير بمقالات نارية تلهب ضمير العالم الأوروبى من أجل مناصرة مصر فى قضيتها من أجل الحصول على استقلالها التام ومنحها حكما ذاتياً واقامة حكومة دستورية وعن طريق اتصالات الخديوى بعث مصطفى كامل بخطاب جاء فيه «أنا لا أزال صغيرا ولكنى أريد أن أرتظ فى مصر بالكاتبة الفرنسية جوليت آدم القديمة مصر الفتاة، يقولون إن وطنى ولا وجود له.. إن وطنى موجود وسيبقى، وعرفت فرنسا «كرامل باشا» أو «CARAMEL PACHA» وهذا هو اللقب الذي أطلقته عليه الصحف الفرنسية عام ١٨٩٥ مداعبة وتدليلا علي الرغم من أنه لم يحصل علي الباشوية إلا عام ١٩٠٤.

أفادت الحركة الوطنية فى مصر علاقة الخديوى مصطفى كامل الذى تلقن درساً من عبدالله النديم «خطيب الثورة العرابية» الذى أوصاه بمحاولة اجتذاب الخديوى لتمويل الحركة بدلاً من معادته طلما اتخدت الأهداف فى التخلص من المستعمر البريطانى وفى عام ١٩٠٠ أصدر مصطفى كامل جريدة «اللواء».. التى نجحت فى تعبئة الرأى العام وإشعال الحماس بين «الطلاب والموظفون والتجار والأفندية ذوى

الياقات البيضاء أما الفلاحون والمشايخ والأعيان فكانوا على موعد مع «حزب الأمة الذى تأسس عام ١٩٠٧ وتزعمه سعد باشا زغلول وأصدر جريدة «الجريدة» التى رأس تحريرها أحمد لطفى السيد وكانت مصرية مستقلة تماما عن الخديوى والإنجليز والباب العالى.. الذى كان الحزب الوطنى ينظر إليه نظرة ولاء وتبعية إعلاء لمفهوم الجامعة الإسلامية ووحدة الأمة واستمرت علاقة الخديوى بالحزب قوية وإيجابية حتى تم الإتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا عام١٩٠٤ هنا نزع الخديوى القناع وباع القضية الوطنية ففى عام١٩٠٦ أرسلت تركيا قوات عسكرية إلى منطقة طابا استناداً إلى تبعية سيناء للباب العالى.. وهوادعاء يخالف فرمان١٨٤٠ الذى حصلت عليه مصر (فى عهد محمد على) وحين صدر فرمان تولية الخديوى عباس حلمى حذف الأتراك سيناء من فرمان التعيين ولم ينتبه أحداً إلى ذلك إلا عام١٩٠٦ ووقفت إنجلترا فى صف الخديوى لاسترداد سيناء ولم يكن هذا الموقف نتيجة لحرصها على مصالح مصر.. ولكن كان انعكاسا لتخوفها الدائم من تحالف تركيا وألمانيا فكيف تترك سيناء؟ إن من يحكم سيناء يحكم مصر والعكس صحيح وبسرعة شديدة تم الاسترداد وانسحبت تركيا من طابا خلال عشرة أيام فلماذا الخلاف بين الخديوى ومصطفى كامل؟ حين ثارت قضية طابا أعلن مصطفى كامل عن رأيه فى جريدة «اللواء» قائلا: إن مصر لا ولاية لها على

سيناء «وشرح وجهة نظره فى مقال آخر» حيث كان يرى أن السيادة الحقيقية على مصر هى سيادة تركيا.. أما انجلترا وهى دولة متعدية كان يجب عدم اللجوء إليها فالشعار الذهبى لتلك المرحلة الهامة من الجهاد الوطنى كان يمجد مبدأ «عدو عدوى صديقى» وأكد مصطفى كامل هذا المعنى بقوله «أنصر أخاك ظالما أو مظلوما» لذلك كان الشعب المصرى بعواطفه مع المحور فى كلا الحربين العالميتين اشفاءاً للغليل من استبداد استعمارى استمر عشرات السنين ولكن الغالبية العظمى من الشعب كانت تتمنى الاستقلال عن السيادة العثمانية والإنجليزية على السواء واستفحل الخلاف بين الخديوى ومصطفى كامل حين اضرب طلاب مدرسة الحقوق اعتراضاً على موقف الخديوى واستعانته بالإنجليز لإسترداد طابا وعن تلك العلاقة يقول عباس حلمى:

الاتجاه الوطنى فى ذلك الوقت كان فاسدا ولم يكن يستهدف الأجنبى للسيطرة وحده.. ولكن كل ما لم يكن مصريا وحتى كل ما لم يكن عربيا فكان من الضرورى محاربة مثل هذه الاتجاهات لإنشاء وحدة وطنية بعيدة عن كل حكم مسبق وكان من الضرورى إثارة اهتمام أوروبا بهذه الحركة التحررية.. هل يمكننى الاعتماد على مجتمع فقد روحه المعنوية؟

لقد فقد كل فرد طريقه بين هذا الضياع العام وكانت فكرة الواجب قد اختفت من قاموس موظفى الدولة وكان الشعب

وحـده هو الذى بقى دون أن يفـسـد وقـاسـى دون أن يشكو من أفـعـال سـادته وخيـانتـهم وكـان يتطلع صـابرا لأيام أفـضل وهم دائما خاضعون بتواكلهم التقليدى للرغبة البعيدة لسيد الوقت!

أما مـصطفى كامل هو المنشط للاتجاه الوطنى والمبشـر بهـذه الفكرة وكـانت فـصـاحـتـه واضـحـة وأسلوبه رشـيـق يتـحـرك من البسـاطة الملائكية إلى الفصاحة العارمة لشيوخ روما كانت لديه قـدرة هائلة على الإقناع، كـان يرغب فى التـقـارب مع تركـيـا وكـانت الجـمـاهيـر مـتعلقـة بشـخـصه أكثـر من قلقـها بـأفكاره والرجل الشرقى عموماً يتبع الزعماء أكثر من اتباعه لمبادئهم.. حلمت بالتـقـارب بين مـصطفى كـامل والشـيخ على يوسـف ولكن فـشلت.. قـاوم مـصطفـى كـامل بصـعـوبة «أزمـة جنون العظمـة» قـالوا إننى كنت خصـمـا لمصطفى كـامل وقـالوا إنه من صنعى.. ولكنه كـان رجلا من النخبه عـاش لعقيـدته ومات فى سبيلهـا ولم أكن خصـمـاً له ولم يكن يومـاً مندوبـاً لـى، لقـد كان أحـدْ الطلائع قـام بتـحـديد المثل الأعلى للأمـة «ونحن نخـالف الخـديوى الرأى فـيـمـا يتعلق بالزعـيم مـصطفى كـامل فكيف تتعلق الجـمـاهيـر بشـــخص دونما التـعلق بـأفكاره ومـبـــادئه وإلا فكيف أصـــبح زعيماً»!!

لقـد كـان مـصطفى كـامل لسـان مـصـر البليغ الذ ى صـمـتت الأغلبـيـة لسـمـاعـه فـهـو ولى أمـرهـا أنظر إليـه حين يتـحـدث فى

صحف أوروبا «لمصر مكانة خاصة فى الشرق فهى التى وهبت العالم قناة السويس وفتحت السودان أمام الحضارة ومن المستحيل أن يتم حكم مصر وهذا حالها كما تحكم بلاد بعيدة فى أعماق أفريقيا لقد رأى الناس الإنجليز ينفعلون ضدما يجرى فى الكونغو وغيرها من البلاد فكيف يسمحون بحدوث أحدث الجرائم فى مصر أننا نطالب بالعدل والمساوة والحرية ونطلب دستورا ينقذنا من السلطة المطلقة مصر التى أعطت للعالم أجمل واسمى الحضارات لا ينبغى أن تصبح مسرحاً للأعمال البربرية أما آخر كلماته التى حفرت فى وجدان الشعب بحروف من العزة فهى بالطبع عبارته الشهيرة «لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً» وفى عام ١٩٠٨ فقدت مصر زعيمها الذى لم يتجاوز الرابعة والثلاثين عاماً.. ورثاء حافظ إبراهيم له يعجز أمامه أى قلم عن وصف شعور الأمة آنذاك بل هو رثاء يسقط القلم ويخرس الألسنة ويسيل الدموع.

كنا نيامًا حينما كنت ساهداً..

فأسهدتنا حزنًا وأمسيت غافيًا

مات الذى أحيا الشعور وساقه

إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا

أيا قبر لو أنا فقدناه وحده

لكان التـأسى من جـوى الحـزن شـافـيـا

ولـكن فـــقـــدنا كل شىء بـفـــقـــده

وهيـــهـــات أن يـأتى به الدهـر ثانيـــا

فـــيـــا ســـائلى أين المـروءة والـوفـــاء

وأين الجـــحـــا والـرأى؟ ويحك هاهيـــا!!

عـــهـــدناك لا تـبكى وتنكر أن يـرى

أخـــو البـــأس في بعض المواطن بـاكـيـــا

فـــرخص لنا اليـــوم البكاء وفى غـــد

ترانا كـــمـــا تهـــوى جـــبـــالا رواســـيـــا

فـــيـــا نيل إن لم تجـــر بعـــد وفـــاته

دمًـــا أحـــمـــر لا كنت يا نيل جـــاريا

ويا «مـصـــر» إن لم تحـفظى ذكـر عـهـده

إلى الحـــشـــر لازال انحـــلالك بـاقـــيـــا

ســـتـــشـــهـــد فى التـــاريخ إنك لم تكن

فـتى مـفـردا بل كنت جـيـشًـا مـغـازيًا

فكان طبـيـعـيـاً أن ينشق الحـزب الوطنى بعـد هذا المصـاب الفـادح وعلى الرغم من تولى على فـهـمى كـامل لمهـام شـقـيـقـه

الفقيد إلا أن التيار الوطنى الجارف كان أقوى من مواهبه السياسية. كما أن الزعامة لا تورث ولم تنضب أرض مصر يوماً من الزعماء المخلصين ووجدت الجماهير فى زعامة محمد فريد ما يخفف دمعها ويستنهض قواها ومنذ البداية استقل محمد فريد فى كفاحه الوطنى بعيداً عن القصر على الرغم من أنه كان من أهم دعائم الحزب الوطنى.. وعن علاقته بالخديوى عباس فقد وصفه الآخر بأنه كان أميناً(٣٩) وطنياً تم اختياره نتيجة لتشدده لكل ما قدمه من قبل للحزب الوطنى ورفضه الانحناء أمام رغبات انجلترا كان يجيد الحرب والمقاومة ولكنه لم يكن قادراً على قيادة جيش وأخطأ فى تسلم مسئولية لم يكن مهيأ لها وكثيرا ما كانت تدخلاته تمثل كارثة لم يدرك محمد فريد أنه حتى فى المعارضة يجب المحافظة على بعض اللياقة!! كان يدعى أنه يقود الحركة دون أى انقسام ودون أى ارتباطات بالعرش ونسى أنه بدون القصر ما حصل مصطفى كامل على جزء من قوته.. «مصر للمصريين» كان أساس برنامجه ومطالبه وكان هو نفسه من أصل مغربى» مهلاً عزيزى القارىء سوف تزيد دهشتك حينما تعلم أن الخديوى عباس وصف مصطفى باشا فهمى (رئيس الوزراء الأسبق) أيضا صهر سعد زغلول «بأن اتجاهه الوطنى لم يكن له جذور ولم يكن من أجل مصرى أيضا» وحقيقة الأمر أنه كان وطنياً شريفاً وقد هاجم بعض قيادات الحزب الوطنى سعد باشا

حينما تزوج ابنته «صفية زغلول» وطغوا فى وطنيته وتلك قضية أخرى فإذا كان سعد قد صاهر الارستقراطية إلا أنه لم يتزوج مبادئها وظل شعبياً مخلصاً لبلاده التى منحته أرفع الألقاب «زعيم الأمة» فيما يتعلق بمصطفى فهمى فقد لقب «بصديق الإنجليز» حيث انفردت نظارته بأنها أطول نظارة فى تاريخ النظارات فى تاريخ مصر قبل الثورة استمرت ثلاثة عشر عاماً من ١٨٩٥ ـ ١٩٠٨ تولى خلالها سعد «نظارة المعارف» بترشيح من اللورد كرومر الذى أراد أن يمتص غضب الشعب ضد الإنجليز حادث دنشواى كما تقلد نظارات عديدة أخرى خلال مشواره السياسى فكان ناظراً للخارجية فى وزارة البارودى عام ١٨٧٩ وهى نفس الوزارة التى تولى فيها عرابى نظارة الحربية وهو الذى قام بالرد على الإنذار الفرنسى المشترك عام ١٨٨٢ واستقال جماعياً مع هذه الوزارة اعتراضا على مطالب هذا الإنذار المشين.. فهو من العرابيين وليس من العدل أن يطعن فى ولائه الوطنى لمجرد أنه كان سياسياً مرناً تربطه علاقات متزنة بالمندوب السامى البريطانى وهى علاقة لها ما يبررها فى عالم السياسة من منطلق مبدأ «أعرف عدوك»!! وكان لابد من وجود حوار وجوار واتصال بين قيادات الحركة الوطنية والحكومة البريطانية والإ فكيف يكون التفاوض من أجل الاستقلال وتطوير الحياة النيابية والتخفف من المراقبة الثنائية

وتلك هى مأساة تفسير وتحليل بعض المواقف تاريخياً دون وجود سند مادى للإدانة!!

ولكن الخديوى عباس حلمى الديكتاتورى الصغير لم يكن يرغب فى رئاسة مصطفى فهمى لمجلس النظار ورشح فخرى باشا لرئاسة الوزارة فرفض اللورد كرومر ويعبر عباس حلمى عن هذه الأزمة قائلاً: «لم يعد فى وسع الخديوى اختيار رئيس نظارة دون موافقة المندوب البريطانى.. كنت ممنوعاً من إختيار أكثر المقارنين معى بطريقة مباشرة كما أرغب» وانتهى الأمر بتولى رياض باشا هذه المهام!!

وكان من الأمانة أن يكتب عباس فى مذكراته هذه العبارة بخط واضح «هذا ما جناه علىّ أبى»!! وبدلاً من الاعتراف بالحق.. نراه يتهكم بالباطل ويصف رياض باشا بأنه تركي قديم(٤٠) وزعيم الأمس سعد زغلول.. نتيجة لأهداف انجليزية وحددت تطورات جذرية فى المجتمع أصبح هذا الفلاح لبن الفلاح بطلا للاستقلال الوطنى!! ويبرر موقف أبيه المتخاذل وتواطئه مع الإنجليز محللا ومبررا «كان حاضرا فى ذهنى هذا البؤس الذى وقع بمصر(٤١) بسبب جنون بعض الجنود غير المنضبطين الذين وقعوا ضحية لبعض النصائح الخبيثة مدفوعين ببعض الرؤساء المحنكين فالثورة لم تنشب نتيجة أفعالهم وإنما انفجرت تلقائياً فى عهد حكمه ولكن جذورها

كانت قديمة وعميقة ولم يأخذ والدى هذا القرار نتيجة لضعف أو جبن بل رغبة أكيدة منه فى تحاشى وقوع حرب أهلية خاصة مع الوضع الحالى المتزعزع ورغم موقفه الحرج وقت استيلاء انجلترا على البلاد فإنه لم يحن!! كان يعتقد فى صدق نواياهم وقالوا: إن التدخل سيكون لمدة قصيرة لتدعيم العرش وحماية المصالح الأجنبية وسر الخديوى بأن هذا الاحتلال سيكون بعد تنازل اسماعيل عن العرش وسفره إلى الخارج.. قالوا إن إسماعيل قد قام بنفسه بإشعال ثورة عرابى لمدة قصيرة ضد ابنه (والدى) حتى يستعيد العرش!! لقد وجد نفسه محصورا فى دائرة من الحقد والعنف والشكوك ومنذ فتنة عرابى التى زاد الاحتلال من نتائجها اصبحت يده مغلولة ووجد نفسه مهزوما فى عمله كحاكم واجه الباب العالى واللورد كرومر والمراقبون الأجانب للدين وعدم مبالاة الأهالى وإخلاء السودان وسلبية حال السياسة وععقبات أخرى متنوعة وليس هناك ما هو أصعب من ممارسة الحكم فى ظروف مثل تلك الظروف الوعرة.. ولكنه أخطأ فى استماعه إلى أولئك الذين اعتقدوا أن زيادة حقوق الأمة تعادل انخفاض قوة الأسرة الحاكمة!!

فإذا كان هذا هو رأيه فى والده فلماذا ضمن هو أيضا على شعبه بحقوقه النيابية المشروعة ولكن من الأمانة أن نؤكد أن الجماهير احتشدت حوله فى بدايات حكمه فهو نصير الحزب

الوطنى الذى كان يتزعمه سياسياً من طراز خاص لم تعهده مصر من قبل «مصطفى كامل» فإليه يعود كل الفضل فى ظهور كوكبة من السياسيين الذين سطعت اسمائهم من خلال ملحمة الكفاح الوطنى من أجل الاستقلال فى سنوات لاحقة فظهر لطفى السيد وعبدالعزيز فهمى وعبدالخالق ثروت وعدلى يكن وإسماعيل صدقى عام١٩٠٧ تأسس حزب الأمة أيضا من الوطنيين المثقفين المستقلين وهو أكبر حزب عرفته مصر كان له من اسمه الكثير ذلك الاسم الذى ارتبط بسعد باشا ومن الطريف أن سعد زغلول لم يكن عضوا فى هذا الحزب فى بداية نشأته.. وكان شقيقه فتحى زغلول هو العضو المؤسس لهذا الحزب أما العقل المدبر لهذا الكيان فهو سعد بالطبع الذى كان يطالب بالتخلى عن الحكم المطلق وإرساء قواعد الممارسات البرلمانية الأوروبية ونتيجة لهذا الوضع الحزبى الراهن قام الخديوى عباس بالمناورة للرد على حضون وتنفيذ مطالب الأمة عن طريق دعوة الشيخ على يوسف لتأسيس «حزب الإصلاح الدستورى» وأصدر الحزب جريدة «المؤيد» عام١٩٠٧ . وهو عام نشأة الأحزاب الوطنية الثلاثة . وكانت من أقوى الجرائد المصرية التى هاجمت الاستعمار البريطانى فى مصر، حيث بلغ توزيعها ٦٠٠٠ نسخة يومياً عام ١٨٩٦ فى عهد الخديوى عباس حلمى وأكتتب فيها المهندس الإنجليزى «ويلكوكس» الذى قام ببناء خزان أسوان وكاد يفصل من وظيفته

حين علم اللورد كرومر بذلك.. وقد أنقذ سعد زغلول هذه الصحيفة التى كادت تتوقف تماما عن الصدور لإختلاف شريك الشيخ على يوسف فأقرضه سعد باشا مبلغاً من المال فجسد بذلك المواقف الوطنية الحقيقية الملتهبة.

أما حزب الإصلاح فهو حزب خديوى واضح المعالم.. يدعم موقف عباس الذى أصبح معادياً للحركة الوطنية وقد أعلن صراحة بقوله إن الحكم النيابى لا يصلح للشعوب الشرقية.

أما الشيخ على يوسف كان وطنيا مخلصا بأسلوب آخر، فلم يكن هناك نظام محدد للعشق الوطنى فى خضم هذه الأحداث كثيرا ما اختلطت الأمور وتشاركت فكانت الاتهامات بين زعماء الحركة الوطنية أمراً مألوفاً شأن السياسة فى أى عهد(٤٢).

يقول عباس حلمى حينما كنت أحضر أثناء العطلات لزيارة والدى كنت أصطدم بالتفاهة الفكرية للوسط المحيط بوالدى توفيق وفى مراهقتى البريئة اعتقدت أنه يمكننى أن أجد عند هؤلاء الشيوخ آراء حكيمة وسرعان ما تأكدت أننى لن أحصل على شىء من ذلك.. لم يكن النظار عاجزين عن إبلاغى بحالة البلاد فقط بل كانوا يجهلون كل اختصاصاتهم.. ووجدت نفسى وحيداً تماما فى سن السابعة عشر ووصلت إلى السلطة محروماً من كل توجيه ينبهنى إلى الصعوبات وخبايا السياسة وسرعان ما علمت أن كبار الضباط الذين يعيشون ينتسبون إلى

المحفل الماسونى وكان رئيس المخابرات فى مصر هو رئيس المحفل المأساوى أيضا وفى أول اجتماع لمجلس النظار كان من المستحيل أن أعلم أى شىء عن دورى!! أما كبير الأمناء ذو الفقار والذى كان ناظراً للخارجية من قبل فكان لا يعرف حتى وضع الشخصيات حول مائدة المداولات!! وانتشر جواسيس المخابرات فى القرى وفى الأحياء الارستقراطية وعلى عتبات العرش.. ويؤسفنى أن إدارة المخابرات أفسدت بعض أفراد أسرتى.. كانت بريطانيا تستخدم أكثر الوسائل خِسة لكى تستولى على شعب عانى من الظلم طويلا ويتصف بالخوف.. وكانت الطيبة التى يتسم بها تبعده دائما عن المغامرات!!

ولجأت أنا أيضا إلى استخدام وسائل خصومى لكى أفلت من حبائلهم فأصبحت لى مخابرات فى كل مكان المدارس والوحدات العسكرية وفى منزل السردار (قائد الجيش) ساعدنى على تحقيق ذلك عدد من شباب البلاد المخلص كان نشاطهم وتطوعهم نابعا من اعتقاد عميق بأنهم يقومون بعمل دينى فى هذه الفترة كان الدين لايزال قادراً على إثارة حماس الرجال وشحذهم وعمل الشيوخ على مساعدتى كوسطاء مع الجنود وربما كانوا يعملون لمصلحته فلم يكن الإيمان يكفى دائماً لإطعام رجال الدين ومهما كان إعجابهم بملذات الجنة فإنهم لا يكرهون أن يتبعوا الطرق الأكثر راحة التى تؤدى إليها.. جلس على مائدتى العلماء والمهندسون والفقهاء والأدباء والشعراء

وأتيح لى فرصة رؤية الشيخ محمد عبده ذلك الرجل ذو الشخصية الخجولة الذكية اصطدمت بعناده كان مخلصاً لإنجلترا حاولت أن أخلصه من سحر قصر «الدوبارة» ولكن بلا جدوى!! ولكنه رجلا تقليداً يعرف اللغة والحضارة الحديثة وقد تركت مشاركته فى الحركة العرابية بصمات لا تمحى من صحيفته واكتشفت أن كل الموضوعات المتبادلة كانت تصل إلى آذان انجلترا وبطريقة مشوهة تماماً وكانت علاقته بالإمام محمد عبده فقد ساءت حينما اعترض على استخدام الخديوى لأموال الأوقاف فى الفترة التى عين فيها مفتياً للديار المصرية عام١٨٩٩، فرد عليه أنصار الخديوى واتهموه بالزندقة واعتناق الفكر الوهابى وهو اتهام لا أساس له من الصحة فالإمام محمد عبده هو التلميذ النجيب لأستاذه الأفغانى رائد الاصلاح والتنوير فى العصر الحديث.

ويصرح الخديوى بإعجابه الشديد بأمير الشعراء «أحمد شوقى» ويقول:[٤٣] «تمكن أحمد بك شوقى ذلك الرجل العبقرى الذى عرفته وأحببته وكان مديراً لإدارتى العربية من أن يحقق للغة العربية وللفكر الوطنى نهضة عظيمة.. كان صغير السن كلاسيكياً قصائده تظهر فى الصباح ويتغنى بها الناس فى المساء أما كلماته فكانت متسقة مع روح العصر .

ولكن هنا الرأى لا يعنى أن شوقى الذى عظمت مكانته لدى الخديوى كان صدى للقصر فقد ظلت اشعاره الوطنية سلسلة

عـذبة نقـيـة لا تشـوبهـا أى شـائبـة وبعـد عـزل الخـديوى خـشى الإنجليـز من حـرارة أشـعـاره التى كـانت تلهب وجـدان الأمـة فى زمن شق فـيـه طريقـه للكفـاح وكـان لـلأشـعـار والخطب النـارية والمنشـورات السـرية دور البطولـة ـ وتم نفى أمـيـر الشـعـراء إلى إسبانيا ثم عاد إلى مصر عام ١٩٣٠.

انفجارات وطنية

فى الوقت الذى تتابعت فيه جرائم الخديوى أمام كرومر.. اشتد خـلافـه أيضـا مع مـصطفى كـامل، لانفصـاله عن مطالب الأمـة الدسـتورية وتهاونه بالرأى العام الذى قـال عنه «رأى عـام إيه!! هو فيـه حاجـة اسمها رأى عـام؟ أنا إن(٤٤) لبست برنيطة ومـشيت فى البلد لا يسـتطيع أحد أن يتكلم!!» وأصبـحت هذه العبـارة المأثورة فى عـهود لاحقـة مطلعاً غنائيـاً لأغنيـة الست بعد تعـديلهـا «حب إيه»!! وهـو رد عـجـيب جـدا من أفندينا الذى تعلم فـى أوروبا.. كـيف ينكر وجـود هذه السلطة الخـامسـة التى تسـقط العـروش حقا العلم فى الرأس وليس فى القرطاس كما يقول العرب.

دنشـواى

فى صـيف عـام ١٩٠٦ خـرج مـجـمـوعـة من الضـبـاط الإنجليـز من ثكناتهم لصيد الحـمـام فى قـرية «دنشـواى» فتسـبب البـارود



إعلان (أوبرا عايده) كما نشر فى صحيفة وادى النيل عام 1873

المتطاير من بنادقهم فى اشتعال النيران فى أحد الأجران.. ففزع الفلاحون وخرجوا بالنبابيت وأصيبت امرأة ظنوا فى البداية أنها ماتت.. فقام الأهالى بضرب أحد الضباط الإنجليز فجرح وظل يجرى لمسافة طويلة والقيظ شديد.. فأصيب بضربة شمس سقط على أثرها من الإعياء ثم توفى.. كان الخديوى يصطاف فى أوروبا حين قرر الإنجليز عقد محكمة خاصة حاكمت الفلاحين المظلومين بموجب قانون عرفى صدر عام ١٨٩٥ وشكلت المحكمة من بطرس باشا غالى وزير الحقانية وفتحى بك زغلول (شقيق سعد زغلول) رئيس المحاكم الأهلية ولطفى السيد ممثلا للدفاع وإبراهيم الهلباوى ممثلا للاتهام وصدر الحكم التاريخى لهذه المحاكمة الصورية بالإعدام شنقاً وعلنا لأربعة من الفلاحين وبالأشغال المؤبدة لاثنين من المتهمين وتدرجت العقوبات التى تم إصدارها ضد ٢١ فلاحا مقابل وفاة ضابط إنجليزى توفى بضربة شمس!! وبدأ المكتوم يظهر على السطح.. خاصة أن المشانق نصبت فى مكان الحادث قبل الإعداد للمحاكمة.. الأمر الذى أشعل غضب أهالى الريف الهادىء.. فاتسعت حركة المقاومة الوطنية.

وأصبحت مصر كلها كعنية بالاستقلال التام أو الموت الزؤام واشتدت مطالب الحزبان الكبيران (الوطنى والأمة) بالدستور ولجأ الحزب الوطنى للاستعانة بالعرائض الموقعة كوسيلة للضغط على الخديوى الذى انتقد والده فى عدم تلبية مطالب

الشـعب الدسـتـورية.. وهو الآن يرتكب نفس الحطأ الفـادح ويزداد قـرباً من الإنجليـز.. الذين قـامـوا بدورهم بإنهـاء خـدمـة كرومر فـى مصـر التى أقام فيهـا أكثر من اثنين وعشـرين يصـول ويجـول ويخطط ويتـجـبـر ويهـادن ويخـادع ويتـحـكم وفى حـفل وداعـه الذى أقـيم فـى دار الأوبرا اخـتـصـر كـفـاح الأمـة من أجل الحـصـول عى الدسـتـور والبـرلمان قـائلا «أعـزائى» إنه لا يسـاوى شـيـئـاً وتنفس الخـديوى الصـعـداء خـاصـة أن المندوب السـامى الذى خلف كـرومـر «أدون جـورست كـان هـادئاً طويل البـال وللأسف الشـديد قـصـيـر العـمـر أيضـا فلم تدم هدنة عـبـاس حلمى كـثـيـرا وأهدته إنجلـترا «كتشـنر» ذو القلب المتـحـجـر قـائد الجـيش المصـرى فى السـودان الذى وصـفـه عـبـاس حلمى بالمثل الشـعـبى القـائل أتق شـر من أحـسـنت إليـه وقـد أحـسن إليـه الخـديوى حـين طلب من الملكة فـيكـتـوريا تعـينه سـرداراً للجـيش المصـرى فـى السـودان حـين خـلا هذا المنصب عـام ١٨٩٢ لكنه تجـبـر عـام ١٩١١ عندمـا أصـبح مندوبا سـامـيـا فـى مـصـر وعن عـلاقـة الخـديوى بالبـاب العـالـى - جـغـرافـيـا فـقـط - فـقـد كـانت الإمـبـراطورية العـثمانية تحـتـضـر سـيـاسـيـاً يقـول: التعـاون والدعم الـذى كـنـت (٤٥) أنتظره مـن البـاب العـالـى لم يعطنى إلا خـيـالات وبرغم كل الوعـود المؤكـدة لم أحـصل أبدا من البـاب العـالى على قـرار واضح فـى صـالح تحـرير مـصـر حـينمـا عـزل السلطان عبدالحـميد وسيطرت لجنة الاتحـاد والترقى على تركيا أصبحت

السياسة التركية فى مصر إجرامية!! وفتحت المدارس الحربية التركية أبوابها لكل العناصر الفاشلة وكان يكفى الرسوب فى امتحانات المدارس المصرية لكى يجد أحدهم لنفسه مكاناً مميزا فى استانبول!!

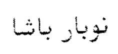
من جهة أخرى صدر الدستور التركى عام ١٩٠٨ واشتدت مطالبة الأمة بالدستور بعد الإطاحة بالسلطان عبدالحميد ١٩٠٩ فكانت ضربة ساحقة للهيكل الإمبراطورى المتهاوى.. وسارع حزب الإصلاح الدستورى الذى يدعمه الخديوى بالدعوة إلى تمثيل مصر فى البرلمان التركى «المبعوثان» وتبنى الشيخ على يوسف هذا المطلب الدستورى العثمانى.. على صفحات جريدة «المؤيد» وهى دعوة استفزازية تتجاهل مطالب الأمة الحقيقية ورغبتها الأكيدة فى الاستقلال بعيداً عن الباب العالى وعددت الأحزاب السياسية التى أعلنت برامجها واختلفت فى الوسائل والأولويات وغالبا ما يشير اسم الحزب إلى بؤرة اهتماماته فتأسس «حزب الأحرار أسسه (محمد وحيد). الحزب الدستورى (إدريس راغب)» وحزب النبلاء. (حسن حلمى) الحزب القبطى (اخنوخ فانوس). الحزب الجمهورى (محمد غانم) الحزب الاشتراكى (حسن جمال الدين) حزب العمال (السيد محمد) وجاء مقتل بطرس غالى عام ١٩١٠ على يد إبراهيم الوردانى فى هذا الوقت العصيب وليكون سببا كلفيا للتهديد لفتنة طائفية حيث تم اغتياله نتيجة رئاسته لمحكمة

دنشواى ونتيجة لهذا الحادث عرفت مصر «القلم السياسى» أشهر جهاز بوليسى قبل ثورة ١٩٥٢ أخذ على عاتقه قمع الحركة الوطنية وقد منح سلطات مطلقة فانتشرت أخبار الاعتقالات وعاد قانون المطبوعات الذى صدر عام ١٨٨١ للظهور مرة أخرى وصودرت صحف الحزب الوطنى «اللواء» عام ١٩١٢ وصحيفة «مصر الفتاة» وتحول نشاط الأحزاب إلى حركات سرية تعمل فى الخفاء واختفى زعماء الكفاح الوطنى كل فى طريق فهاجر محمد فريد إلى أوروبا واستمر جهاده بدون انقطاع.. وكانت الجماهير تتلقف أى منشورات ومطبوعات ترد من زعمائها بالخارج وفى عام ١٩١٣ سمعت إنجلترا طبول الحرب العالمية الأولى.. ورأت أنه من الحكمة تهدئة الأحوال فى مستعمراتها وخاصة فى مصر حتى تتمكن من التفرغ لشئونها الحربية فصدر دستور مأساوى عام ١٩١٣ أطلق عليه «القانون النظامى» أقرب ما يوصف به «لو علمتم الغيب لأخترتم الواقع» كان اعتراض الأمة على دستور دوفرين الذى انبثق عنه مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية (فى عهد توفيق) فجاء دستور ١٩١٣ الذى اعده حسين رشدى (وزير الحقانية) بالتنسيق مع كتشنر ليكحلها تماما حيث تم دمج المجلس والجمعية العمومية فى «الجمعية التشريعية» التى افتتحها الخديوى فى يناير ١٩١٤ وهى مكونة من ٦٦ عضوا منتخبا و١٧عضوا معينا يضاف إليهم الوزراء للحكومة الحق فى

حل الجمعية فى حالة وقوع خلاف!! ولعل الشىء الوحيد المبهج شعبياً أن سعد زغلول كان من أوائل الأعضاء المنتخبين وعدلى يكن من الأعيان المعينين (وعلى الرغم من ذلك فلم تستمر إلا شهور واندلعت الحرب العالمية الأولى وفى صيف عام ١٩١٤ سافر عباس حلمى إلى مصيفه فى أوروبا حيث تعرض لمحاولة اغتيال فاشلة فى استانبول على يد طالب مصرى يدعى محمود مظهر جرح على أثرها الخديوى وكانت إصابته بالغة وقتل الطالب برصاص البوليس التركى فسارعت بتقديم تهانيها القلبية لنجاته وتزف إليه نبأ خلق ويالها من كلمة بليغة فى القاموس السياسى تستثير الآلام وتقطع الأوصال وتجتر الأحزان حين يفصل أى حاكم عن عرشه وفى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ نشرت «الوقائع» المصرية البيان التالى: «يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر لإقدام سمو عباس حلمى باشا خديوى مصر السابق على الإنضمام لأعداء الملك قد رأت جكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية وقد عرض هذا المنصب السامى مع لقب سلطان مصر على سمو الأمير حسين كامل باشا أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد على فقبله فى هذا الصدد كتب عباس حلمى فى مذكراته تعليقاً طريفاً ينضع بالكبرياء وتفوح بين طياته سمات الفشر الملوكى ويتناقض كع كل ما ذكره عن سطوة انجلترا فى مصر فنراه يقول:

الخديو عباس حلمي





نوبار باشا





سعد باشا زغلول و صفية زغلول



مصر زمان

«إنى أشعر بالفخر لأن إنجلترا لم تجرؤ على إعلان حمايتها على مصر إلا بعد أن أبعدتنى عن السلطة ولكى تقوم إنجلترا بالحكم وعن طريق سلطان مخلص لها حتى وإن كان من الأسرة الخديوية فإنها اختارت الأمير حسين وما دامت إنجلترا قد وجدت من الضرورى أن تؤكد بهذه الطريقة الرسمية استيلاءها على السلطة المزدوجة (الإدارية والتنفيذية) فإن ذلك يعنى اعترافها بأنها لم تكن لها هذه السلطات أثناء حكم توفيق وعباس الذى لم يكن فى الواقع أكثر من ستارة وفى موضع آخر يقول:

بسبب هيبتى أرادوا وقت الخرب أن يعزلونى وأن يضعوا مكانى سلطانا لم يكن يستطيع أن يتكلم ولا يتصرف بنفس الطريقة التى انصرف بها!!!»

والذى رفض ابنه الأمير كمال الدين حسين أم يجلس على العرش حتى لا يضطر إلى الإنحناء أمام المحتل الأجنبى!! وعن انجازات افندينا القومية خلال ٢٢ عاماً يمكن حصرها فى وضع حجر أساس الجامعة المصرية عام ١٩٠٨ والمتحف المصرى وإتمام مشروع الترام الكهربائى عام ١٨٩٦ وإنشاء خزان اسوان وتأسيس البنك الأهلى (السلاملك فقط) عندما صودرت أملاكه عام ١٩٢٦ آلت ملكية المنتزة للملك فؤاد) وكوبرى عباس بالمعادى ١٩٠٧ وتعمير الزمالك ١٩٠٥ وتأسيسه جاردن سيتى سكنيا وتشييد قصر المنتزة عام ١٨٩٤ وعن ثروته

يقول: « لم أكن مسرفا أبداً فيما ورثته عن والدى وقد تخلى عن أملاكه لكى يدفع جزءاً من ديون البلاد ولكننى كنت قد أعدت تكوين ثروتى عن طريق العمل الذى لا ينقطع ونتيجة الصفقات الناجحة كان يحلو لخصومى مهاجمتى!!»

وحاول عباس حلمى استرداده ولكن بشتى الوسائل وتحالف مع تركيا التى كانت تريد عودة مصر إلى السلطة أصدر الخديو السابق منشوراً يشبه وعود المرشحين السياسيين التى يطلقونها أثناء حملاتهم الانتخابية.. وكلها عهود ثلجية تصهرها حرارة الجماهير الصادقة ماذا قال أفندينا

«أبناء مصر والسودان أتت الساعة لخلاصكم من احتلال أجنبى استمر أكثر من ٣٢ عاماً بدعوى تأييد الأريكة الخديوية فأعتدى على حقوقنا وجاءت الحكومة الإنجليزية فمنعتنا من الرجوع إلى مصر ودعتنا لترك الآستانة والرحيل إلى ايطاليا فرفضنا هذا الطلب وفضاً باتاً وقد اقتصت أمير المؤمنين (السلطان) تسيير جيش عثمانى إلى مصر لإعادة الحالة إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٨٨٢ واعتزام السير مع هذا الجيش حتى يتم النصر بمعاونتكم.. ونحن نعلن من الآن منحكم الدستور الكامل وإلغاء القوانين المنافية للحرية وإعادة الضمانات لإستقلال القضاء والعفو عن المجرمين السياسيين والعمل على تعميم التعليم.. ها هى الفرصة فانتهزوها» فقرأه



الشعب وطواه فالمنشورات ليست صناعة ملكية ولكنها قدر زعماء الشعب بحيث يجاهدون عن عقيدة وإيمان فتخرج سهام كلماتهم من القلب إلى قلوب الجماهير ويختتم عباس حلمى الذى توفى عام ١٩٤٤ عن عمر يناهز سبعين عاما مذكراته بقوله لقد دفعنى لهذا العمل إحساسى بالوحدة وتأملات طويلة فى جدوى تأميد عظمة الإنسان ورغبة منى فى تقديم مشاركة مدعمة بالوثائق عن إحدى الفترات المزدحمة بالأحداث وأنا أعلم أن التاريخ الحقيقى والذى يخضع للمناقشة لم ولن يكتب أبداً!!!!



السلطان حسين كامل

السلطان حسين كامل

يا أكرم الأعمام حسبك أن نرى

للعبرتين بوجنتك مثلا

من عشرة ابن أخيك تبكى رحمة

ومن الخشوع لمن حباك جزيلا

الملك فيكم آل اسماعيلا

ولازال بيتكم يظل النيلا

لطف القضاء فلم يمل لوليكم

ركن ولم يشف للحسود غليلا

أأخون إسماعيل فى أبنائه

وقد ولدت بباب اسماعيلا

ولبست نعمته ونعمة بيته

فلبست جزلا وارتديت جميلا

بهذه الأبيات الشعوية التى تفيض وفاءا وامتنانا.. والتى أنشدها أمير الشعراء «أحمد شوقى بمناسبة تولى الأمير حسين كامل عرش السلطنة المصرية.. تبدأ صفحة جديدة من تاريخ مصر الحديث عنوانها الرئيسى: «أحمد اسوء من سيد أحمد».

حيث اشتعلت شرارة الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وزالت عن مصر سيادة الدولة العثمانية الشكلية ووضعت البلاد تحت الحماية الانجليزية والوصف الدقيق لها بأنها حالة من الاختناق الوطنى التى تمنع التجمهر فصدرت الاحكام العرفية وصودرت الصحف وإذا كانت المعاناة فى الماضى من أجل تطوير الحياة البرلمانى.. فقد توقف هذه الحياة تماما منذ بدء الحرب حتى عام ١٩٢٣ حين صدر الدستور.. هى فترة توقف فيها الزمان عمرانيا وعانى منها المجتمع اقتصاديا.. فكان لليأس والاحباط دورا بارزا فى فترة حكم السلطان حسين كامل استيقظ الشعب صباح يوم الثامن عشر من ديسمبر ١٩١٤ على «إعلان الحماية التى وضعت مصر بمقتضاه تحت حماية جلالة الملك جورج الخامس وأصبحت من البلاد المشمولة بحمايته وقد زالت عنها سيادة تركيا.. التى استمرت قرابة أربعمائة عام تلك السيادة التى تقلصت تدريجيا منذ عهد محمد على ولم يتبق منها إلا الجزية السنوية. وفى اليوم التالى للحماية تم خلع الخديوى عباس ثم وعرض هذا المنصب السام مع لقب سلطان

مصر على الأمير حسين كامل أكبر الأمراء الموجودين من أسرة محمد على فقبله هكذا نشر خبر إعلاء السلطان حسين كامل العرش فى الصحف وبعض الروايات تؤكد أنه كان فى حيرة من أمره.. فمجرد قبوله السلطة بعد عزل ابن أخيه ووضع مصر تحت الحماية.. بهذه الصورة المحزنة دون أى مقاومة أو اعتراض كان يعد أمرا مخذلا يعطى انطباعا بالتواطؤ والاعتراف الضمنى بقبول هذه الحماية.. وهناك شائعات التقطها المؤرخون.. وتضفى على موقف السلطان حسين كامل بعض الشرعية الوطنية للمحافظة على عرش اسرة محمد على حين طرح الانجليز اسم «الأغاخان» زعيم طائفة الإسماعيلية فى حالة رفض الأمير حسين كامل تولى الحكم.. وكان قد وصل إلى مصر فى اليوم التالى لاعلان الحماية.. فالموقف لم يحتمل إلا الحسم وفى الحال مهما اختلفت الدوافع فقد تولى الحكم وقضى الأمر.. وأصبح فى مصر سلطانا.. بعد أن كان هذا اللقب حكرا على الباب العالى فمن هو السلطان حسين كامل؟

ولد حسين كامل (اسم مركب) ابن اسماعيل عام ١٨٥٣ وحرص «أبو السباع» على تعليم أولاده جميعا فى الكليات الحربية إيمانا منه بأهمية معرفة فنون الحرب وارتباطها بحياة الملك والتحق الأمير حسين كامل بمدرسة «سان كلو» الحربية فى باريس.

وسافر نوبار باشا وزير خارجيته برفقة الأمير فكتب اليه الخديو اسماعيل رسالة يقول فيها: «يجب أن تتناسب إقامة حسين باشا مع مكانته فمن الملائم أن يكون لديه فندقا يتم تأجيره لمدة أربع سنوات.. ويكون لديه متروتيل وعدد كاف من الخدم وثلاث عربات فيكتوريا (عربة مكشوفة) وكوبية (عربة مقفلة) ولاندو (عربة بأربع عجلات) وسبعة خيول وحذار من الرفاهية المفرطة التى قد تصل الى التبذير!!

واختار الامبراطور نابليون الثالث.. بنفسه معلما للأمير حسين، وفى عام ١٨٦٩ عاد إلى مصر ليشهد احتفالات افتتاح قناة السويس كما رافق الامبراطورة أوجينى فى رحلتها إلى الصعيد.. ثم عاد إلى باريس مرة أخرى لاستكمال دراسته.. اشتهر منذ صباه بحب الزراعة والعناية بشئون الفلاحين فتولى فى عهد إسماعيل التفاتيش الزراعية وأنشأ الجمعية الزراعية الملكية واهتم بمشروع النقابات الزراعية.

انفرد بين أمراء العائلة المالكة بأنه الأمير الوحيد الذى تقلد أكبر عدد من المناصب الوزارية المختلفة فتولى نظارات المعارف والأوقاف والداخلية والاشغال والبحرية والحربية والمالية ورأس مجلس شورى القوانين عام ١٩١٠.

وكما أشرنا كان عهد خانقا فى الداخل ولم يجد هذا الأمير المتسلطن أى مظاهر تدل ترحب وإقبال من الشعب المصرى..

الشهير بكرمه وحسن استقباله.. ولم يجد إلا السخط العام والاستياء القومى تألفت الوزارة (أصبحت وزارة منذ عهده بدلاً من النظارات) برئاسة حسين رشدى باشا.. وألغيت بمقتضى الحماية وزارة الخارجية!!! وأصبحت مصر تتفاوض وتتصل بدول العالم من خلال المندوب السامى.. ونعست الجمعية التشريعية بحجة الحرب فكانت غفوة استمرت تسع سنوات لم تنعقد خلالها.. حيث ازدهرت معتقلات طره ودرب الجماميز والحضرة بأعضاء الحزب الوطنى الذين تم تشتيتهم محليا عن طريق اعتقالهم وخارجيا عن طريق نفيهم الى أوروبا، أما طلبة الحقوق فلهم موقفا مشرف.. حين علموا بزيارة السلطان للكلية فاضربوا عن الحضور وكان من بينهم «صبرى أبو علم وفكرى أباظة» أما الشوارع فقد امتلأت بالجنود الانجليز الذين توافدوا على مصر ذات الموقف الاستراتيجى المتميز.. وبعد أن كان تواجدهم مقصورا على الثكنات وبعض الأماكن المحددة انتشروا فى كل مكان.. وقد اكسبتهم الحماية شعورا بالأطمئنان مبعثة انتشار قواتهم العسكرية بصورة متزايدة فى كل مصر.

ولم تحدث اشتباكات حربية داخل الأراضى المصرية واقتصرت على بعض الحملات الحدودية.. خلال أول حرب عالمية لا تعرف الرحمة.. فقد العالم فيها عقله.. بمقتل ولى عهد النمسا على يد أحد الصربيين. فانحازت ألمانيا وتركيا إلى جانب النمسا (المحور) فى مواجهة انجلترا وفرنسا وروسيا

(الحلفاء) وأصبحت مصر فى ظل الحماية كمستعمرة بريطانية تتعامل مع دول المحور معاملة الاعداء.. فمنعت التعامل مع المانيا والنمسا والمجر.

هجم الاتراك من خلال مدخل القناة وتصدى لهم الملازم أول أحمد حلمى ثم عدوا وهاجموا الرمانة والتى تم حصرها بنجاح أيضا، ثم جاءت حملة السنوسى على حدود مصر الغربية وتنازع الانجليز والسنوسيين حول مدينتى السلوم وسيدى البرانى وأنتصر الحسين لامصر واستردها كما استردت مصر الواحات الداخلية والبحرية والفرافرة وسيوة من أيدى السنوسى ورجاله.. وفى السودان حدثت حالة عصيان فى صفوف أحد القواد «على بن دينار» فتم خلعه وانتهى الأمر بالانتصار أيضا.. وهكذا استفادت انجلترا من استعمارها لمصر كقاعدة هجومية أيضا خلال الحرب العالمية الأول أقصى استفادة ممكنة ويشهد اللورد ملنر بذلك فيقول «إن الشعب المصرى تحمل التكاليف والقيود الت أقتضتها تلك الحرب بالصبر والرضا اللذان ترجمها الشعب إلى ما لا يفهمه ملنر بقوله «يا عزيز يا عزيز كبة تأخذ الانجليز!!» ذلك الصبر المرير على المكاره الذى دفع أمير الشعراء لمناجاة ربه قائلا: يا رب هل تلك القيامة كلها أم للقيامة بعد ذلك موقع!!

وكان طبيعيا ألا يدوم شهر العسل طويلا بين السلطان حسين كامل والمندوب السامى.. نتيجة للشحنات العدائية



ابناء الخديو اسماعيل يدخنون الشيشة و يتوسطهم السلطان حسين كامل

والكراهية التى قوبل بها الوجود البريطانى مصر.. الذى كان يمثله السير «ماكماهون» الذى افتقد حنكة كتشنر ودهاء كرومر.. وفى عام ١٩١٦ رأت انجلترا أنه من الأفضل استبداله بالسير «ريجنلد ونجت» فكانت له سطوة مطلقة فى السراى وسلطة مؤكدة فى الحكومة.. حيث تم تعيين مستشارين انجليز فى كل الوزارات يتصلون مباشرة بالوزراء والمندوب السامى.. فإذا كان عهد حسين كامل يتسم بفقر التعليم والثقافة والصناعة وتكبيل الحريات الشخصية ومحاولات تفتيت الحركة الوطنية.. لكن من الانصاف أن نذكر أنه كان عهدا غنيا وافرا بالألقاب والأحساب والنياشين والرتب وهى أمور ذات أهمية قصوى فى مجتمعاتنا الشرقية حيث شهد عهده إنقلابا كبيرا فى هذه الألقاب فعلى سبيل المثال أصبح الوزراء بأصحاب «المعالى» بدلا من اصحاب «السعادة» من طلب العلا يعلو.. والسعادة فى القناعة.. وتلك القناعة لا يعرفها إلا البسطاء.. فكان تغييرا موفقا للغاية. أما رئيس الوزراء الملقب «بصاحب العطوفة» فى زمن لا يعرف أى عطوفة إلا القوة فأصبح يلقب بصاحب الدولة وصدر أمر سطانى عام ١٩١٥ ينظم هذه الألقاب ويشرح اختلافاتها الدقيقة فمن يحصل على الباشوية يلقب بـ «حضرة صاحب السعادة وجزل السلطان حسين العطاء ألقابا ونياشينا للأعيان وكبار موظفين الدولة.. لاكتساب



رضائهم.. فى مقابل سخط الشعب،، العام وسخونة الشارع المصرى.. التى وصلت الى درجة الغليان عام ١٩١٩.

تعرض حسين كامل للاغتيال مرتين خلال فترة حكمه، التى دامت ثلاث سنوات،، تزوج السلطان من الأمير كمال الدين حسين الذى تنازل عن العرش قبل وفاة والده بيوم واحد .. فآل الحكم الى عمه أحمد فؤاد .. أما الزوجة الثانية للسلطان حسين فهى «السلطانة ملك» التى أنجب منها الأميرتين قدرية وكانت مولعة بالشعر.. لها اكثر من ديوان باللغة الفرنسية، والأميرة سميحة التى كانت تعشق الفنون التشكيلية قامت بصنع تمثال للملك فؤاد وهى قرينة الأمير وحيد يسرى الذى كان له دورا دراميا فى حياة الملك فاروق.. وهو نجل زوجة أبيه سابقا . الأميرة شويكار». توفى السلطان حسين كامل فى التاسع من أكتوبر عام ١٩١٧ عن عمر يناهز ٦٤ عاما.



الملك أحمد فؤاد

الملك فؤاد

خالط البسطاء وعاش ثورة ١٩ ولعب بالأحزاب

«أنيق، جرىء، لديه قدرة فائقة على القيادة، متهور فى لحظات غضبه، يسعى إلى التغيير، حاد الذكاء، أوتوقراطى النزعة، طفولته تسكنه دائماً، فهو رجل إبداع يلازمه الحظ ولايتخلى عنه بسهولة» تلك هى صفات برج الحمل الذى ينتمى إليه الملك فؤاد - مؤسس الملكية الحديثة فى مصر - الذى وصفته جريدة «الديلى اكسبريس» بقولها: «إن وراء وزانته وسكونه الظاهرين عقلاً من أمضى العقول فى مصر»، ويقول الذين عايشوه عن كثب: «إنه لو لم يكن ملكاً وكان من أفراد الشعب لترك وراءه أثراً ظاهراً فى تاريخ الإقتصاد أو السياسة».

فى ليلة عصيبة اشتد المرض على الخديوى إسماعيل وأصيب فى حنجرته فأقتضت الآلام من مضجعه وجفاه اليوم أياماً عديدة إلى أن كانت ليلة ٢٦ مارس عام ١٨٦٨ حين

وضعت إحدى زوجاته (فريال) الأمير أحمد فؤاد فنسى آلامه وطابت جروحه ونام نوما عميقاً.. ولكن تشاء الأقدار أن تنتقل هذه الآلام إلى طفله الرضيع وتستقر فى حنجرته وتظهر بعد مولده بأكثر من ثلاثين عاماً حين أطلق الأمير أحمد سيف الدين شقيق زوجته شويكار النار عليه فى نادى محمد على.

وأصيب على أثرها بحشرجة فى صوته.. تلقى الملك فؤاد تعليمه فى مدرسة الأمراء الخاصة بقصر عابدين وقضى بها ثلاث سنوات وحين تم العاشرة ألتحق بمدرسة «توريكوم» الدولية بجنيف، ثم أنتظم فى مدرسة «توريو» الإعدادية الملكية بإيطاليا .. ثم تورينو الحربية العليا التى تخرج فيها ملازماً ثانياً لسلاح المدفعية، فى عام ١٨٨٨ انضم إلى فريق المدفعية الثالث عشر بروما .. حيث أمضى ثلاث سنوات أكتسب خلالها بعض الخبرات الحربية، من جهة أخرى تركت نشأته العسكرية أثراً واضحاً على سلوكه الذى لم يخلو من التناقضات وعن نشأته يقول:

«إنى رجل[٤٨] تربيت تربية عسكرية ولا أحب الكذب ولطالما دعوت قومى إلى الأعمال العلمية والصناعية ليتخلوا قليلا عن الاشتغال بالسياسة فإننا إذا عملنا كلنا فيها وقفنا عمران بلادنا».

جمع فؤاد بين القسوة والصرامة وعشق الفن والأصالة وقد ألقت فترة اغترابه فى إيطاليا بظلالها على أسلوب حياته فيما

بعـد . وفى ليلة قـمـراء جلس فـؤاد وحـيـدا على حـافـة نافـورة الأمـانى فى مـيـدان «سـان تريفى» بروما وألقى بعـملتـه المعدنيـة كـمـا يـفـعل زوار هذه النـافـورة، واشـتـرى منهـا وعـداً بـأن تجـعل حظه أفـضل من حظ أبيـه وابنه وابن أخـيـه الـذين تم اقصـاؤهم عن عـرش مصـر : «الخديوى إسـمـاعيل - الملك فـاروق - الخـديوى عـبـاس حلمى الثـانى وودع هذه المدينة السـاخنة التى يشـع الفن من أرجـائهـا ورحل إلـى الأسـتـانة بصـراعـاتهـا ومـؤامـرتهـا عـام ١٨٩٠ لزيارة والـده إسـمـاعيل الذى ترك منفـاه فـى إيطاليـا وآثر أن يقـضى بقـيـة عمـره فى تركـيـا ليـجتـر حـرارة انكسـار حلمـه وليشهد فـؤاد معـه هذه السنوات الاعجـاف التى علمته أن الغدر والزمـان صنوان .. فـاعـتـمـد على نفـسـه وتتـاسـى مع مـا مـضى وانقضى لقد عـانى كل أبناء إسـمـاعيل مـاليا بعد نفيه وإفـلاسـه وأعـادوا تـكوين ثرواتهم مـرة أخـرى حـين آل الحكم إليـهم. ورث فـؤاد عن إسـمـاعيل حـسن مـعـاملة النـاس والقدرة الـفـائقـة على الاقناع، ولفت أنتبـاه السلطان عـبـدالحـمـيـد بجـديتـه والتـزامـه فعينه ياورا فـخـريا له ثم انتدبتـه الحكومـة التركية ملحقـا حربيا لسـفـارتهـا فى «فيينا» التى أمضى فيـهـا عـامين أكتسب خـلالهـا محبـة الأسـرة المـالكة فى النمسـا والمجـر .. وحين آلت الخديوية إلى ابن أخـيـه عبـاس حلمى اسـتـدعى عـمـه فؤاد بناء على طلب الأخـيـر وعـينـه ياورا خـاصـا برتبـة لواء فى الجـيش المصـرى .. ثم اسـتـقـال فـؤاد بعد ثلاث سنوات .. ووبدأت الخـلافـات بينه وبين

عباس حلمى وكلاهما شغوفا بالسلطة.. فكان يأمل أن يتولى حكم طرابلس القرب أو ألبانيا..

فكان الصدام بديلا للقاء.

يقول فؤاد : «لقد عرفت جميع[٤٩] أنواع الناس من الأمـراء إلى العمال وسائقى المركبات ومن أفراد الاجنود إلى كبار القواد واختبرت تقلبات كثيررة وزرت جميع بلدان أوروبا ماعدا روسيا وكافحت الحياة بنفسى فى كل وكان لابد لى من ذلك لأنى لم أكن أترقب اعتلاء العرش.. إن معرفة الناس واختبارهم هما أعظم الأشياء عندى».

وقد أتاه الحظ على بساط الريح حين توفى أخيه السلطان حسين كامل عام ١٩١٧ وتنازل ابنه وولى عهده كمال الدين حسين عن العرش وأفسح الطريق أمام فؤاد لارتقاء العرش فى التاسع من أكتوبر عام ١٩١٧ والحرب العالمية الأولى مازالت مشتعلة.

غرام وانتقام

تزوج فؤاد من الأميرة شويكار عام ١٨٩٣ وهى كريمة الأمير إبراهيم أحمد بن الأمير أحمد رفعت (الذى غرق فى حادق كفر الزيات) ابن إبراهيم باشا .. كانت شويكار على قدر متواضع

من الجمال .. ولكنها متيسرة الحال .. كان الشجار دائم بينهما لذلك لم تدم هذه الزيجة إلا ثلاث سنوات رزق منها بالأميرة فوقية التى تزوجت محمود فخرى وزير مصر المفوض فى باريس، والأمير إسماعيل الذى توفاه الله صغيرا وظل فؤاد حرا كالطائر الطليق لأكثر من ثلاثة عشر عاما اختلط خلالها بعامة الشعب.. وعرفت قدماه طريقها إلى المقاهى والأندية.. ونادى محمد على بصفة خاصة.. وهو المكان الذى أطلق فيه النار عليه بسبب ديونه المستمرة المتراكمة بسبب جلوسه إلى المائدة الخضراء للعب القمار لم يشرب فؤاد الخمر قط (وورث عنه فاروق هذه الصفة الإسلامية) ولكن حين نودى به سلطانا على مصر فى أكتوبر١٩١٧ .. أعاد ترتيب أوراقه وحاول أن يرد الجميل للأقدار التى لعبت دورا رئيسا فى حياته، وأثناء حضوره أحد عروض الأوبرا فجأة انطفأت الأنوار ورفع الستار ووقعت عيناه على فتاة هيفاء تحتجب بالبرقع الأبيض ولا يظهر منها إلا عيناها الجميلتان.. أنها «ذات الدلال» أو «نازلى» باللغة التركية كريمة عبدالرحيم باشا صبرى وحفيدة سليمان باشا الفرنساوى (مؤسس جيش محمد على) تلك الفتاة التى كانت تصغره بتسعة وعشرين عاما .. ووجدته نازلى لطيفا ومحدثا لبقا فتم عقد قرانهما فى مايو١٩١٩ .. كان فؤاد بطبيعته يميل إلى سماع تنبؤات العرافين ويؤمن بالطالع وفى شبابه المبكر.. أشار عليه أحد المنجمين بتخليد حرف الفاء فى أبنائه وقد فعل «وربما كان

ذلك هو السبب فى سوء طالعهم جميعا!!» وبينما كانت تشكو نازلى من ارهاق الحمل واعياء الوحم تسلل بلبل أبيض جميل ووقف على نافذة غرفة نومها وحين شاهده فؤاد ابتسم مستبشرا به وأضاف: إذا غرد هذا البلبل ثلاث مرات سوف تلدين ولدا .. وقد كان وتهلل وجهه فرحا فسألته نازلى عن السبب فاجابها انه شاهد بلبلا أبيض وغرد ثلاث مرات حين كان يصارع الموت بعد إطلاق النار عليه.. فتفاءل بهذا الطير واستشعر نجاته!! إلى هذه الدرجة كان مولعا بالغيبيات.. وفى الحادى عشر من فبراير عام١٩٢٠ وحين بلغ الثانية والخمسين منم عمره رزق فؤاد بولى عهده «فاروق الأول» وكانت نازلى تردد دائما.. إنه ابن سبعة شهور، وسرعان ما أطلقت المدافع فى القاهرة والإسكندرية وصدر العفو عن المسجونين وتقرر أن يصبح هذا اليوم عطلة رسمية تعطل فيها المصالح والوزارات.

وفى ١٥ أبريل١٩٢٠ قدم المندوب السامى «اللنبى» اعتراض حكومته بصاحب السمو ولى العهد الأمير فاروق ونسله من الذكور على قاعدة الأكبر من الأولاد فالأكبر من أولاده وهكذا..

وفى فبراير١٩٢١ ولدت الأميرة فوزية التى قال عنها د. شاهين طبيب القصر حين شاهدها «إن هذه الطفلة سوف تكون أجمل أميرة فى العالم» وبعد مضى عامين ولدت الأميرة فائزة ١٩٢٣ والأميرة فائقة ١٩٢٦ وفى عام ١٩٣٠ ولدت

الأميرة فتحية التى لقيت مصرعها المأساوى على يد زوجها «رياض غالى».

تربية الأمراء

«إنى أدرك[٥٠] مخاطر التعليم المؤدى إلى الغرور الذى يلقن عادة للأمراء أما أنا فقط اختلطت بجميع طبقات الناس العظماء والبسطاء ولم أقضى حياتى بطولها فى البلاط عاشرت رجالا من كافة الأجناس وكنت جنديا وطالبا ودرست شئون التجارة والسياسة ولا أدع أحدا على ارادته فى منصبى الحالى ان الأساليب التى كانت تتخذ فى تربية الأمراء وتعليمهم هى التى أوجدت ذلك الانحطاط فى الأسر، كما أصاب «آل هابسبرج» الذين هبطوا إلى الحضيض» تلك كلمات الملك فؤاد فى الحديث الذى أجراه معه الكاتب الألمانى الشهير «اميل لودفيج» ومن السخرية ان فؤاد فعل عكس ما ذكره تماما فى تربية أبناءه.. وخاصة فاروق الذى عزله عن الاختلاط فى طفولته حتى مع أطفال العائلة المالكة واستقدم له مربيتان سويدية وإنجليزية تشرفان على سلوكه وطعامه ورياضته وتلقناه «الأتيكيت» والبروتوكول وكل ما يتصل بالبلاط الملكى من آداب وحين تم السابعة استقدم له فؤاد معلما بريطانيا للغة الإنجليزية وآخر مصر للغة العربية والدين وفى سن العاشرة أضيف إلى منهجه دراسة الجغرافيا والتاريخ والرياضيات ..

واللغة الفرنسية والعلوم العسكرية وتدريجيا تم إنشاء مدرسة داخل القصر لم يدرس فيها إلا فاروق محروما من الزمالة.. والصداقة والندية والمنافسة والمداعبة والغيرة والمشاركة والملامة فلم يعرف مبدأ الثواب والعقاب وكل ما يذكره الأطفال عن طفولتهم.. باستثناء أوقات لعبه مع شقيقاته عاش فاروق فى سجن ملكى فى طفولته الصغيرة فكان طبيعيا ان يتمرد عليه ويثأر لوحدته من الأقدار التى جعلته شابا مراهقا بدرجة «ملك» لأكبر دولة عربية وهو لم يتجاوز السابعة عشر !!

أما فؤاد فقد كان يصارع الزمن لكى يبلغ فاروق مبلغ الرجال بأقصى سرعة وقد تسللت سنوات العمر من بين أصابعه وحين بلغ فاروق العاشرة تجاوز فؤاد الثانية والستين .. وهو عمر تقدم بمقياس ذلك الوقت .. ومما ساعد على اختزال طفولته أكثر وملازمته أيضا لفؤاد حيث كان حريصا على تأهيله للحياة العامة فعينه كشافا أعظم وهو لم يتجاوز الثالثة عشر .. وحضر معه الحفلات العامة وناب عنه فى بعض المناسبات العامة.

أميرات عابدين

إنهن صاحبات السمو الملكى الجميلات اللاتى بدأت حياتهن الارستقراطية رقيقة رومانسية حالمة وانتهت نهاية مأساوية

دامية.. تشابهت نشأة الأميرات حيث عهد فؤاد إلى (نيلور) المربية الإنجليزية بتدريس اللغة الإنجليزية لهن عن طريق المحادثة وهى فى سن الرابعة وحين اتم سن السادسة درسن تدريجيا اللغة العربية والدين والعلوم والرياضة والرسم والاشغال اليدوية واللغة الفرنسية وآدابها ودروس البيانو ويتدربن أيضا على ركوب الخيل وقيادة السيارات داخل القصور الملكية وفى الحرملك لم يحرمن من ضيافة صديقاتهن من أميرات العائلة.. ولم يفتقدن الايناس فيما بينهن وكان فاروق لا يجد أمامه بديلا عنهن فى سنوات طفولته.

وراثة العرش

مرت وراثة العرش فى أسرة محمد على بخمس مراحل، المرحلة الأولى والثانية كانتا فى عهد محمد على أشرنا إليهما والمرحلة الثالثة فى عهد الخديوى إسماعيل أما المرحلة الرابعة فكانت فى عهد السلطنة المصرية فى ١٥أبريل١٩٢٠ حين رفع المندوب السامى «اللنبى» إلى السلطان فؤاد اعتراف حكومته بصاحب السمو ولى العهد الأمير فاروق ونسله من الذكور على قاعدة الأكبر من الأولاد فالأكبر من أولاده وهكذا.. وهى التى عاد بمقتضاها لقب ملك مصر الذى توارى عشرين قرنا.

المرحلة الخامسة

حتى صدر فى ١٣ أبريل ١٩٢٢ أمر كريم بوضع نظام لتوارث العرش صار الأمير فاروق بمقتضاه وليا لعهد المملكة المصرية بدلا من السلطنة المصرية..

الأمراء

فى ٢٥ يونيو ١٩٢٢ صدر القانون رقم (٢٥) الذين يحدد الشروط الواجب توافرها فى كل من يحمل لقب أمير أو أميرة وقد اشترط أن يولد الأمراء والأميرات من زوجة شرعية وأن يكونوا مسلمين، وأن يكونوا مصريين، وللملك حقه المطلق فى توزيع مبلغ محدد فى ميزانية الحكومة لأعضاء الأسرة المالكة وله الحق فى تعديل المخصصات أو قطعها بصفة نهائية أو إلى أجل وهذه المخصصات لا يجرى فيها التوارث ولا يجوز الحجز عليها يشترط فى أعضاء مجلس البلاط الملكى ان يكونوا مسلمين فإذا لم يتوافر هذا الشرط فى أحدهم عين شخصا آخر بأمر ملكى.

ويتكون مجلس البلاط الملكى من: أمير من الأسرة المالكة من أقرب أقرباء الملك ويعين بأمر ملكى ورئيس مجلس الأعيان ثم وزير الحقانية (العدل) ورئيس ديوان الملك ورئيس محكمة الاستئناف الأهلية بالقاهرة يليه رئيس المحكمة الشرعية العليا

وشيخ الجامع الأزهر وأخيرا مفتى الديار المصرية. على ان تصدر قرارات هذا المجلس بأغلبية الآراء.

ويقضى هذا المجلس فى مسائل الأحوال الشخصية التى يكون الطرفان فيها أو احدهما من أمراء أو أميرات الأسرة المالكة نظرا للمكانة الرفيعة للأسرة الكريمة وحتى تكون هذه الأحوال الشخصية بمنأى عن لغط العامة، على ان يخضعوا لأحكام الشريعة وقوانين المملكة كبقية المملكة كبقية أفراد الشعب الا ما استثنى بموجب قانون نظام الأسرة.

النبلاء

صدر قانون رقم ٥٥ لسنة ١٩٢٣ بحصر إطلاق لقب النبيل أو النبيلة ويحمل هذا اللقب من عدا الأمراء والأميرات من ذرية محمد على وهو لقب يدل على شرف انتسابهم لمؤسسى الأسرة المالكة وهم من عدا الأمراء والأميرات من ذرية محمد على ذكورا أو اناثا بالإضافة إلى زوجات النبلاء وأرملهم حتى يتزوجن ويللقب كل نبيل أو نبيلة بصاحب أو صاحبة المجد يشترط فى النبلاء أن يولدوان زوجة شرعية وان يكونوا مسلمين وأن يكونوا مصريين ويجوز حرمان النبيل أو النبيلة من لقبه بناء على أمر ملكى وبالمثل يجوز رد اللقب إلى من انتزع منه.

وقد تدخل فؤاد مرات عديدة وأمر باستبعاد الأمير محمد داوود عام ١٩١٩ واخرج النبيل سعيد حليم من زمرة النبلاء عام ١٩٢٤ لأنه تزوج بإنجليزية رغم نصيحة الملك وقضى بقطع المرتب الشهرى عن الأمير محمد على حليم.

وأمر باستبعاد محمد جميل طوسون من أفراد الأسرة عام ١٩٣٠ وحرم النبيل عباس حليم من لقبه سنة ١٩٣٠ حين انضم إلى جبهة سياسية اشتراكية لها اتجاهات تتعارض مع الملكية وكان فؤاد يرى ان الأمراء يجب أن يكونوا مع الأمة كلها ولم يعود إليه لقب النبيل إلا بعد وفاة الملك فؤاد عام ١٩٣٦ فى عهد فاروق .

يوم فى حياة فؤاد

اعتاد الملك فؤاد أن يستيقظ فى الخامسة صباحا وبعد الإفطار يقوم ببعض التمرينات الرياضية أمام مرآة كبيرة لكى يتحقق من صحة هذه الحركات الرياضية.. ومن الجدير بالذكر أن الملك فؤاد على الرغم من قصر قامته وامتلائه إلا أنه كان وسيما وهو وريث شرعى للأناقة الإيطالية فكان يجيد إخفاء بدانته وتكرر جلوسه أمام أشهر المصورين فى مصر حيث جسد اعتزازه بأناقته ووسامته فى العديد من البورتريهات الفوتوغرافية والتى نعرض لها فيما يتعلق بشئون الدولة فكان

الوقت المخصص للتشريفات والمقابلات ينحصر بين الساعة العاشرة والنصف وبين الثانية بعد الظهر.

وكان حريصا على قراءة كل ما يتعلق بالموضوع الذى سيطرح أمامه.. وإذا كان الزائر ضيفا أجنبيات فإنه يطلب من رجال الحاشية أن يأتوا إليه بالكتب التى تتحدث عن بلد زائره وكان يقرأها بنفسه دون اللجوء إلى رجال البلاط لتلخيصها وكان يمتلك ذاكرة قوية كثيرا ما أدهشت محدثيه بالإضافة إلى سعة اطلاعه التى أشاد بها «المسيو موتا» وهو من رؤساء سويسرا السابقين قائلا:

«إنى لا أفتح لجلالة الملك فؤاد باب البحث فى موضوع إلا وجدد ملما بأطرافه وأثناء زياته لتشيكوسلوفاكيا واستعرض أمامه رئيس البلاد «مازاريك» وحدات الجيش احتفاءا بمقدمه حين شاهد فؤاد وحدات المدفعية.. أفاض فى شرح أنواعها وقوتها فاندهش مازاريك قائلا: لقد اعطانى جلالته درسا عمليا فى المدفعية ومن يسمعه يتحدث يخيل إليهان جلالته غادر مدرسة المدفعية منذ أسبوع واحد فقط.

بعد الانتهاء من مراسم التشريفات يتناول المملك طعام الغداء ثم يحين مقابلة الوزراء وتستمر المقابلات حتى الثالثة والنصف ثم يستعد الملك للمقابلات الخاصة والعائلية ويخرج للتمشية فى حديقة قصره بعابدين وأحيانا يصطحب أبنائه

وفى السادسة مساء يتوجه إلى غرفة مكتبه للقراءة حتى يحين وقت العشاء ثم يستأنف مقابلة بعض وزرائه حتى الحادية عشر موعد نومه.

وكان يشاهد الأفلام السينمائية ثلاث مرات أسبوعيا فى القصر الملكى كان مولعا بالقراءة يمتلك مكتبة كبرى فى قصر عابدين المكتبة كانت تتلقى قوائم بأهم الكتب التى تصدر فى أوروبا وأمريكا بانتظام فيرسل فى طلبها وكان الملك فؤاد عضوا شرفيا فى العديد من الجمعيات العلمية ومنح أكثر من دكتوراه فخرية وهى:

١ - دكتور شرف جامعة «بروكسل» فى العلوم الجغرافية

٢ - دكتور شرف من جامعة «روما» فى القانون

٣ - دكتور فخرى جامعة «بيزا» بإيطاليا

٤ - دكتور فخرى جامعة «شارل دى براج فى الفلسفة»

٥ - دكتور فخرى من جامعة «جنيف» فى العلوم الاقتصادية

٦ - عضو شرف فى المعهد الملكى للصحة العامة بإنجلترا

٧ - عضو شرف فى المعهد الملكى للصحة العامة بإنجلترا

٨ - عضو عامل بأكاديمية الفنون الجميلة بفرنسا

٩ - عضوا فى أكاديمية الآداب بفرنسا

«إننى حريص على نشر العلم بين جميع الطبقات وأتمنى أن أجلب إلى مصر كل أخصائى فى فنه وأدبه ليدخلوا فيها روحا جديدا ولطالما أردت بعض المشتغلين بالعلم فى الغرب ان يأتوا إلى مصر وكنت أزور بعضهم فى بيوتهم لأحملهم على هذا الغرض لقد قبلت بعد الفكر رئاسة مشروع الجامعة المصرية الذى يرعاه صفوة المجتمع لرفع بلادنا إلى مصاف الأمم الراقية.

كان للبعثات العلمية التى أوفدها محمد على الكبير اثر هام فى مصر.. ومنذ عهد توفيق بدأ التفكير فى إنشاء جامعة مصرية ولكن النفقات التقديرية كانت باهظة وحالت دون خروج المشروع إلى الضوء وفى سبتمبر ١٩٠٦ نشرت جريدة «المؤيد» نداء تدعو فيه المصريين إلى إنشاء جامعة مصرية فتحمس أحمد المنشاوى باشا وتحدث مع عدد من أصدقائه منهم سعد زغلول وقاسم أمين وعرض أن يوقف أربعين فدانا فى جهة «باسوس» وأبوالغيط لإنشاء الجامعة.

وفى ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ بدء الاكتتاب العام حيث عقدت الجمعية التأسيسية للجامعة أول اجتماع لها فى منزل سعد زغلول وكانت هذه اللجنة تضم فى عضويتها:

سعد زغلول بك : وكيل الرئيس العام وكان مستشارا بالمحاكم الأهلية.

قاسم أمين بك : سكرتيرا وكان مستشارا بالمحاكم الأهلية

حسن سعيد بك : أمين الصندوق أما بقية الأعضاء منهم :

حسن جمجوم بك ـ مصطفى الغمراوى بك ـ محمد عثمان أباظة بك ـ محمد راسم بك حسين السيوفى باشا ـ أخنوخ فانوس أفندى ـ زكريا نافق أفندى ـ محمود الشيشينى بك. وكان مجموع التبرعات يبلغ ٤٤٨٥جنيها مصريا. وفى الجلسة الثانية ٣٠ نوفمبر ١٩٠٦ قررت اللجنة اسناد رئاسة المشروع إلى سعد زغلول .. لكنه اعتذر لأنه كان قد عين وزيرا للمعارف واستمرت المفاوضات واقترحت اللجنة اسم الأمير «أحمد فؤاد» لما اشتهر به من حبه للعلم وعلاقاته المتميزة بالعديد من الدول الأوروبية، بالإضافة لنشاطه ودأبه اللازمين لزيادة حجم الاكتتاب وعرض الأمر على سموه ولكنه تمهل فى القبول ريثما يتأكد من جدية المشروع وفى ٣١يناير ١٩٠٨ قبل الرئاسة وأقدم المترددون وأخذ الاكتتاب يزداد يوما بعد يوم وتهافت الأغنياء على التبرع بالمال والعقارات.

تبرع حسن بك زايد بأكثر من خمسين فدانا من عزبته فى «سراوة» بالمنوفية وقفها على الجامعة.

وتبرع عوض بك عريان بـ٧٣ فدانا ومنحتها وزارة الأوقاف ٥٠٠٠ جنيها سنويا من أموال الأوقاف الخيرية واعترفت الحكومة بشخصيتها فتبرعت لها بألفى جنيه سنويا وتبرعت

الأميرة فاطمة إسماعيل بأموال طائلة وبقصرها الفخم فى الدقى وستة أفدنة من الأرض لتقيم عليها المقر المناسب لها، وتبرعت ببعض جواهرها وبلغت قيمتها وحدها ٢٢ ألف جنيه، ووقف الأمير يوسف كمال - وهو من أغنى أغنياء العائلة المالكة بـ١٢٥ فدانا وتبرع للجامعة أيضا عام ١٩١٧ بـ٢٠٠٠ جنيه، ووقف أحمد بك الشريف من أعيان الغربية ١٠٠ فدان، وكان مشروع الجامعة مثارا لحقد الأجانب وقد وصفه اللورد كرومر بأنه «مشروع سابق لأوانه».

وفى ٢٠ مايو ١٩٠٨ أقر مشروع قانون الجامعة تنص المادة الثالثة على أن الغرض من الجامعة هو ترقية مدارك المصريين وإخلاصهم على اختلاف أديانهم لنشر الآداب والعلوم على أن يتم ترتيب تدريس مماثل للجامعات الأوروبية مع مراعاة تطبيق وفقا لاحتياج مصر وتقرير مرتبات لإرسال طلبة من المصريين إلى الخارج ليكتسبوا معلومات راقية فى المواد التى يخصصها لهم مجلس الإدارة ليقوموا بتدريسها بعدئذ باللغة العربية فى الجامعة وأرسلت البعثة الأولى فى ١٥ مايو ١٩٠٨ وكان من مبعوثيها محمود عزمى للتخصص فى العلوم الأخلاقية والسياسية والقانونية ومنصور فهمى للتخصص فى العلوم الفلسفية.

وقد افتتح الخديوى عباس حلمى الثانى الجامعة رسميا فى ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ وسافر الأمير فؤاد عام ١٩٠٩ إلى أوروبا

لمقابلة علمائها وأمرائها ورؤساء حكوماتها ومنهم «كليمنصو» رئيس وزراء فرنسا وقد طلب منه فؤاد أن يهدى إلى الجامعة المصرية كل ما نشرته الحكومة الفرنسية من المنشورات الدورية واهدى ملك إيطاليا إلى مصر مجموعة كاملة من أجمل مجموعات الرسم والتصوير العلمية والفنية بالإضافة إلى الأجهزة اللازمة لإنشاء معامل للطبيعة والكيمياء وكانت الجمعية العمومية تؤمن بأهمية حق المرأة فى التعليم والثقافة وبعد معارضات وتردد افتتح ١٩١١ قسم السيدات بالجامعة وكانت أولى المحاضرات باللغة الفرنسية والقتها مدام «ماردريس» الصحفية الباريسية الشهيرة آنذاك وكانت هذه السيدة شهيرة بأشعارها الرقيقة ورواياتها الشائقة وكانت الآنسة «كوفرو» هى المحاضرة الرئيسية وتقوم بتدريس علم النفس والأخلاق بالإضافة للسيدة «لبيبة هاشم» التى كانت تقوم بتدريس اللغة العربية والسيدة رحمة صروف ونبوية موسى (أول مصرية تحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٠٧ وظلت هى الوحيدة التى تحملها حتى عام ١٩٢٨).

وفى عام ١٩١٣ قدم الأمير فؤاد استقالته من الجامعة بعد ان أسس لها قسم الآداب والفرع الجنائى وتولى رئاستها حسين رشدى باشا أحد أعضاء مجلس الإدارة.

وفى ٧ فبراير ١٩٢٨ تم الاحتفال بوضع حجر الأساس للجامعة المصرية بعد ان أصبحت تابعة لوزارة المعارف على

أرض مساحتها ٩٠ فدانا بحدائق الأورمان بالجيزة منحتها الحكومة لها. كما منحتها أرضا أخرى مساحتها ٤٤ فدانا لكلية الطب ومستشفاها الجديد.

وفى عام ١٩٣٥ أصبحت كليات الجامعة سبعا وهى الآداب والحقوق والزراعة وكلية التجارة والطب البشرى والطب البطرى وكلية الهندسة.

أهم الإنجازات العلمية

مجمع اللغة العربية الملكى : أفتتح أولى جلساته يناير ١٩٣٤ وكان نصف أعضاؤه من المصريين والنصف الآخر من المتشرقيين وحدث حين زالت الخلافة من تركيا بعد اشتعال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ أن استعاض الأتراك بالحروف اللاتينية واستخدموها بدلا من الخط العربى وأصاب الحزن. رئيسا للجامعة ١٩٠٨ - ١٩١٣ - معظم البلدان العربية وخاصة مصر فأمر الملك فؤاد بانشاء معاهد لتعليم الخط بمختلف أنواعه وكان يرعاها رعاية خاصة وتم طرح فكرة ابتكار صور للحروف الهجائية تؤدى ما تؤديه الحروف الكبيرة فى اللغات الأجنبية وسميت هذه الحروف الجديدة بحروف التاج، نسبة إلى صاحبها التاج لأنه هو مبتكر الفكرة.

ساهم الملك فؤاد بدوره فى تطوير العديد من الجمعيات التى أسسها أسلافه ومنها الجمعية الملكية للاقتصاد السياسى والاحصاء والجمعية الجغرافية والجمعية المصرية للحشرات ومعهد الاحياء المائية بالإسكندرية وأسس الجمعية المصرية لأوراق البردى عام ١٩٣٠ الجمعية الزراعية بالإضافة للمدرسة البحرية الفاروقية التى أسسها عام ١٩٢٥ وهى مدرسة بحرية للأيتام وأبناء السبيل وكان الغرض منها تخرج بحارة لتغذى البواخر البحرية، كما أشرف على جمعية الهلال الأحمر، وأسس معهد للصناعات النسائية.

وكما وضحنا سلفا كان للملك فؤاد اهتمام خاص بالفنون مبعثه أنه تلقى تعليمه وثقافته فى إيطاليا «بلد الفنون» فى عام ١٩١٧ أنشأ الأمير يوسف كمال مدرسة الفنون الجميلة . وانشأ الملك فؤاد معهد الموسيقى الشرقية ومتحف الفن الحديث عام ١٩٣١ وأوفدت الحكومة فى عهده البعثات الفنية إلى إيطاليا وفرنسا للتخصص فى النحت والتصوير والموسيقى وأنشأت إدارة عامة للاسترشاد الفنى فى روما للطلبة المصريين الوافدين لدراسة الفنون.. كان الملك فؤاد يرى أن السينما من أهم وسائل الثقافة والفنون معا لذلك كان يوجد قاعة سينما بكل قصر من القصور الملكية وفى عام١٩٢٩ ظهر أول فيلم ناطق وهو «أولاد الذوات» بطولة يوسف وهبى وحين تعثرت الفرق المسرحية تم تأسيس الفرقة القومية عام ١٩٣٠ للنهوض

بالمسرح وتم استقدام «مسيو فاير» المدير السابق لمعهد الكوميدى فرانسيز وكثيرا ما كان يستدعى الملك فؤاد بعض الفرق التمثيلية إلى القصور الملكية وقد نظم شاعر النيل حافظ إبراهيم هذه الأبيات الطريفة التى القاها بهذه المناسبة فى قصر عابدين :

مولاى أنت أقمت منارنا

ورفعتنا فى عالم التمثيل

ودعوتنا فى عابدين فحسبنا

شرف المثول وليس ذا بقليل

شجعت فنا لم يزل فى حاجة

لرعاية من شبل إسماعيل

وأبوك أول من أقام بناءه

وأعز حامية بوادى النيل

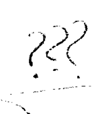
وفى عام ١٩٢٢ توجهت أنظار العالم إلى مصر حين اكتشف اللورد «كارنرفون» والأثرى «هوارد كارتر» مقبرة توت عنخ آمون وفى عام ١٩٢٩ اكتشف الأثرى سليم حسن بك مقبرة «رع در» ثم الهرم الرابع بعد ان عجز عن كشفه كل علماء أوروبا الذين بحثوا فى هذه المنطقة.

بالإضافة لإنشائه متحف فؤاد الزراعى، ومعهد الصحراء وتأسيس بنك التسليف الزراعى والبنك العقارى المصرى

وقناطر نجع حمادى وتعلية خزان أسوان ولا تنسى أيضا الدور الراقد للاقتصادى الوطنى طلعت حرب الذى انعش الحياة الاقتصادية فى مصر عن طريق تأسيس بنك مصر ومشروعاته التى مازالت قائمة إلى يومنا هذا.

ثورة ١٩١٩

تغلغل الاحتلال من عام ١٨٨٢ وانتشر نفوذه فى جميع البلاد فى مختلف المجالات.. فضعفت القوة الحربية وتراجعت المناصب الحكومية فى الوزارات.. وعرفت طريقها إلى الانجليز.. وانسلخ السودان عن مصر.. وطعن مشروع الدستور وجمدت الجمعية التشريعية وأضعفت الحماية مركز مصر سياسيا واشتدت الرقابة على الصحف.. وتوسعت سلطة الأحكام العرفية.. وساءت الاحوال الاقتصادية بعد الحرب العالمية الأولى وتشعب النفوذ الانجليزى فى البنوك والشركات والمصانع وعم الغلاء ويشهد اللورد ملنر بذلك فيقول عن أسباب ثورة ١٩١٩ - أول ثورة شعبية فى العالم بعد الحرب العالمية الأولى إن «أسعار الأشياء أرتفعت فى مصر إرتفاعا لم يسبق له مثيل ولا سيما أسعار الحبوب والأقمشة والوقود



فثقلت وطأتها على الفقراء خاصة أن اجورهم لم تكن لتكفى النفقات التى يقتضيها غلاء المعيشة فى حين أنهم كانوا يرون

عددا من مواطنيهم ومن الاجانب غير المحبوبين عندهم يجمعون الثروات الكبيرة» وإرتفعت أسعار السكك الحديدية وحدها ٥٠٪ واحتكرت الحكومة البريطانية محصول القطن وحددت أسعار شرائه وطبيعى ألا يتحمل الزارعون أى ظلم يضاف إلى همومهم.. كانت المرة الأولى التى يتمرد فيها الريف بأكمله.. ويشارك أبنائه فعليا.. من الأعيان والمزارعين والعمال والمسلمين والأقباط والنساء والرجال.. إنها ثورة ١٩١٩ ثمرة الكفاح الوطنى الذى بدأ يشق طريقه منذ عهد إسماعيل ويشهد سعد باشا زغلول بإرهاصات الثورة الحقيقية ويقول: «لست(٥٢) خالق هذه النهضة وإنما نهضتكم قديمة بدأت من عهد تؤسس الأسرة المالكة محمد على وللحركة العرابية فضل عظيم منها وكذلك للسيد جمال الدين الأفغانى واتباعه وتلاميذه أثر كبير، وللمرحوم مصطفى كامل باشا وكذلك المرحوم فريد بك».

ولكن كيف اشتعلت الثورة وما هى الأسباب السياسية التى فجرتها؟ أخذ زعماء الحركة الوطنية على عاتقهم تمثيل مصر فى مؤتمر الصلح فى باريس.. حيث تربعت مبادىء الرئيس الامريكى ويلسون على رأس اهتمامات هذا المؤتمر.. الذى عقد خصيصا لمناقشة حق الدول فى تقرير مصيرها بعيدا عن أى وصاية أوحماية تألف الوفد المصر بزعامة سعد زغلول وهو العضو المنتخب بإجماع الأمة فى الجمعية التشريعية.. وإذا كان

مصطفى كامل «معبود الجماهير» فإن سعد زغلول كان «زعيم الأمة» وهو أول شخصية سياسية مصرية فى تاريخ مصر الحديث تحظى بشعبية ومحبة جماهيرية من شمال مصر إلى جنوبها.. سعد باشا الذى حباه الله بكريزما مغناطيسية فقرأ عنها فقط فى كتب التاريخ.. فهى من أساطير الساسة التى يسحرون بها الشعوب.. أما بلاغته ونوع منطقه وخطبه الوطنية فكانت سهاما تعرف طريقها جيدا إلى قلوب الجماهير وعقولهم.. تألف الوفد من سعد زغلول وعبدالعزيز بك فهمى وعلى شعراوى باشا وهما عضوان أيضا بالجمعية التشريعية.. وتم التفاوض دبلوماسيا مع المندوب السامى «رجنلد ونجت» الذى أزعجته مطالب الوفد الاستقلالية وكان من رأيه: «أن المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر!! والطفل إذا اعطى من الغذاء كثيرا أصيب بالتخمة!!

أتظنون أن البلدان العربية إذا اخذت استقلالها ستعرف كيف تدير أمورها!! لقد كانت مصر عبدا لتركيا.. فهل ستصبح فى حالة أسوء إذا أصبحت تابعة لإنجلترا؟ إن مركز مصر حربيا وجغرافيا يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها؟ وبالطبع دحض الوفد كل هذه الادعاءات الباطلة وأنتهت المقابلة التى وصفها السير «ونجت» بأنها غير رسمية.. وتألف الوفد المصر من الأعضاء التاليين: سعد زغلول رئيسا وعضوية كل من على شعراوى باشا، وعبد العزيز فهمى باشا، محمد

محمود احمد لطفى السيد، عبد اللطيف المكباتى، محمد على علوبة. وأخذ هذا الوفد على عاتقه مهمة الحصول على توكيلات من الأمه تتيح له التفاوض بإسم الشعب من خلال الجمعية التشريعية وأعضاء المجالس البلدية وكبار الملاك والأعيان.. ومختلف طبقات الشعب.. ورأى الوفد أنه من الأفضل ضم بعض العناصر من الحزب الوطنى من أجل توحيد كلمة الأمة فى مواجهة السياسة الانجليزية المراوغة.. وتطلب الأمر بعض التنازلات من الحزبين «حزب الأمة والحزب الوطنى الذى كانت مبادئه قاطعة وحاسمة فى إنهاء الاحتلال تماما.. لكى تنال مصر استقلالها أما حزب الأمة فكان ينتهج مبدأ «الخطوة - خطوة» ويتدرج فى مطالبة بصورة واقعية وحنكة سياسية تمتع بها أعضاءه من السياسيين المخضرمين وتوجه اعضاء الحزب الوطنى الى منزل سعد باشا وأبدو اعتراضهم على ضيغة التوكيل الذى سيتم التفاوض على أساسه واشتدت المناقشة بين أعضاء الحزب الوطنى وسعد باشا فاستنكر ذلك قائلا: كيف توجهون لى مثل هذه الاهانة فى بيتى فأجاب أحد الاعضاء بقوله: نحن نتناقش فى بيت الأمة.. لا بيت سعد باشا فانشرح سعد باشا لهذا المعنى الرفيع وشاع هذا التعبير على ألسنة الناس وأصبح ينزل سعد زغلول منذ ذلك اليوم هو «بيت الأمة» ونظرا للأحكام العرفية فكان من الضرورى الترخيص للوفد بالسفر من قبل السلات البريطانية فى مصر.. ولكن

الوفد منع من السفر وأستقالت وزارة حسين رشدى باشا اعتراضا على هذا التعسف والصلف الغير مبرر.. وتغير موقف السلطان فؤاد الذى كان مواليا لمطالب الشعب الاستقلالية.. حينما كان بمنأى عن الجدل مع الحكومة البريطانية ومندوبها السامى فى مصر..

وأصبح من المؤكد أن قصر الدوبارة «مقر المندوب السامى» هو بيت القصيد بالنسبة لفؤاد.. أما بيت الأمة فقد اعتقل صاحبه وزملائه فى ٨ مارس ١٩١٩ «محمد محمود، وإسماعيل صدقى، وحمد الباسل»، وتم نفيهم فى جزيرة مالطة وانفجرت الثورة فى اليوم التالى واشتعلت الشرارة الأولى من مدرسة الحقوق وسرعان ما انتشرت نيرانها فى كل الكليات والمدارس وانتشرت فى مصر كلها خلال يومين من اعتقال سعد باشا اعقبها اضراب سائقى المواصلات العامة واشتركت المرأة المصرية فى هذه الثورة ايفاد كل حماس فى السادس عشر من مارس يمثلها أكثر من ثلاثمائة إمرأة وفتاة تجتمعن فى شارع سعد زغلول وقدمن احتجاجا مكتوبا لقناصل الدول الاجنبية.

وفى أول رد فعل لهذه الثورة الساحقة المفزعة لانجلترا تم تعيين الجنرال «اللنبى» مندوبا ساميا لمصر والسودان لكى يقطف رؤساء يانعة حان قطافها.. وتأكد اللنبى أن الموقف يزداد سوءا والمقاومة الشعبية أصبحت قوة حقيقية لا يمكن

مهادفتها .. هنا تم الإفراج عن سعد باشا ورفاقه فى ٧ أبريل بعد مضى شهر من إعتقاله تقريبا.. وسافر أعضاء الوفد المصرى الى سعد باشا بمالطة وتوجه الجميع الى باريس لحضور مؤتمر الصلح الذى بدأت بشائره المحبطة منذ أن أعترف الرئيس ويلسون بالحماية البريطانية على مصر.. أما خطبه الرنانة ومبادئه البراقة.. فلم تكن إلا فصلا ثرثارا من فصول السياسيين المعهودة وعلى الرغم من سفر الوفد والإفراج عن سعد باشا إلا أن الثورة ظلت مشتعلة بين الموظفين الذين امتنعوا عن الذهاب إلى عملهم، فقدمت وزارة حسين رشدى إشعالها فى أبريل ١٩١٩.. وظلت مصر بلا وزارة وظهرت أزمتى وزارتى مرجعها تخوف جميع الوزراء من تشكيل وزارة فى ظل ظروف الثورة التى لا يمكن التنبؤ بأحوالها وخرجا من هذا المأزق تم تفويض وكلاء الوزارات بمهام الوزراء فى مصر.

راجع الوفد المصرى على اعتراف مؤتمر الصلح بالحماية كما إعترض الوفد الذى رفع مذكرة لكليمنصو (رئيس المؤتمر).. بقولهم: «أن إنجلترا أشهدت العالم أكثر من ستين مرة على أنها لا تفكر مطلقا فى ضم مصر وفى نوفمبر ١٩١٩ فقدت الحركة الوطنية زعيم مصر محمد فريد الذى قضى معظم حياته منفيا فى أوروبا.. وأصبح الشجن والإنفعال والإصرار مفردات للمناخ العام الذى سيطر على مصر من إشتعال الثورة فأوفدت إنجلترا لجنة ملنر لبحث أسباب الثورة الحقيقية وهى اللجنة التى

قاطعها الشعب وبعض الأمراء «كمال الدين حسين.. وعمر طوسون.. محمد على إبراهيم.. يوسف كمال.. إسماعيل ومنصور داوود».. الذين بعثوا برسالة للورد ملنر جاء فيها: «إن الأمة المصرية هى سبب عظمتنا وفخارنا.. لذلك نحن أولاد محمد على نشارك أمتنا فى أمانيها ونضم صدورنا إلى صدور أفرادها.. إننا لسنا إلا روحا واحدة».. وكان لهذه الرسالة الوطنية أثر واضح ودليلا على تضامن مطالب الأمراء والشعب تضيق الخناق على اللجنة المزعومة التى أتت لتشعل البيت ناراً من جديد.

ونجحت المقاومة ولم تجد اللجنة أمامها إلا مفاوضة الوفد المصرى فى التواجد فى باريس الذى تم دعوته للتفاوض فى لندن واستمرت المفاوضات المطاطية بين اللورد ملنر والوفد المصرى وفى عام ١٩٢١ تم تعيين ونستون تشرشل خلفا لملنر أى «وزير للمستعمرات» وأطاح تشرشل بكل الإيجابيات والمكاسب التى أحرزها الوفد خلال تفاوضه وفجّر قنبلة جديدة بتصريحه: «إن مصر تعد جزءًا من الإمبراطورية البريطانية».. وأنهالت برقيات الإحتجاج من مختلف الهيئات والوزارات والصحف على دار المندوب السامى.. وفى مارس١٩٢١ اضطرت إنجلترا لتغيير لهجتها المقتضبة القاطعة وأشار «اللنبى» بما يفيد استعداد حكومته للتفاوض من أجل التوصل إلى حل مُرضى للطرفين.. وفى ٢٦ فبراير ١٩٢١ أصدر اللنبى

قرارا مبدئيا ذو صيغة ودية بالشروع فى إلغاء الحماية بعد استيفاء الإقتراحات المتبادلة والمشاورات الثنائية.. والآن من يتكلم باسم الأمة فى هذه القضية المصيرية التى طال إنتظارها ما يقرب من أربعين عاما سعد باشا هو زعيم الأمة وممثلها فى الجمعية التشريعية فهو رمز الإرادة الشعبية.. عدلى يكن الذى تم تعيينه فى الجمعية التشريعية أيضا وهو من أكبر الأعيان فى مصر تربطه صلة قرابة من خلال (جده لأبيه).. بمحمد على.. عهد إليه السلطان فؤاد بتشكيل الوزارة فى مارس ١٩٢١ وخلال رئاسته لهذه الوزارة تمت المفاوضات بينه وبين سعد زغلول ووقع الخلاف بينهما وكان منشئوه المفاضلة أو الاختيار فى أحقية كل منها للسفر ورئاسة الوفد الرسمى لمصر وأنتهى الأمر بسفر عدلى يكن رئيس الوزراء، وهكذا حدث أول شرخ فى جدار الوحدة الوطنية ولكن سعد باشا تدارك الأمر سريعا وللأسف فشلت المفاوضات التى أجراها عدلى يكن مع تشرشل وأصبحت تمثل حجرة عثرة لم يتمكن من عبورها إلا بالإستقالة التى تقدم بها فى ديسمبر ١٩٢١.. لم يتمكن من عبورها إلا بالإستقالة التى تقدم بها فى ديسمبر ١٩٢١، فلم تضع إنجلترا الوقت ورأت أن من الحكمة التخلص من الزعيمين فى آن واحد، وقد سعدت باستقالة عدلى يكن وأطمأنت بعد إعتقال سعد زغلول ورفاقه ونفيّه فى

جـزيرة سـيـشـيل فى المحـيط الهندى.. وشكل الوزارة الجـدد برئاسة عبدالخالق ثروت.

الخلاف بين سعد زغلول وعدلى يكن

اختلف سعد زغلول وعدلى يكن (رئيس الوزراء).. بشأن بعض البنود التى تقرر التفاوض بشأنها وهى إلغاء الأحكام العرفية والرقابة على الصحف وتفويض الوفد لتمثيل الأمة، وإصدار مرسوم سلطانى بتفويض أعضاؤه وتمسك عدلى يكن برئاسة هيئة المفاوضات المصرية، استنادا إلى رئاسته للوزارة فمن الطبيعى أن يتم تمثيل مصر بشكل رسمى فى هذه المفاوضات السياسية.. أما سعد زغلول فكان متمسكا بتفويض الأمة له والتى تمتلك هذا الحق وحدها.. وفنّد مزاعم عدلى يكن بقوله: «مصر ليست بلدا دستوريا.. فالوزارة يتم تعيينها من السلطان والمندوب السامى أيضا، وفيما يتعلق بسياسة مصر الخارجية.. فمصر ليست لديها وزارة خارجية، وفى حوارى مع وزارة المستعمرات الإنجليزية قلت للجنة ملنر عام ١٩٢٠: من الذى يعين المفاوضين المصريين؟.. فأجاب الحكومة المصرية.. فقلت: إذن جورج الخامس (ملك بريطانيا) يتفاوض مع جورج الخامس؟

وانشق بعض أعضاء الوفد: محمد محمود.. حمد الباسل.. عبداللطيف المكباتى.. لطفى السيد.. وحافظ عفيفى.. عبدالعزيز فهمى عن سعد الذى أعلن عدم الثقة بوزارة عدلى.. ووقعت حوادث فردية نتيجة للمظاهرات التى إتخذت شكل الشعارات العدائية واتهام كل فريق الآخر.. وتطور الوقت وأصبح العنف هو سمة هذه المظاهرات.. فقرر «اللنبى» رفع الرقابة على الصحف لتهدئة الموقف وامتصاص غضب الجماهير وساءت الأحوال تماما وأصبحت الصورة مخزية ومخجلة فى تلك الفترة الحرجة التى كان من المفترض أن تتحد فيها كلمة الأسرة الأمة ووصل الأمر إلى حد إطلاق النار وسقوط القتلى بين الفريقين وبلغ عدد الضحايا ٢٣ قتيلا و ١٢٩ جريحا من المصريين، ١٥ قتيلا و ٧١ جريحا من الأوروبيين فتدخل الجيش الإنجليزى وأصدر أوامره بحظر التجول فى الإسكندرية من جهة أخرى أصدر الأمير «عمر طوسون» وهو أول من اقترح فكرة التفاوض مع البريطانيين بيانا قال فيه: «يا أبناء بلدى الأعزاء، بلغنى مع أشد الأسف ما حدث من بعض أشخاص غير مسئولين أثناء المظاهرات السلمية مثل مهاجمة بيوت بعض المخالفين لكم فى الرأى والتقاذف بالأحجار فى الشوارع.. الأمر الذى ما كنا ننتظر صدوره من أى مصرى ونحن نريد الإستقلال ونطلب الحرية وأساس هذا المبدأ إحترام كل فريق رأى الآخر وعدم الحظر

على أحد وإذا لم نحترم هذا المبدأ.. فلماذا نشكو من ضغط الإنجليز على حريتنا ومصادرتهم لنا فى آرائنا.. أناشد كل مخلص لوطنه أن يجتهد فى منع ما يثير شبهة الأجانب فينا ويبعد عطفهم.. أنا لا أقول ذلك إنحيازا إلى جانب الوزارة لأنى غير موافق على خطتها لكنه الواجب الوطنى.

وسارع سعد زغلول الذى ساءه أن يصل خلافه مع عدلى يكن إلى مظاهرات شعبية عنيفة ودامية.. راح ضحيتها بعض الأجانب فناشد الأمة قائلا:

«أيها المصريون أناشدكم الوطنية الصادقة والإخلاص الصحيح لبلادكم أن تقابلوا هذه الحادثة مما عهد فيكم من الرزانة وأن تستمروا فى إكرام ضيوفكم من الأوروبيين وفى حُسن الرعاية وألا تعتدوا عليهم فذلك أبقى لمودتهم وألّيق بكرم أخلاقك أخلاقكم.

ومن الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس صرح «تشرشل» وزير المستعمرات: «بأن قوات الإحتلال البريطانية لن تغادر مصر حتى لا يقوم الرعاع فى القاهرة والإسكندرية بالقضاء على حياة الجاليات الأجنبية، ومن ثم تنهار الإصلاحات التى تمت على يد بريطانيا».

فجاء هذا التصريح كالصفعة الجارحة والحبطة أيضا لطريق الآلام الذى قطعته الأمة من أجل الوصول إلى هذه

المرحلة الحاسمة من المفاوضات التى رأسها عدلى يكن وفشلت فى نوفمبر ١٩٢١ من حيث بدأت.. حيث وضع اللورد «كيرزون» وزير الخارجية البريطانى شروط لتنظيم الحماية ولا تلغيها وتؤكد بقاء القوات العسكرية وعاد عدلى يكن إلى البلاد واستقبلته الجماهير بهتافات هجومية واتسعت الفجوة بين جماعة سعد زغلول وعدلى الذى قام بتقديم إستقالته فى ديسمبر ١٩٢١.. وواصل سعد مسيرته التى بدأها من خلال تفويض الأمة له ودعا إلى اجتماع عام، فأنذرته السلطة العسكرية البريطانية بحظر التجمهر وعدم إلقاء الخطب أو الكتابة فى الصحف، وأصدرت أوامرها إليه بضرورة مغادرة القاهرة والتوجه إلى قريته والإقلاع عن الإشتغال بالسياسة!!.. وأصدرت نفس الأوامر إلى رفاقه (مصطفى النحاس.. مكرم عبيد.. سينوت حنا).. وأصدر «اللنبى» أمرا يحظر على البنوك التعامل مع سعد أو الوفد دون الرجوع إليه أولا وتم إعتقال سعد ونفىّ إلى جزيرة سيشل فى المحيط الهندى، وخرجت الجماهير التى داوت جراحها وتاست خلافاتها وقررت إعلان حرب المقاطعات (مقاطعة البضائع الإنجليزية ـ مقاطعة البنوك الإنجليزية ـ مقاطعة السفن).. فتم إعتقال بعض أعضاء الوفد وتعرض بعض البريطانيين لحوادث اغتيالات واختل الأمن واشتدت مقاومة الشعب الذى ساءه اعتقال سعد للمرة الثانية، فتناسى الشقاق والتئمت الخلافات وتولى ثروت باشا رئاسة

الوزراء وتأسس حزب الأحرار الدستوريين برئاسة عدلى يكن وكان غالبية أعضائه المؤسسين من المنشقين على الوفد وتبعه حزب الإتحاد الذى كان يلقب بحزب «السرايا» ١٩٢٥ و «حزب الشعب» الذى أسسه إسماعيل صدقى عام ١٩٣٠، بالإضافة إلى جماعة الإخوان المسلمين، حزب مصر الفتاة وكان الملك فؤاد بارعا فى العزف على أوتار هذه الأحزاب والجماعات السياسية إنطلاقا من مبدأ «فرّق تسد».. واستغلالا للخلافات الحزبية والشخصية بين هذه الأحزاب وحفاظا على تسلطه وانفراده بالحكم، وفيما يتعلق بعلاقته باللوردات الساميين.. كان يغلب عليها طابع المناورات الظاهرية.. ففؤاد الذى يتسم بحدة الذكاء لم يغفل يوما قراءة تاريخ عائلته الكريمة منذ تعهدت إنجلترا بحماية لقب «ولىّ النعم» فى عهد توفيق.

استقلال مصر

أهملت الحكومة الإنجليزية تقرير لجنة ملنر عن مصر، فألحت مصر ممثلة فى زعماء الأمة والسلطان فؤاد لاستصدار قرار فى قضية استقلال مصر وفى ٢٦ فبراير ١٩٢١ أصدر «اللورد اللنبى» قرار بلاده بإلغاء الحماية على مصر، وفى ١٥مارس ١٩٢٢ وافق مجلس العموم البريطانى على إلغاء الحماية رسميا وإعلان مصر مملكة مستقلة ذات سيادة ليصبح

فؤاد الأول هو مؤسس الملكية الحديثة فى أسرة محمد على.. وتستمر قرابة الثلاثين عاما (١٩٢٢ ـ ١٩٥٢).

إعلان الدستور

على الرغم من أوتوقراطية الملك فؤاد إلا أنه مثل سائر الحكام، كان يصبو دائما للجميع بين الإستبدادية الملكية والديمقراطية الشعبية، وهما أمران متعارضان لا يجتمعان لكن الشعور بالإمتلاء العام هو شعور متيقظ لدى غالبية الملوك.. فالكل يحلم بإضفاء صفات الجماهيرية والزعامة والقيادة على شخصه الكريم، ومن جانبه فقد تمنى الملك فؤاد أن يصدر الدستور الذى طال انتظاره.. فهو ثمرة الكفاح الوطنى، ولكن فؤاد كان يتمنى جماهيريا ويريد استبداديا إصرار دستور يعزز سلطاته الملكية فأصدر أوامره بتشكيل «لجنة الثلاثين».. عدد أعضائها ثلاثين عضوا برئاسة حسين رشدى باشا «لوضع مشروع الدستور» ولكنه تعرض لمتاعب سياسية، وكان حذف السودان من نصوص الدستور من أهم العقبات التى صادفته وعثرت خطواته التى أراد الملك أن يجعلها مثل خطوات السلحفاة.

وأخيرا تم الاستقرار على نص الدستور الذى صدر فى ١٩٢٣/٤/١٩ فى عهد وزارة يحيى إبراهيم باشا وهو دستور

أوروبى مقتبس من أفضل الدساتير الأوروبية وبصفة خاصة من الدستور البلجيكى.

أقر دستور ١٩٢٣ أن جميع السلطات مصدرها الأمة.. فالملك يتولى السلطة بواسطة وزرائه، وبناء عليه تم تأسيس البرلمان بمجلسيه «الشيوخ والنواب».. على أن تكون السلطة التشريعية فى يد الملك والمجلسين، ويتعين على الملك الموافقة على القوانين التى تصدر عن البرلمان وفى حالة عدم موافقته يتم الإقتراع عليها مرة أخرى فى البرلمان، للملك أيضا حق حل مجلس النواب وتأجيل إنعقاد البرلمان ويتولى الملك تعيين خمس أعضاء مجلس الشيوخ وينتخب الباقون وفى كل الأحوال سواء كان العضو معينا أو منتخبا أن يكون من الأعيان أو الوزراء أو كبار موظفى الدولة، فهو مجلس الصفوة من حملة الألقاب.

واكتملت أفراح مصر حين عاد سعد زغلول من منفاه فى سبتمبر ١٩٢٣ ونجح الوفد فى حشد أكبر عدد من أصوات الناخبين وأصبح سعد هو زعيم الأغلبية فعليا، فتعهد إليه الملك فؤاد بتشكيل أول وزارة شعبية دستورية فى يناير ١٩٢٤ وهى الوزارة التى إفتتحت باكورة أعمالها بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين، وبدأ مسلسل الخلافات الدستورية مع الملك والذى بدأ بالإستعانة «بالبارون فان دن بوش البلجيكى، حين دب الخلاف بين سعد والملك حول تعيين أعضاء مجلس الشيوخ،

فقد رأى الملك أن الدستور يمنحه حق تعيين خمس الأعضاء، إستشهد سعد بالمادة الأساسية فى الدستور والتى تنص على أن الملك يتولى سلطته بواسطة وزرائه.. ويمكن تلخيص جميع الخلافات الدستورية فى عهد فؤاد فى هذه العبارة الدستورية «الملك يملك ولا يحكم».. ولكن فؤاد أراد أن يملك ويحكم فى ظل نظام دستورى يتم تفصيله طبقا للمواصفات الملكية، وانتهى نزاع سعد والملك وأصدر البارون حكمه لصالح سعد وافتتح الملك البرلمان رسميا فى ١٥ مارس ١٩٢٤ وبعد تأديته اليمين تولى سعد زغلول قراره خطاب العرش.. فلم يكن بمقدروه التحدث بطلاقه أمام الجماهير بعد الحادث الذى تعرض له وأصاب حنجرته وظل هذا التقليد معمولابه يحتى نهاية عهد فاروق.

ولم يهنأ الشعب طويلا بهذه الوزارة «الزغلولية» وجاء حادث إغتيال السردار السير «لى ستاك باشا قائد الجيش المصرى وحاكم السودان العام فى نوفمبر ١٩٢٤.. وانقلب الفرح إلى مأتم.. وتأكد الشعب أن مصائب قوم عند قوم مصائب أيضا.. فقد جن جنون الحكومة البريطانية وأُتهم سعد زغلول بأن المحرض الأول على هذا الاغتيال، نتيجة، فنتيجه لخطبه الحماسية التى تثير الأمة ضد بريطانيا فصرح سعد زغلول ينفى عن نفسه هذه التهمة بقوله: «إن اغتيال السردار أصاب مصر وأصابنى شخصيا وكنت أول المهزوزين بهجومها.. وأصبح

مؤكدا أن السردار تم اغتياله عن طريق تدبير بعض الدسائس السياسية لإحراج وزارة سعد وإسقاطها وهو ما حدث بالفعل حين طالبت بريطانيا مصر بتقديم اعتذار عن الحادث ودفع تعويض قدره نصف مليون جنيه وسحب الجيش المصرى من السودان وعلى رأس هذه المطالب استقالة سعد من الوزارة.

وزراء كلاكيت

يرجع تاريخ أول وزارة مصرية إلى عهد إسماعيل، حيث كان «نوبار باشا» الأرمنى الأصل هو أول رئيسا للوزراء.. وتوالت الوزارات حتى بلغت فى نهاية عهد السلطان حسين كامل ٢١ وزارة و ٢٣ وزارة فى عهد الملك فؤاد خلال ١٩ عاما وهو رقم يحمل دلالات عدم النضج السياسى والإستقرار.. وعدم وجود سياسة واضحة يتم إتباعها، وفى بعض الأحيان كان يعهد برئاسة الوزراء إلى نفس الشخص أكثر من مرة.. فالبعض عهد إليه بالوزارة أربع مرات (حسين رشدى).. وهو أمر من الصعب تقبله فى وقتنا الحالى.. فى ظل توافر الكفاءات المتعددة وإتاحة الفرص أمام الخبرات المتميزة، وباستثناء الوزارات الجماهيرية أو الشعبية مثل وزارة سعد زغلول والنحاس الذى تولى رئاسة الوزارة سبع مرات خلال فترة حياته: وعلى النقيض نجد بعض الوزارات التى لم يكتب لها النجاح، حيث

كانت معايير اختيارها ملكية أهمها الطاعة والولاء، ومن ثم فقد احتضرت الوزارات السقراطية التى تثير الموضوعات الجدلية، ولا تتوقف عن المفاوضات الاستقلالية وسرعان ما يضجر القصر بهذا الطموح الديمقراطى للوزارة، وتستقيل أو بمعنى أصح تجبر على الاستقالة أو الإقالة.

بعد صدور الدستور عام ١٩٢٣ ظهرت مهارات فؤاد السياسية وبراعته فى إرتداء العباءة الوطنية، فكان حريصا على الظهور بصورة ملكية عنترية تمتص غضب الرأى الثائر ضده أوتوقراطية، فهو الذى توّج كفاح الأمة من أجل إرساء معالم الحياة الدستورية!!

ألم يمنح الشعب الدستور الذى طال انتظاره ثم عاد وغل يده ثم قام بإلغائه، وترتب على ذلك حل البرلمان وإصدار دستور ١٩٣٠ فى عهد وزارة «إسماعيل صدقى».. وهو دستور كتبت شهادة وفاته قبل ميلاده فقد ولد ميتا رفضه الأحزاب والتقطت بريطانيا الخيط وأيدت موقف الإرادة الوطنية.. لكيلا تظهر بصورة استبدادية تتنافى مع زعامتها للديمقراطية، وبالفعل تم إلغائه والعودة إلى دستور ١٩٢٣ فيما يتعلق بعلاقة فؤاد بسيده البحار سنجد أنه لم يتجاوز السيناريو المحكم الذى تم إعداده فى عهد أسلافه كشرط أساسى للمحافظة على العرش، وعلى الرغم من دهائه وحكمته إلا أن طابعه العصبى

كثيرا ما أنقذه بعض أوراقه التى كان يسارع لإعادتها مرة أخرى مضافا إليها الفوائد.

دبرنى يا وزير: وصفت الملكة ناريمان تعددية التشكيلات الوزارية فى نهاية عهدفاروق بأنها «ديفيلين». أو عرض أزياء وزارى وهو تعبير صائب إلى حد كبير ففضلا عن أناقة رؤساء الوزراء فى الردنجوت الذى كانت تختلف ألوانه باختلاف الدعوات الرسمية.. وبدلة التشريفة المذهبة والمرصعة بالنياشين، فقد كان مرورهم فى الحياة السياسية سريعا خاطفا مثل عروض الأزياء التى لا تسمح باستيعاب التفاصيل، وإذا كان يقصد بالكلاكيت بلغة السينما إعادة تصوير المشهد السينمائى أكثر من مرة من أجل التجويد والإتقان، فقد استمرت محاولات السياسيين بنفس المنطق.. تحتمل التكرار.. تعمل وفى نيتها الاستمرار حين تقال أو تستقيل الوزارة تعود مرة أخرى وتستأنف مهامها بحماس يهدف إلى تحقيق آمال الأمة فى الإستقلال التام.

١- وزارة حسين رشدى (الثالثة) من اكتوبر ١٩١٧ - ابريل ١٩١٩ هى أولى الوزارات فى عهد فؤاد استقالت أثر عدم السماح له ولعدلى يكن بالسفر إلى بريطانيا لإجراء مفاوضات الاستقلال وشهدت هذه الوزارة أيضا قيام ثورة ١٩١٩.

٢. وزارة حسين رشدى الرابعة (وزارة دستة أيام) إبريل ١٩١٩.

أفرج عن سعد فى عهدها.. وأضرب الموظفين عن العمل ولم تصمد أكثر من ١٢ يوما ولم يجرؤ أى سياسى على تأليف الوزارة فى غضون هذه الظروف الثورية الجامحة وعهد بإعمال الوزراء إلى الوكلاء.

٣. وزارة محمد سعيد باشا الثانية: ٢٠ مايو - ٢٠ نوفمبر ١٩١٩.. فى عهدها أوفدت انجلترا لجنة ملنر، فاستقالت الوزارة تضامنا مع الرغبة الشعبية التى لا ترغب فى مفاوضتها.

٤. وزارة يوسف وهبه (الأولى).. نوفمبر ١٩١٩ - مايو ١٩٢٠.. تم إتقال السياسيين ومنعهم من مزاولة نشاطهم وأصدرت الأوامر إليهم بمغادرة القاهرة والتوجه إلى الريف.. تعرض يوسف وهبى خلالها لمحاولة إغتيال فاشلة.

٥. وزارة توفيق نسيم (الأولى).. مايو ١٩٢٠ - مارس ١٩٢١.. ألغيت الحماية المبدئية الإنجليزية فى عهدها بواسطة التبليغ البريطانى فى ٢٦ فبراير ١٩٢١ بأن الحماية علامة غير مرضية.

٦. وزارة عدلى يكن (الأولى).. مارس ١٩٢١ - ديسمبر ١٩٢١.. حدث خلالها خلاف عدلى وسعد زغلول الشهير حول تمثيل مصر فى وفد المفاوضات الرسمية فى لندن وتم نفى سعد

إلى جزيرة سيشل فى اليوم التالى استقالت وزارة عدلى بعد فشلها فى المفاوضات.

٧- وزارة عبدالخالق ثروت (الأولى).. مارس - نوفمبر ١٩٢٢.. والتى تشكلت بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ فهى أول وزارة بعد الإستقلال وفى عهدها تألفت لجنة «الثلاثين» لوضع الدستور برئاسة حسين رشدى باشا، وتم تشكيل حزب الأحرار الدستوريين برئاسة عدلى.

٨- وزارة توفيق نسيم (الثانية).. نوفمبر ١٩٢٢ - ١٩٢٣.. من أهم أعمالها صدور قانون الانتخاب بعد تعديله وتوسيع قاعدة الانتخاب لتشمل المعتقلين والمنفيين سياسيا وتولت وزارة نسيم أيضا استكمال مشروع الدستور وحدثت فى عهدها مشادات قانونية تتعلق بصياغة نصين فى الدستور أحدهما يتعلق بإعتراض الحكومة الإنجليزية على لقب «ملك مصر والسودان» والإكتفاء بملك مصر فقط فأعترضت الوزارة وتم تضييق الخناق عليها فقدمت استقالتها.

٩- وزارة يحيى إبراهيم (الأولى).. مارس ١٩٢٣ - يناير ١٩٢٤.. تألفت هذه الوزارة بعد مضى أكثر من شهر من إستقالة وزارة توفيق نسيم الثانية حيث كثرت حوادث الاعتداء على الإنجليز، وتم القبض على بعض أعضاء الوفد وهى وزارة حفل عهدها بأعمال جليلة أهمها صدور قانون الانتخاب

وتأسيس القنصليات المصرية فى الخارج، حيث أنشأت أول مفوضية مصرية فى لندن (وكان وزير فرنسا هو أول وزير مفوض يقدم أوراق اعتماده إلى الملك فؤاد كان ذلك أمرا طبيعيا من فرنسا فهى من أوائل الدول التى أقامت علاقات دبلوماسية منذ عهد محمد على، وصدر الدستور فى ١٩ ابريل ١٩٢٣ وعن يوم إعلان الدستور كتب إبراهيم يحيى فى جريدة «المقطم» فى حديث ذكريات يقول: «فى اليوم الذى أعلن فيه الدستور لم يكن أحد يعلم بذلك.. فذهبت إلى القصر وقابلت جلالة الملك وقلت له إن مصلحة البلاد تدعوكم يا مولاى إلى توقيع الدستور واعتماده الليلة فسألنى عن سبب هذا التعجيل فأجبت: لأن العقبات تحيط بالدستور يا مولاى فأخشى إذا أجلنا الأمر كذلك فإننى مستعد لأن أبقى ساهرا طوال الليل على قدمى لهذا الغرض».. وأسرعت لدعوة الوزراء إلى القصر فظنوا أول الأمر أنى أعتزم تقديم استقالتى للملك، ولكنهم اكتشفوا الحقيقة وسعدوا بها وفى اللحظة التى كان الملك يوقع فيها الدستور كانت الدافع تطلق من القلعة وكنت قد رتبت هذا الأمر سرا، واكتمل طالع هذه الوزارة السعيد بإطلاق صراح سعد والمعتقلين فى جزيرة سيشل وإلغاء الأحكام العرفية وصف المندوب السامى «جورة لويد» بيحيى إبراهيم قائلا: كان لا

يخشاه أحد من الزعماء وكانت وزارته واحة فى الصحراء حافلة بالأعمال.

١٠ـ وزارة سعد زغلول: يناير ١٩٢٤ ـ نوفمبر ١٩٢٤: وزارة سعد زغلول: زعامة شعبية.. معالم برلمانى.. لوائح دستورية.. اختيارات زغلولية، تلك هى وزارة سعد أول وزارة أمتدت يدها لتقطع خيوط العنكبوت التى نُسجت حول البرلمان وتسببت فى تعطيل صدر الدستور قرابة الأربعين عاما.. فكان طبيعيا أن تستقبل الجماهير وزارة سعد بفرحة واستبشار غير مسبوقين، بل إن فرحة الشعب الحقيقية كانت ثلاث فرحات تم اختزالها فى فرحة كبيرة الأولى: التفاف الأمة حول زعيمها والأب الروحى لثورة ١٩١٩.. فظهور سعد وتواجده الدائم فى الحياة السياسية كان يشكل محورا أساسيا لاستقرار الأمن النفسى لدى المواطنين، فهو كبيرهم والمتحدث بلسانهم والمعبر عن آمالهم وتأليف سعد للوزارة هو فرحة مزدوجة.. أما السبب الثالث لموجة الارتياح القاتل التى سادت بين الشعب فهى ترجع لجرأة سعد وتحرره من القيود والمعايير التى كانت تحدد إختيار الوزراء.. فللمرة الأولى منذ تولى نوبار باشا (أول رئيس للنظار فى عهد إسماعيل) يتم تشكيل الوزارة من الأفندية والبكاوات إلى جانب الباشاوات الأمر الذى كان يبدو غريبا وجديدا ودخيلا على الارستقراطية الوزارية، حيث عيّن مصطفى

النحاس بك (وزيرا للمواصلات).. وواصف بطرس غالى أفندى (وزيرا للخارجية) ومحمد نجيب الغرابلى أفندى (وزيرا للحقانية) ويا لها من مهمة وزارية شاقة والدستور مازال يحبو والملك يحاول التشبث بجميع سلطاته وتفسير نصوص الدستور من وجهة نظره (الملك يملك ويحكم) بينما يدعم سعد زغلول قاعدة (الملك يملك ولا يحكم) الأمة خلال وزرائه وبدأ الصراع بين الوفد والملك فؤاد.. كالأمواج المتلاحقة تهدأ لتعود مرة أخرى هادئة أو هادرة هكذا كانت العلاقة متوترة بين الوفد والقصر والتى توارثها فاروق أيضا فى البدء اعترض الملك فؤاد على بعض تشكيلات الوزراء.. فتم تعديل بعضها وتمسك سعد زغلول بحقوق الوزارة الدستورية وحدث الخلاف الذى أشرنا اليه والخاص بتعيين أعضاء مجلس الشيوخ وانتهى الأمر بتحكيم (البارون فان بوش) البلجيكى واعترض سعد زغلول على إقامة السردار (قائد الجيش) فى السودان.. فضلا عن كونه أجنبياً.. وهو أمر لم يعد مقبولاً بعد الاستقلال شهدت هذه الوزارة الزغلولية أيضا ست تعديلات وزارية خلال عشر شهور وهو أمر يتنافى مع الاستقرار الذى يضمن تنفيذ البرامج مقصوفة الأجل فى ذلك الوقت فالتخطيط مازال وليداً يتلمس خطاه وفى خضم هذه الأحداث المتلاحقة تم الافراج عن المسجونين السياسيين وكان هذا العمل من مآثر الوزارة

الزغلولية التى استفاد الإنجليز من شقيها وفجأة تم اغتيال هذه الفرحة وأسدل الستار الأسود على وزارة سعد بإغتيال سردار الجيش المصرى السير «لى ستاك باشا» ووجه اللنبى إنذاران لسعد كما أشرنا من قبل واستقالت أكثر الوزارات المصرية شعبية ليبدأ عهداً جديداً من الوزراء الموالين للقصر.

١١- وزارة أحمد زيور باشا الأولى نوفمبر ١٩٢٤. مارس ١٩٣٥ فى غهدها تم إخلاء السودان من الجيش المصرى وصدر مرسوم بتأجيل انعقاد البرلمان وتم حله للمرة الأولى منذ صدور الدستور وتأسيس «حزب الاتحاد» وهو الحزب الذى سعى القصر إلى مساندته لمناوئة (الوفد) لذلك تم ائتلافه مع حزب الأحرار الدستوريين فى محاولة لتغيير موازين القوى.

١٢- الوزارة الزيوارية (الثانية) من مارس ١٩٣٥ . يونيه ١٩٢٧: افتتحت هذه الوزارة عهدها برحيل المندوب السامى «اللنبى» الذى مكث فى مصر ستة أعوام لم تخلو من الدهاء والتسلط والمناورات واستقبلة صحيفة الديلى ميل الإنجليزية فى سخرية شديدة قائلة: إن اللمبى أخرج الأتراك من سوريا واخرج الإنجليز من مصر حيث نالت مصر استقلالها واعلنت دستورها خلال فترة عمله فى مصر وخلفه «جورج

لويد» الذى أرخ فترة عمله فى مصر من خلال كتابه الشهير «مصر منذ عهد كرومر» شأن معظم المندوبين الساميين وهم كثرُ لكى تستفيد بلادهم من تجاربهم العملية بما يخدم سياستها الاستعمارية التوسعية التى بلغت أوجها فى تلك الفترة ومن النوادر التى تواردت عن هذه الوزارة قضية إخراج الشيخ على عبدالرازق من زمرة العلماء حين ألف كتابه «الإسلام وأصول الحكم» والذى هاجم فيه مبدأ الخلافة الإسلامية وأثبت عدم مرجعيتها.. وهى دخيلة على الإسلام فغضب الملك فؤاد فقد كان مولعاً بفكرة الخليفة التى تتفق مع قوة شخصيته واستبداده ورغبته المطلقة فى الإنفراد بالحكم.. فأعوز إلى هيئة من كبار العلماء بدراسة الكتاب وصدر الحكم.. ولم يتم تنفيذه، فأمر يحيى إبراهيم باشا (نائب رئيس الوزراء) بالأسراع فى تنفيذه.. فتباطأ عبدالعزيز فهمى وزير الحقانية وعرض الأمر على اللجنة المختصة بوزارة الحقانية لإبداء رأيها فى القضية.. فثار الملك واعتبر ذلك مخالفة لأوامره فتم إقالته من الوزارة واسند مهام وزارة الحقانية إلى على ماهر وزير المعارف آنذاك.. ولم ينجح «حزب الاتحاد» أو حزب القصر فى مهمته عن طريق تحالفه مع الأحرار الدستوريين فى زعزعة شعبية الوفد الجارفة فكان لابد من تغيير قواعد اختيار

الوزارات والتسليم باستحالة تجاوز الوفد «واللى ماتعرف تخانقه نافقه».

١٣ ـ وزارة عدلى يكن الثانية ١٩٢٦ ـ أبريل ١٩٢٧:

بدأ عدلى يكن «مؤسس حزب الأحرار الدستوريين» شهر العسل فى حكومة الائتلاف التى ضمت أغلبية وفدية فكانت فرصة لتجاوز الخلافات القديمة بين سعد وعدلى يكن (أثناء مفاوضات الاستقلال) ولكن لم يستمر الوفاق بينهما طويلا فنقاط الخلاف لم تحسم ولكنها تكاثرت أيضا.. وحدثت واقعة تستحق التأمل فأثناء إنعقاد مجلس النواب برئاسة (مصطفى النحاس) الذى كان يدير المجلس نيابة عن سعد نظرا لسفره.. اقبترح بعض النواب توجيه الشكر للحكومة لما بذلته من جهود لمساندة بنك مصر.. فاعترض أحد الأعضاء على الاقتراح بقوله أن شكر الحكومة لا معنى له فالقرار صدر من المجلس ونحن ننتقد الحكومة هنا على عدم تنفيذها بعض القرارات وأيده فى ذلك غالبية المجلس.. فغضب عدلى يكن وكان يتصف بالحساسية وسرعة الإنفعال وغادر المجلس إحتجاجاً على ما اعتبره عدم ثقة فى وزارته وتبعه بقية الوزراء ولم تفلح محاولات سعد فى إثناءه عن الاستقالة.

١٤ـ وزارة عبدالخالق ثروت (الثانية) ابريل ١٩٢٧ ـ مارس ١٩٣٨:

هى الوزارة الائتلافية الثانية فى عهد الملك فؤاد فى ظل البرلمان ذو أغلبية وفدية من أبرز المشروعات التى تمت فى عهدها محادثات «ثروت - تشمبرلين».. لم تدم سعادتها طويلا أثر الأزمة التى لم أثيرت فى البرلمان وتعلق باعتراض النواب على استمرار الجيش البريطانى على الشئون العسكرية فلوحت انجلترا باستخدام القوة الاستعراضية ممثلة فى استقدام بارجة فى الاسكندرية فرأى سعد بحكمته وثروت بخبرته أن من الأفضل الا تتطور الأمور للأسوأ، وفى ٢٣ أغسطس ١٩٢٨ فجعت مصر بوفاة زعيم الأمة سعد زغلول والأب الروحى لثورة ١٩١٩ فكان الشعور بالحزن واليتم ظاهرة عامة بين أفراد الشعب الذى اقترنت آماله باسم سعد رمز الوطنية والوفاء.

١٥ - وزارة مصطفى النحاس (الأولى) مارس - يونيو ١٩٢٨:

الوزارة النحاسية.. هى وزارة ذهبية فى أعين جميع الوطنيين الذين هدأت سريرتهم.. حين خلف النحاس رفيقه سعد زغلول فى رئاسة الوفد وشهدت جريدة «التايمز» بزعامته فوصفته «بأنه وريث الزعامة.. وخليفة سعد عرف عنه الأمانة والوفاء والإيثار ورباطه الجأش وفى أشد الأيام حلكة ظل النحاس هادئاً واثقاً وهى مميزات إيجابية فى حياة الزعماء فإذا كانت هذه هى شهادة الأعداء فكيف إذا شهد شظاهد من أهلها!! الاجابة ترجمتها حياة النحاس السياسية الذى

ضـرب الرقم القـيـاسى فى تاريخ مـصـر الحـديث فى عـدد المرات التى شكلت فيها الوزارة برئاسته (سبع مرات) أشهرها (٤ فبراير ١٩٤٢) حين حاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين وأرغم الملك فاروق على ذلك شكلت الوزارة النحاسية الأولى وهى ثالث الوزارت الأئتلافية وآخرها وأقصرها عمراً وأكثرها شعبية بعد وزارة سعد١٩٢٤).

١٦ ـ وزارة محمد محمود الأولى (يونيو ١٩٢٨ ـ أكتوبر ٢٩٢٩):

حظيت وزارة محمد محمود خريج أكسفورد بمساندة الإنجليز لثقافته وبرضاء الملك لهويته الحزبية المناوئة للوفد فهو (نائب رئيس حزب الأحرار الدستوريين)الذى تولى زعامته أيضا أثناء فترة رئاسته من أهم انجازات وزارته مشروع إنشاء مائة مستشفى وبناء مساكن للعمال، شهدت هذه الوزارة تصدعاً فى الحياة النيابية أقضى بحل المجلسين فكان طبيعيا أن توصم بالديكتاتورية وهى وزارة طويلة العمر نسبياً (١٥ شهراً) رحل اللورد «جورج لريد» فى آخر عهدها وخلفه السير «برس لورين» الذى اختلفت السياسة البريطانية فى عهده نظرا لفوز «حزب العمال» الذى أعاد فتح المفاوضات مع مصر .

١٧ ـ وزارة عدلى يكن (الثالثة) أكتوبر ١٩٢٩ـ يناير ١٩٣٠:

من خلال التنسيق بين القصر والمندوب السامى تم اختيار عدلى يكن ذو المكانة الرفيعة بين زعماء الشعب وموضع ثقة

أغلبية الأحزاب من أهم انجازات وزارته خلال هذه المدة القصيرة العمل على عودة الحياة البرلمانية التى توقفت فى وزارة (محمد محمود) وتحديد موعد الانتخابات يذكر د. يونان رزق[٥٤] أن الغرض المطلوب منها كان ينحصر فى «تمهيد الجو الجو لعودة الوفد إلى السلطة» ورأى المسئولون البريطانيون انها «وزارة انتقالية».

١٨. وزارة مصطفى النحاس (الثانية) يناير ١٩٣٠ ـ يونيو ١٩٣٠:

أنعقد البرلمان فى عهدها وعادت الحياة النيابية التى تعطلت أكثر من ١٨ شهراً ورافق البرلمان على استكمال المفاوضات التى تمت فى مشروع محمد محمود هندرسون وسافر النحاس إلى انجلترا لاستكمال هذه المفاوضات التى أخفقت بسبب اختلاف وجهات نظر الطرفين حول وضع السودان.. وتنفس الملك فؤاد الصعداء وبدء العد التنازلى للقضاء على دستور ١٩٢٣ وليس على وزارة النحاس فقط.

١٩. وزارة إسماعيل صدقى: (الأولى) يونيو ١٩٣٠. يناير ١٩٣٣ : و(الثانية) يناير ـ سبتمبر ١٩٣٣

أطول الوزارات عمرا أقلها شعبية فى بعض الأحيان كذلك كانت وزارة إسماعيل صدقى التى وضعت دستور ١٩٣٠ (الملكى) وألغت دستور الأمة (١٩٢٣) الذى جاهد الشعب

وزعـمـائه من أجله قـرابة الأربعـين عـامـاً، الـتـزم المندوب السـامى مـوقـفـا حـيـادياً.. لم يتكرر فى اخـتـيـار الوزراء.. وبخـبث شـديد أفـسـحت إنجلتـرا الطريق أمـام الملك لاخـتـيـار رئيس الـوزراء.. الذى ينفـذ سـيـاسـتـهـا ويـتـصـدى للـتـيـارات السـيـاسـيـة وللإجتيـاح الوفدى الـذى يكتسح البـلاد وبالفعل تم تأسـيـس حـزب الشـعب الـذى لم يكن لـه من هذه الـصـفـة إلا اسـمه برئاسـة إسمـاعيل صـدقى وامتنع حـزب الوفد والأحـرار الدسـتـوريين عن دخـول الانـتـخابات الـتى اقـتصـرت على حـزب «الشـعب والاتحاد والحـزب الوطنى» وحـدث الانشـقـاق الشـهـيـر فى حـزب الوفد وظهـور كلمـة (المنشقين) انتشـر فى عهد هـذه الوزارة الديكتـاتورية أيضـا الـفـصـل الـسـيـاسـى فـفـصـل عـبدالرازق السنهورى بك، والدكتـور طه حـسـين، بالإضـافـة لـفـصـل الـعـمـد الـذين أضـربـوا عن دخـول الإنـتـخـابـات الـتى احبطت آمـال الأمـة وعـادت بهـا إلى الوراء أربعين عـامـاً وفى عـهـدهـا تنازل الـخـديو عـبـاس حلمى الثـانى عن كل الدعـاوى التى رفـعـهـا لاسـتـرداد العـرش واعـتـرف بفـاروق وليـاً لـلـعـهـد وقـرر مـجلس الوزراء تخـصـيص مـبلغ ٣٠ ألف جنيـه سنويا له وفى أغـسـطس ١٩٣٣ نقل المندوب الـسـامى «لورين» حـيـث عـين سـفـيـراً لإنجلترا فـى تركيـا وخلفـه «مـايلز لاميـسـبـون» ليـبـدأ الصـراع التقليدى مـرة أخـرى بين الـقـصـر والحكومـة والأحزاب وعلى رأسها الوفد.

٢٠- وزارة عبدالفتاح يحيى (الأولى) سبتمبر ١٩٣٣ ـ نوفمبر ١٩٣٤:

مازالت إنجلترا حريصة على مبدئها الذهبى «فرق تسد» وعلى هذا الأساس شكلت الوزارة برئاسة عبدالفتاح يحيى (زعيم المنشقين عن حزب الوفد) عدو القصر اللدود.. وشوكة الوطنية التى غرست فى ظهر السياسة الإنجليزية فى مصر.. وبقى الوضع على ما هو عليه ولكن هذه الوزارة الفتاحية كانت مثل الوزارة الصدقية ديكتاتورية.. عملت بمقتضى دستور ١٩٣٠ الجائر على حقوق الأمة.. التى أشتدت مطالبها للعودة لدستور ١٩٢٣.

٢١ـ وزارة توفيق نسيم (الثالثة) نوفمبر ١٩٣٤ ـ يناير ١٩٣٦:

«مات الدستور، فليحى الدستور» إنها رسالة توفيق نسيم إلى الملك فؤاد يطلب فيها عودة دستور ١٩٢٣ الذى أصبح من حق الشعب بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، وأضاف قائلاً: ان الحكومة المصرية تقرر من الآن عودة دستور ١٩٢٣ ملتمسة من جلالتكم إصدار الأمر الملكى الملزم بذلك وفى ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ صدر الأمر الملكى بإعادة دستور ١٩٢٣ بعد مظاهرات طلابية راح ضحيتها طالبان.. ونتيجة لضغط الجبهة الشعبية وعلى رأسها النحاس وممثلى الأحزاب وفى عه وزارته أنشئت وزارة الصناعة والتجارة

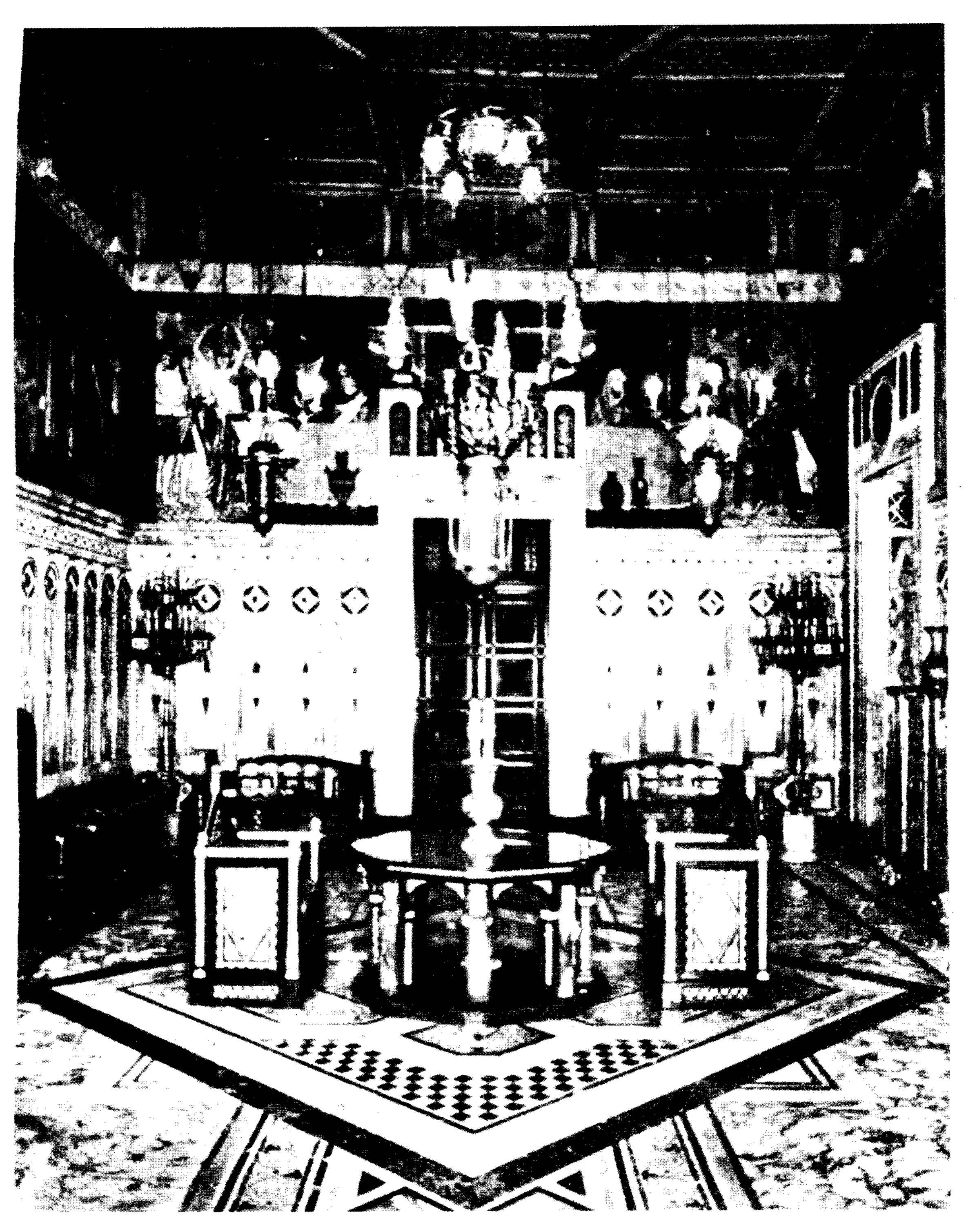
٢٢- وزارة على ماهر (الأولى) يناير - مايو ١٩٣٦:

فى غصون أيام من استقالة وزارة توفيق نسيم.. تشكلت وزارة على ماهر (رئيس الديوان الملكى آنذاك) بعد فشل محاولات تشكيل وزارة أئتلافية وعقب مرور ثلاثة عشر يوماً على تأليف هذه الوزارة.

تشكيل وفد المفاوضات الرسمى من الأحزاب (الوفد - الأحرار الدستوريين - الشعب - الإتحاد) تمهيدا لعقد معاهدة الصداقة والتحالف (معاهدة ١٩٣٦) وشاءت الأقدار أن يشهد على ماهر آخر عهد فؤاد وبداية عهد فاروق أفول بخمسة أيضا عام ١٩٥٢ توفى الملك فؤاد على الرغم من ظروف مرضه إلا أن الوفاة كانت مفاجأة فى ٢٨ أبريل ١٩٣٦ ومباغتته حيث أصيب بالكبد والغرغارينة فى وجهه فاحتاج الموقف إلى التروى والحسم.. ولم يكن ذلك غريباً عن على ماهر الذى كان يتصف بالحيادية والذكاء والحنكة السياسية وضم أعضاء مجلس الشيوخ وخاصة أن البلاد كانت تتهيأ للإنتخابات البرلمانية تمهيدا لعودة الدستور الفعلية الأمر الذى يعنى ضرورة تعيين على ماهر ونجحت وزارة على ماهر فى إتمام هذه المهمة الوطنية بصورة لائقة وفيما يتعلق بتنصيب فاروق ملكاً على البلاد، تم فتح وصية فؤاد المؤرخة فى عام ١٩٢٢، والتى ذكر فيها أوصياء العرش



عدلى يكن ومحمود فخرى وتوفيق نسيم ونظرا لوفاة أحد الأوصياء تم إختيار مجلس وصاية من الأمير محمد على وشريف صبرى باشا «خال الملك» وعزيز عزت باشا: ومرت هذه السحابة السوداء وتمت المنادة بفاروق ملكاً على البلاد ليصبح أول حاكم من أسرة محمد على يتم تنصيبه دون اللجوء للفرامانات العثمانية السوداء أو السيادة البريطانية فقد تم تنصيبه ملكاً بصورة مائة فى المائة واستقالت وزارة على ماهر أو (وزارة البداية ١٩٣٦ والنهاية ١٩٥٢).



القاعة البيزنطية فى قصر عابدين

القصور الملكية

أول من بنى لنفسه قصراً خاصًا من الولاة الذين تعاقبوا على مصر منذ الفتح الإسلامى كان (كان عبدالعزيز بن مروان) عام ٦٥٢م وأطلق عليه اسم المدينة لكبره ونسج على منواله قصور الولاة فى العصر العباسى والأموى والفاطمى حتى جاء صلاح الدين الأيوبى وشيّد القلعة واتخذها مقراً للحكم فى عهد الملك محمد على.

قصر شبرا : من أوائل القصور التى بناها محمد على.

ولد فيه عباس الأول.. وقيل إنه منحوس جاء فيه جثة الأمير طوسون بن محمد على «والد عباس الأول» على مركب شراعى.

الحادث الثانى : حين ذهب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى لزيارة محمد على فى قصر شبرا وركب حماره وذهب إليه وكان الطريق وعرًا فأغتاله قطّاع الطرق ودفن فى مكان مجهول.

بناه محمد على عام ١٨٠٨ وقت كانت شبرا أجمل ضواحى القاهرة. وكان الطريق المؤدى إلى شبرا تظلله الأشجار حيث كثرت قصور أمراء العائلة المالكة، وفى عام ١٨٢٣ أعيد بناؤه.. كان يشتمل على قصر للحريم.. يكسو أرضيته الرخام الأحمر، يضم مجموعة من أندر الطيور المغردة فى العالم تتوسطه نافورة رخامية بديعة، يقال إنها من تصميم «دورفيتى» قنصل فرنسا فى مصر.. أما الشرفات فكانت مزينة بالأسود البرونز.

قصر الجيزة : يحكى أن أحد أولياء العهد الأوروبيين زار إسماعيل فى قصر عابدين وأبدى رغبته فى الفرجة على قصور إسماعيل التى ذاع صيتها فسأل الخديوى إسماعيل الشيخ على الليثى وهو من ظرفاء عصره قائلاً يا شيخ على إذا أمرتك بمصاحبة ضيفنا ولى العهد الأوروبى فعلى أى القصور تفرجه.. فأجابه الشيخ على: علّى قصر الجيزة.. فقال الخديوى ثم ماذا؟ أجاب الليثى: قصر الجزيرة.. فسأل الخديوى.. ثم ماذا؟ ثم نذهب سوياً إلى السراى الصفرا مباشرة.

الخديوى: أنت اتجننت يا شيخ على؟

الليثى: هو فيه حديتفرج على السرايتين ولا يتجننش يا أفندينا!

ولد فيه الملك فؤاد سنة ١٨٦٨ وكان من أعظم قصور إسماعيل.. تكلف بناؤه ١,٣٩٣,٣٧٤ .. أما النقوش والرسوم والزخرفة فقد تكلفت مليونين من الجنيهات.. ما فرشت به الأرض من رخام والتحف والتماثيل والأرائك والسجاجيد كان يزيد على ١٠ ملايين جنيه.

قصر القبة : بناه الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٣.. أول من سكنه الخديوى توفيق.. كان يبنى القصور لأبنائه وولد فيه الخديوى عباس حلمى.. كان ملحقاً به محطة خاصة واستراحة فاخرة وجراحًا خاصًا بالديزل الملكى.

قصر عابدين : أنشىء عام ١٨٦٣ فى عهد الخديوى إسماعيل لينقل مقر الحكم الرسمى من القلعة إلى وسط المدينة.. قام بتصميمه المهندس «دى كوريل ول روسو» الفرنسى وعدد من المهندسين المصريين والإيطاليين والفرنسيين والأتراك كان يملكه عابدين بك أحد أمراء المماليك ولم يشأ إسماعيل أن يغير اسمه.. تكلف إنشاؤه ٧٠٠ ألف جنيه وبلغت نفقات تأثيثه مليونى جنيه وبلغت عدد غرفه ٥٠٠ غرفة وهو من أفخر قصور العالم، كان يوجد به جناحًا لإسماعيل صديق المفتش.

قصر الجوهرة : بنى عام ١٨١٤ فى القلعة بجوار مسجد محمد على.. بنىّ على أيدى المهندسين البلغاريين والأتراك والإناؤط.. وحين زار مصر السلطان عبدالعزيز فى عهد

إسماعيل أقام فيه لمدة سبعة أيام.. به قاعة العرش وهى أكبر حجرة بهذا القصر، وبالقلعة كان يوجد قصران للحريم يشغل مكانهما الآن المتحف الحربى.

قصر رأس التين : من هنا بدأ محمد على حكم مصر ومنه خرج آخر ملوك هذه الأسرة الملك فاروق.

بنى عام ١٨٣٤ .. أشرف على بنائه «سيريزى» بك المهندس الفرنسى وانتهى العمل منه فى عام ١٨٤٥، وافتتح رسمياً ١٨٤٧ وقد تم تصميمه على الطراز الأوروبى.. الذى كان شائعاً بالإسكندرية.. بنى فى أول الأمر على شكل حصن وكان يقع مكانه بعض أشجار التين لذلك سمى قصر رأس التين.. وظل المقر الصيفى لكل حكام هذه الأسرة.. كان مُعدًا ليكون موقعاً للدفاع عن مدينة الإسكندرية.. أعيد بناؤه فى عهد الملك فؤاد على طرار يتماشى مع روح العصر الحديث بتكلفة قدرها ٤٠٠ ألف جنيه.

الأزيـــــاء

خلال حكم إسماعيل تطورت الأزياء من الملابس التركية إلى الأوروبية عرف الشعب البدلة الإفرنجية.

الطربوش : لم يكن الطربوش معروفاً فى مصر إلى عهد غير بعيد حتى أن محمد على باشا عندما إعتلى العرش كان

يلبس العمامة التى كانت لباس الرأس المتعارف عند الأعيان بينما المماليك يرتدون «القاووق - تطورت الأزياء - أبدل محمد على عمامته بالطربوش المغربى.. أما فكرة ارتداء الطربوش كانت سياسية أكثر منها اجتماعية لأن سلاطين تركيا كانوا قد بدأوا يلبسون الطربوش.. فكان الولاة يتشبهون بالسلطان.. لذلك ظل الطربوش المصرى تابعاً للطربوش العثمانى.

أنواع الطرابيش :

١ - **الطربوش المغربى :** «بدأ قصيرًا فى حجم الطاقية».

٢ - **الطربوش العزيزى :** نسبة إلى السلطان عبدالعزيز وتطور فى عهده طولاً وانخفاضًا حتى استقر على شكله النهائى.

الرتب والنياشين :

١ - **رتبة الرئاسة :** يلقب حاملها بلقب «حضرة صاحب الدولة» ولا تمنح إلا لرؤساء مجلس الوزراء سواء فى الوزارة أو خارجها.

٢ - **رتبة الامتياز :** تمنح للوزراء والأعيان ويلقب صاحبها بلقب «حضرة صاحب المعالى» ولحاملها الحق قانوناً فى لقب «باشا» ويجوز منحها بصفة استثنائية لجدارة بعض الأشخاص.

٣ ــ **رتبة الباشوية :** يلقب صاحبها بلقب «حضرة صاحب السعادة» ولا تمنح إلا لكبار الموظفين الذين لا يقل مرتبهم عن ١٨٠٠ فى السنة كما تمنح لكبار الأعيان المصريين الذين قاموا بأعمال مفيدة للبلاد ويجوز منحها بصفة استثنائية للمحافظين والمديرين الذين يبلغ الحد الأقصى لمرتبهم ١٦٠٠ جنيه فى السنة كما يجوز منحها للحائزين على رتبة فريق أو لواء.

٤ ــ **رتبة البكوية** : من الدرجة الأولى تمنح هذه الرتبة للموظفين الذين لا يقل مرتبهم عن ١٢٠٠ جنيه فى السنة ويجوز منح هذه الرتبة للأعيان المصريين الذين قاموا بخدمات للبلاد، كما يجوز منحها للحائزين على رتبة أميرالاى أو ما يقابلها فى البحرية والطيران ويلقب حاملها بلقب «حضرة صاحب العزة».

٥ ــ **رتبة البكوية من الدرجة الثانية :** تمنح للموظفين الذين لا يقل مرتبهم عن ٨٠٠ جنيه فى السنة ويجوز منحها للأعيان المصريين الذين قاموا بخدمات للبلاد. كما يجوز للحائزين على رتبة قائمقام ويلقب صاحبها بلقب «صاحب العزة» بدون حضرة التى تتكلف وحدها ٤٠٠ جنيه فى السنة.

ويتحتم على أصحاب هذه الرتب ارتداء الزى المطابق لرتبتهم فى الاحتفالات الرسمية.

مناصب السراى الرفيعة

رئيس الديوان :

هو حلقة الاتصال بين السراى والحكومة فهو يتصل بالوزارات فى الأوقات العادية وكل ما يتعلق بالملك ويرفع بدوره للملك مطالب الحكومة.. ولابد أن تعرض عليه أولاً قرارات مجلس الوزرء قبل عرضها على الملك لإصدار المراسم بها.. وهو بدوره يشير على الملك بتعديل بعضها أو إقرارها إذا تطلب الأمر ذلك ويدخل فى اختصاص رئيس الديوان أيضاً مسائل مجلس البلاط القانونية والمالية والخاصة بأفراد الأسرة المالكة كما يحتفظ رئيس الديوان بجميع نياشين الدولة وخاتم صاحب الجلالة الذى تختم به البراءات التى لا تصدر دون توقيع رئيس الديوان إلى جانب خاتم الملك.

كبير الأمناء والبروتوكول : من الأمور المثيرة للدهشة أن «البروتوكول المصرى» فى ذلك العهد لم يكن مكتوباً فى شكل بنود أو فقرات ولكن العمل كان يتم من خلال «دفتر الأسبقية الذى صدر به مرسوم ملكى فى عهد الملك فؤاد.

أما السبب الرئيسى فى عدم وجود أسانيد ومراجع «للبروتوكول» المصرى فيعود إلى عدم الاستقرار الذى شهدته مصر عبر تاريخها العريق.. ومن ثم كثرت التغييرات والتعديلات الأمر الذى تعذر معه وضع أى قواعد ثابتة أما

المرجع الرئيس للبروتوكول المصرى فهو بالطبع كبير الأمناء وزعيمهم «سعيد باشا ذوالفقار» الذى شغل هذا المنصب فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى والسلطان حسين كامل والملك فؤاد والملك فاروق أيضاً. أما مهام منصبه الرسمية فتتعلق معظمها بطلبات للمقابلات الملكية وتحديد موعدها وزيارات الملك والملكة والحفلات الرسمية بالإضافة إلى الإشراف على وضع خريطة المآدب الرسمية التى لابد أن تعرض على رئيس الأمناء لمراعاة الـ Gentellage بمعنى إنه إذا كان هناك تفاوت بسيط بين شخصين فإن رئيس الأمناء يتفاداه بشكل لا يشعر بتمييز أحدهما عن الآخر مع عدم الإخلال بقواعد الأسبقية وهى مهمة عسيرة وتحتاج إلى مهارة فائقة بالإضافة إلى مهامه الأساسية فى وضع برامج سفر الملك إلى الخارج والإشراف على زيارات الملوك الرسمية إلى مصر.

المآدب الملكية

يكون الحضور فى مآدب العشاء ببدلة التشريفة والنياشين إذا كانت المأدبة لتكريم ملك أو رئيس دولة أجنبية فى زيارة رسمية أو فى المناسبات الرسمية التى يأمر الملك بارتداءها وفى المناسبات الأخرى يكون الحضور ببدلة السهرة والنياشين.. أما مأدب الإفطار وحفلات الشاى فيكون الحضور فيها بالردنجوت.

المائدة الكبرى بقصر عابدين

يرتب المدعوون حسب الأسبقية التى يتوسطها الملك واحد عن يمينه والآخر عن يساره والأمر كذلك بالنسبة لمركز المائدة الثانى ويستمر الأمر بالتناوب حتى رقم (٩) بالخارج و(٥) بالداخل بعد ذلك يتم توزيع بقية المدعوين حول المائدة.

جوارى القصور

انتقل نظام جوارى القصور من تركيا إلى مصر، كانت جوارى القصر ينقسمن عادة إلى فرق.. كل فرقة مكونة من ثلاثين جارية تعمل أسبوعًا وتستريح أسبوعًا.. فهناك فرقة للغسيل كانت تقف بكامل هيئتها أمام الأحواض التى من المحتم أن تكون ٣٠ حوضًا وتتنقل قطع الغسيل وتتناوبها الأيدى من خلال مرورها على ثلاثين جارية لضمان نظافتها المؤكدة بالطبع وعلى رأس كل فرقة كان يتم تعيين (قلفا) أو رئيسة يكون لها الحق فى مجالسة الأميرات!

أما الفرقة الموسيقية فكانت تجيد عضواتها الموسيقى والغناء التركى والفرنسى وكان يعهد للأغوات بمراقبتهن، واستمر العمل بهذا النظام منذ عهد محمد على حتى أواخر عهد توفيق فيما يتعلق بتربية الأمراء يعهد بالمولود إلى إحدى الجوارى التى ترعى الأمير أو الأميرة وتصبح منذ تلك اللحظة أماً مربية.. من هنا ظهرت سطوة إسماعيل صديق المفتش أخو الخديوى

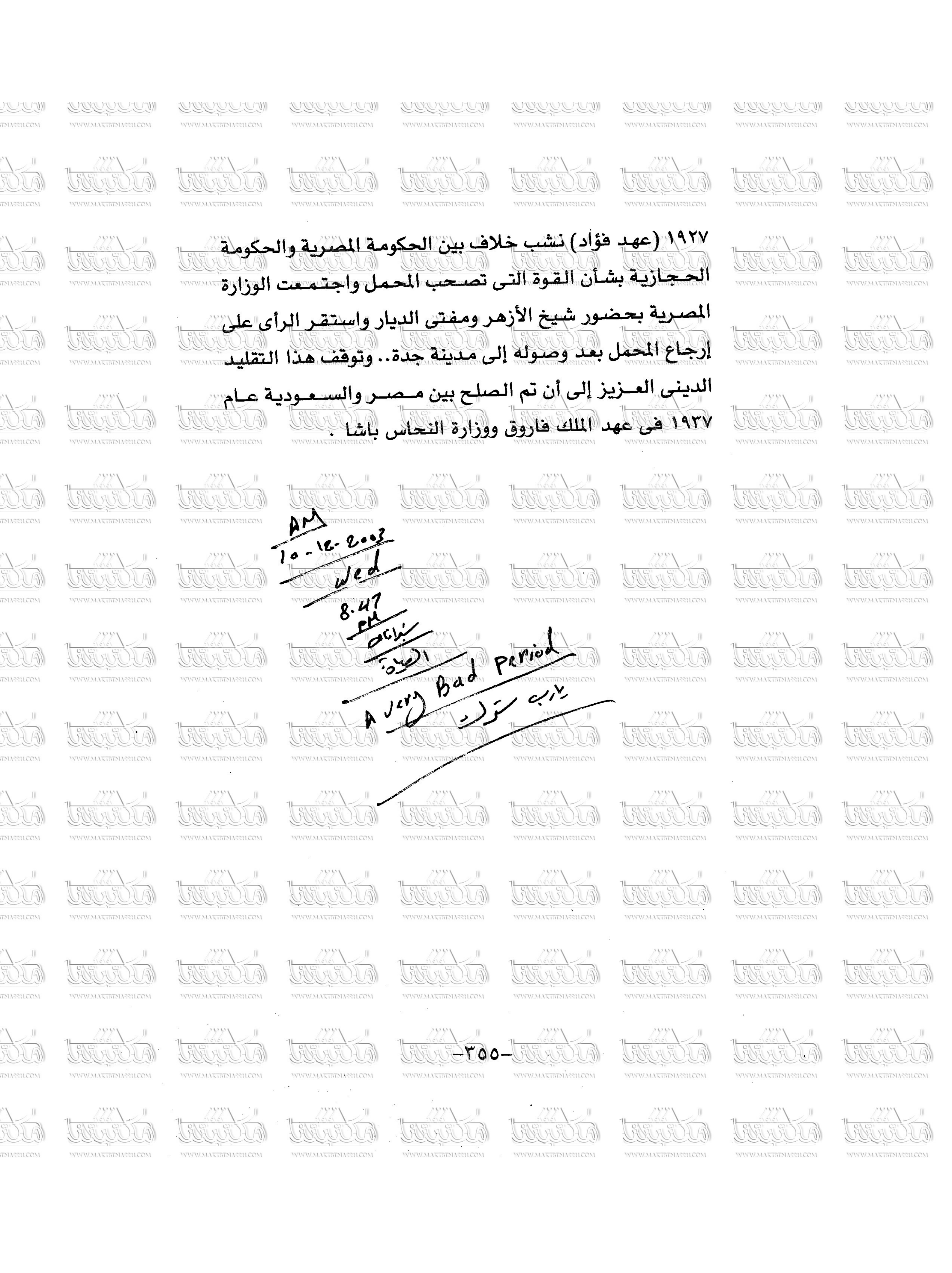
إسماعيل فى الرضاعة والذى كان يطلق عليه «الخديوى الصغير»!

الأغوات

نشأت هذه الطائفة فى القصور الملكية وكانوا يتصفون بالأمانة والطاعة ويرأسهم «الباش أغا» الذى كان يوفد من قبل الملكة لشكر قرينات الوزراء على تهنئتهن لها فى المناسبات الرسمية وبدأت هذه الطائفة فى الإنقراض منذ نهاية عهد توفيق.. وهم غالباً ما يقفون على أبواب الحرملك يجترون أحزانهم فى صمت بليغ!

المحمل

عرفت مصر المحمل منذ عهد شجرة الدر، حين ذهبت لأداء فريضة الحج وسافرت على جمل ذو هودج بديع، نقشت عليه الآيات القرآنية بخيوط الذهب، ومنذ ذلك التاريخ ارتبط المحمل الذى يحمل كسوة الكعبة المشرفة بأهم العادات والتقاليد الدينية التى ينتظرها الناس سنوياً، ويتم الاحتفال من خلال كرنفال شعبى يطوف فى شوارع القاهرة وكان من المألوف أن يرافق المحمل قوة عسكرية لحمايته من الأعراب.. وترافقه بعثة طبية ترافق حجاج بيت الله الحرام المصاحبون للمحمل، واستمر هذا التقليد الدينى مئات السنين حيث حرصت مصر زعيمة الأمة الإسلامية على إحيائه . وفى عام



١٩٢٧ (عهد فؤاد) نشب خلاف بين الحكومة المصرية والحكومة الحجازية بشأن القوة التى تصحب المحمل واجتمعت الوزارة المصرية بحضور شيخ الأزهر ومفتى الديار واستقر الرأى على إرجاع المحمل بعد وصوله إلى مدينة جدة.. وتوقف هذا التقليد الدينى العزيز إلى أن تم الصلح بين مصر والسعودية عام ١٩٣٧ فى عهد الملك فاروق ووزارة النحاس باشا .

الأمير محمد على توفيق





الملك فؤاد الاول فى زى فارس



الخديو اسماعيل: أناقة لافتة



الأمير محمد على بالزى التركى



الأمير أحمد فؤاد يدير مجلس إدارة جامعة فؤاد الأول



الملك فؤاد و ولى العهد فاروق(الكشاف الأعظم)

الخديو اسماعيل



بورتريه ابراهيم باشا

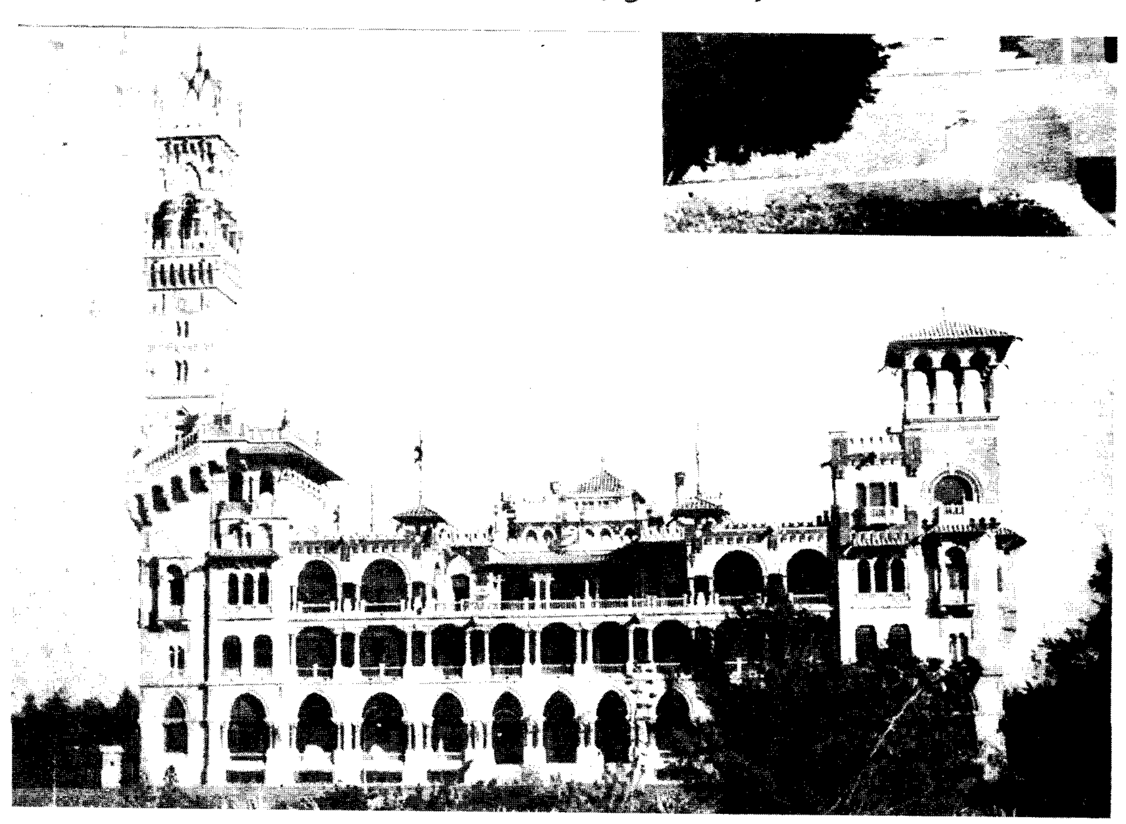




الركائب الملكية



الخديو عباس حلمى و شقيقه الأمير محمد على توفيق



قصر المنتزه

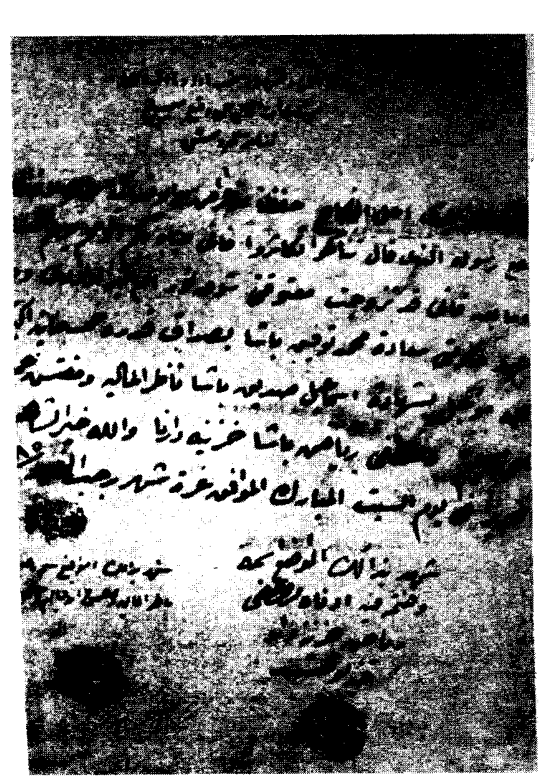


الملكة نازلى فى الرابعة من عمرها



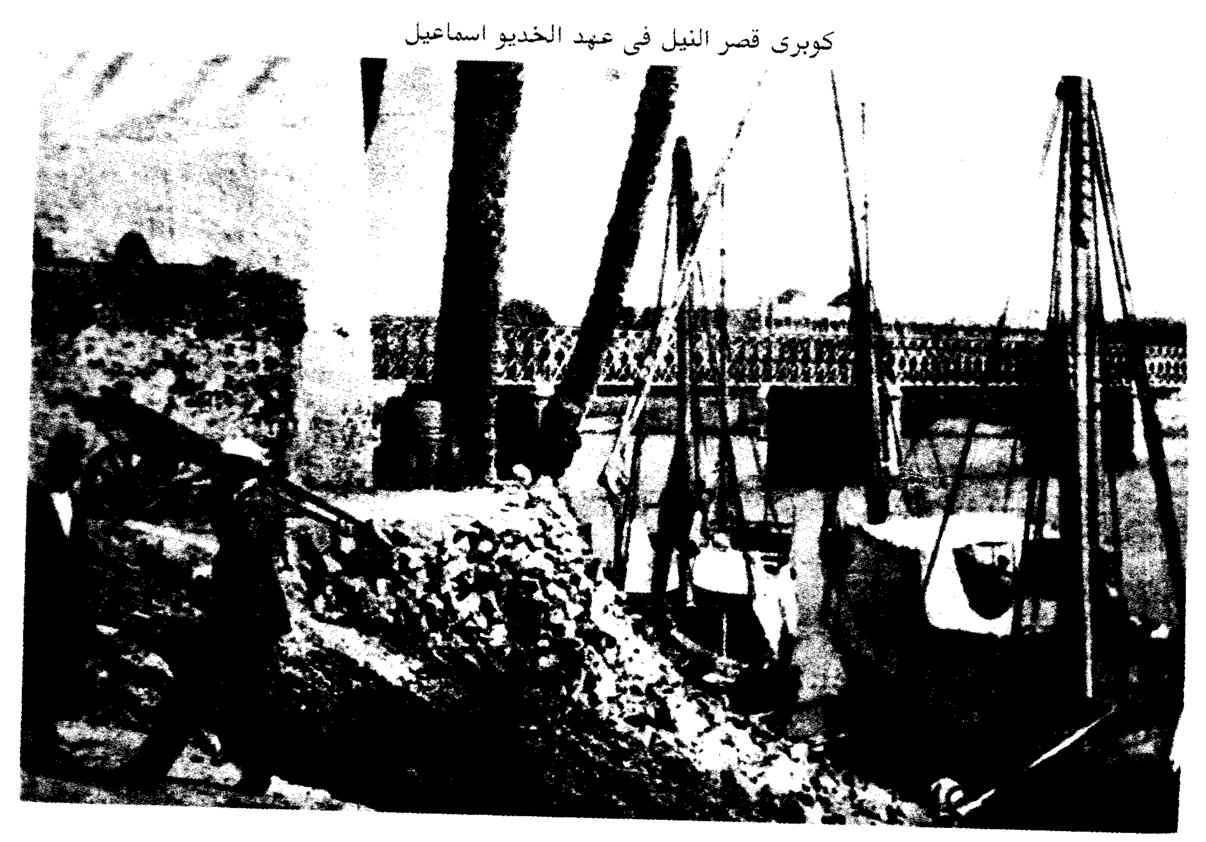
أمينة الهامى زوجة الخديو توفيق





وثيقة زواج الخديو اسماعيل

كوبرى قصر النيل فى عهد الخديو اسماعيل



الملك فؤاد فى إحدى جولاته





الخديو اسماعيل فى سنوات الصبا



حى الأزهر فى عهد محمد على



الخديو عباس حلمى و الأمير محمد على



شريف باشا



شجرة عائلة أسرة محمد على

المراجـــع

المـراجع

١) محمد على وأوروبا تأليف: رينيه قطاوى . القاهرة

٢) عصر محمد على تأليف: عبدالرحمن الرافعى . دار المعارف (١٠) ص ٩٢.

٣) تاريخ الحركة القومية . عبدالرحمن الرافعى . دار المعارف (٢) ص ٣٤.

٤) عصر إسماعيل . عبدالرحمن الرافعى . الجزء الأول . دار المعارف (٣٤) ص ٣٦

٥) عصر إسماعيل . عبدالرحمن الرافعى . الجزء الثانى . دار المعارف (٢٨) ص ٩٢، ٩٤

٦) تراجم مصرية وغربية . د. محمد حسنين هيكل . دار المعارف

٧) مصر ولع فرنسى . روبير سوليه . ترجمة: لطيف فرج . الهيئة العامة

للكتـــــاب(٧) ص ٣٢ (٨)ص ٣٣، (١٥) ص١١٢، (٣٥) ص١٣٠ (٣٧) ص ١٤١ (٤٧) ص١٨٣

٨) تاريخ الوزارات المصرية . يونان رزق . مركز الدراسات الاستراتيجية الأهرام (٥) ص٣٣٨

٩) النظارات والوزارات المصرية «مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر» جمع وترتيب: فؤاد كرم . القاهرة دار الكتب.

١٠) الفاطميون فى مصر . حسن إبراهيم حسن . القاهرة

١١) تاريخ الفكر المصرى الحديث . د. لويس عوض . الهيئة العامة للكتاب (٢٦) ص٢٩٧، (٢٧) ص٢٤٨، (٣٠) ص٥١، (٣٣) ص٣٣٢

١٢) تاريخ سلاطين بنى عثمان . يوسف أصاف . مكتبة مدبولى (١) ص١٠

١٣) كل رجال الباشا . خالد فهمى . ترجمة: شريف يونس . دار الشروق

١٤) فى أعقاب الثورة المصرية . عبدالرحمن الرافعى . القاهرة . دار المعارف

١٥) In The house of Muhammed ali - Auther: Hassan Hassan

١٦) القاهرة عمرها ٥٠ألف سنة . د. سيد كريم . الهيئة العامة للكتاب (٢٢) ص٨١ (٢٣) ص١١٣

١٧) تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل . إلياس الأيوبى . دار الكتاب المصرية (٢٤) ص١٤٣، (٢٥) ص٤٠٣، (٢٩) ص٣٦٧، (٣١) ص٣٩٩

١٨) مذكرات سعد زغلول ـ الهيئة العامة للكتاب

١٩) أوراق محمد فريد ـ الهيئة العامة للكتاب (٤٤) الكراسة الأولى.

٢٠) أيام لها تاريخ ـ أحمد بهاء الدين ـ القاهرة

٢١) «عهدى» ـ مذكرات عباس حلمى الثانى ـ ترجمة د. جلال يحيى ـ دار الشروق القاهرة (٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٤٦)

٢٢) محمد على رؤية حادثة القلعة ـ د. حسين كفافى ـ الهيئة العامة للكتاب (٩) ص٧٢

٢٣) المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ـ د.السيد رجب حراز ـ دار النهضة العربية (٣) ص ٨٤، (١٤) ص٢٨٨، (٣٢) ص٣٩٧

٢٤) بناء دولة مصر ـ محمد على ـ محمد فؤاد شكرى ـ عبدالمقصود العنانى ـ سيد محمد خليل ـ دارالمعارف (٤)، (٥) ص ٢٤١، (١١) ص ٦٩٠، (١٢)، (١٣) ص ٦٩٨

٢٥) دولة المماليك فى مصر وليم موير ـ ترجمة: سليم حسن ومحمود عابدين مكتبة مدبولى

٢٦) بدائع الزهور فى وقائع الدهور (ابن إياس) القاهرة

٢٧) الخطط التوفيقية لمصر ـ على باشا مبارك ـ القاهرة (٦) ص١٥٦

٢٨) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ جمال الدين أبى المحاسن

٢٩) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (الجبرتى) ـ القاهرة

٣٠) تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية . إبراهيم عبده . مطبعة التوكل

٣١) تاريخ الوقائع المصرية . د. إبراهيم عبده . المطبعة الأميرية

٣٢) تقويم النيل . أمين باشا سامى . القاهرة

٣٣) الدولة العثمانية والشرق العربى . د. محمد أنيس . الإنجلو المصرية

٣٤) نصوص ووثائق فى التاريخ الحديث والمعاصر . «كشف الستار عن سر الأسرار لعرابى باشا . تأليف د. محمد أنيس . محمد فؤاد شكرى . محمد رجب حراز . القاهرة

٣٥) إسماعيل كما تصوره الوثائق . جورج جندى . جاك تاجر . دار الكتب المصرية (١٧)، (١٨)، (١٩)، (٢٠)، (٢١).

٣٦) جماعة النهضة القومية . د. رؤوف عباس

٣٧) فؤاد الأول . عبدالعزيز الأزهرى . على سرحان . محمد مجاهد (٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١)

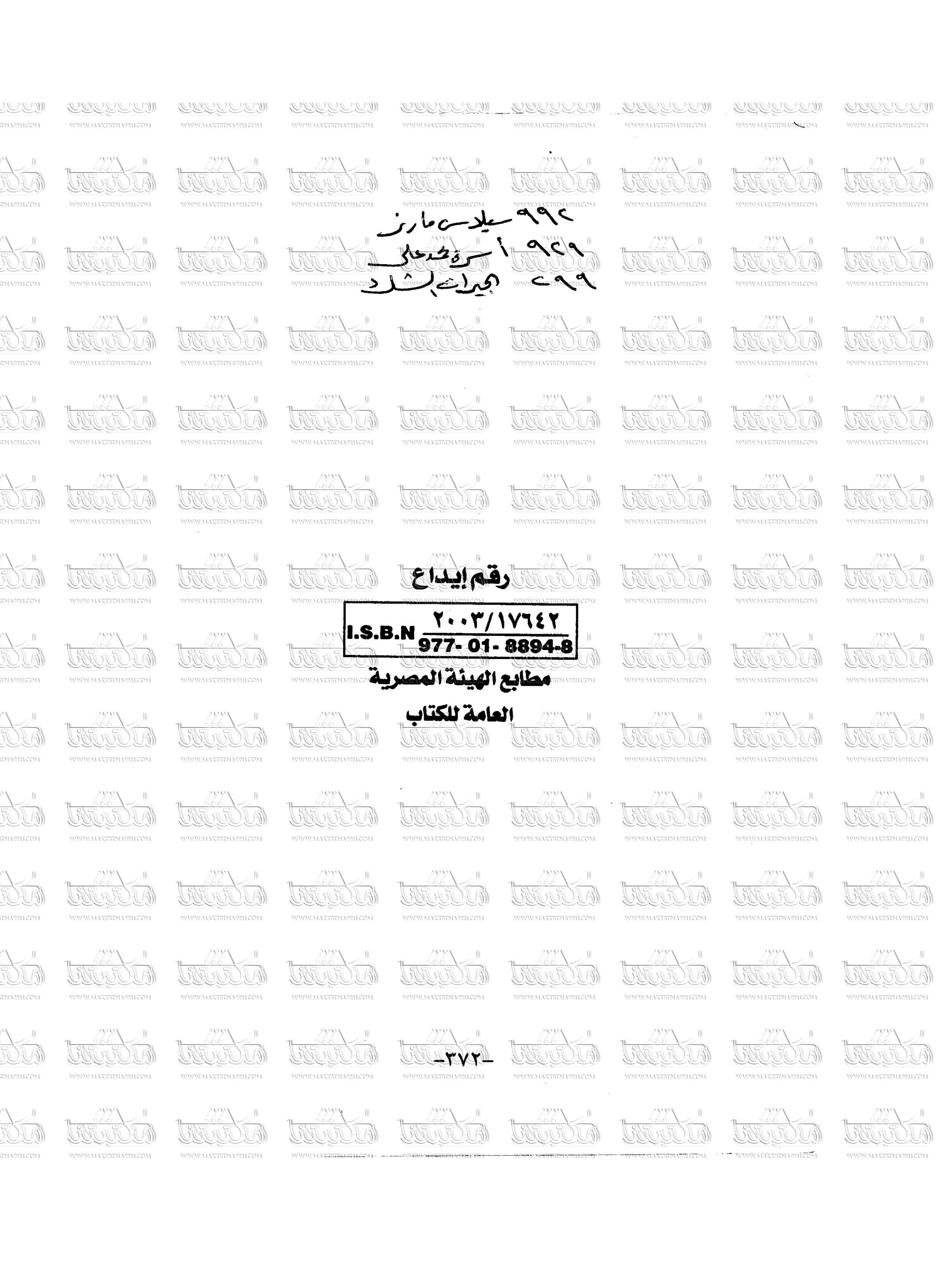
٣٨) حريم محمد على . صوفيا لين بول . ترجمة د. عزة كراره . كتاب سطور

٣٩) إبراهيم فى الميدان . د. حبيب جاماتى . الهلال

٤٠) ثورة ١٩١٩ . عبدالرحمن الرافعى . دار المعارف (٥٢) ص ٨٤، (٥٣) ص٤٤٠

٤١) مجلة المصور العدد ٢٣٥٤ (٣٦).

الفهرس



رقم إيداع

٢٠٠٣/١٧٦٤٢

I.S.B.N 977-01-8894-8

مطابع الهيئة المصرية

العامة للكتاب